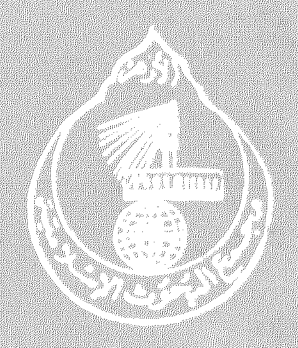


من
فيض الرسالة

تأليف

الدكتور ابراهيم على أبو الخشب

السنة الخامسة - العدد الثالث والستون

غرة ربيع الأول ١٣٩٣هـ - إبريل ١٩٧٣م



اهداءات ٢٠٠٢
د/ محمد عبد الفتاح الغمراوى
الاسكندرية

من فيض الرسالة

تأليف
الدكتور ابراهيم على أبو الخشب

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م




بسم الله الرحمن الرحيم
(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)
(صدق الله العظيم)



تقديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على خير رسله ، محمد ابن عبد الله ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ومن سلك سبيلهم واستن بسنتهم إلى يوم الدين .

وبعد :

فعلى فترة من الرسل ، ضاعت فيها معالم الحق ، وضل البشر سواء السبيل ، بعث الله رسوله سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، ففتح الله به الإنسانية فتحا جديدا ، عرفت على أضوائه طريق الرشاد ، ودخلت الحياة من مدخلها الصحيح ، فتحررت من إصار الذل ، وحطمت أغلال العبودية ، وتقدمت باسم الله وعلى بركة الله ، وتحت راية الإسلام ، تنشىء حضارة سامقة ، وتكتب تاريخا عبق بأطيب الشذى .

ومن كان فى ريب من ذلك فليس عليه إلا أن يتجرد من الهوى وينحى عوامل الجنوح ، ويقرأ تاريخ ماقبل الإسلام ومابعده فى مشرق الأرض ومغربها ، وسيجد بعد الجولات النزيهة الأمينة أن دعوة الإسلام وليس سواها هى التى فتحت القلوب والآذان ، والعقول والأبصار ، وإن كان كل مانراه اليوم من حركات إصلاحية أو وثبات علمية قامت على قواعد الفكر الإسلامى ؟

فإذا احتفل المسلمون فى ذكرى مولد الرسول الكريم فليكن احتفالهم عودا إلى المعين الذى لا ينضب ، يجددون العهد أن يكونوا حيث يرضى الله ، وتهدف إليه رسالة الإسلام ، استجابة صادقة واستلهاما أمينا ، يفتح الله بهما الطريق إلى العزة والكرامة ، ويهدى بهما الله إلى الصراط الذى لايضل عليه المسار ؟

ولنا فى سوابق التجارب عبرة وعظة ، والتجارب الواعظات ينبغى أن تكون موضع تأمل وتدبر الذين يبتغون الرشاد ، ويتطلعون إلى الهدى ، فيلقون السمع ، ويفتحون القلب ،

وخير التجارب تلك التجربة الرائدة التى عاشها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فهى حافلة بالكفاح ، حافلة بالأمل ، حافلة بألوان النصر العزيز .

وكتاب (من فيض الرسالة) لمؤلفه الدكتور إبراهيم أبو الخشب يقدم للقراء قبسا هاديا من حياة صاحب الذكرى ، صلوات الله وسلامه عليه ، نرجو أن يفيد منه قارئوه ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم :

والله الموفق والهادى إلى أقوم سبيل ؟

دكتور محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة

كانت الأمانى الحلوة التى تدور بذهنى ، وتطوف بخاطرى — فى كل مناسبة دينية تهز وجدانى ، وتثير مشاعرى — أن يكون لى حديث تسجله الإذاعة ، أو تنشره الصحف والمجلات عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، أصور فيه إعجابى به ، وحبى له ، وأملى فيه ، وطالما تحقق لى الكثير من هذا الرجاء ، فكتبت وأذعت وتحدثت ، وجرى ذلك كله بكيانى جريان الدم فى العروق ، إلا أنى أيقنت أن هذه كلها قد لا يذكرها الناس إلا فى حينها ، وفى الوقت الذى ينتهى إلى أسماعهم حديثها ، ثم يكون نصيبها منهم — أو نصيبهم منها — التغافل والنسيان ، وذلك مالا يليق بإنسان أرسله ربه رحمة للعالمين ، وجعله إمام الصديقين والشهداء والصالحين ، وأنقذ به البشرية من الضلالة والحيرة ، والشك والشرك ، والجهالة والعمى ، فصارت تنعم بنور الهداية ، وتحيا بالعلم والفقه ، والفهم والعرفان ، والبر والخير ، والوئام والحب ، والألفة والاجتماع ، والعمران

والرقى والتقدم والحضارة ، والسيادة والحرية . لايستذلها أحد ، ولايستعبدها إنسان ، ولايصح أن يكون جهدى من الاعتراف بفضله ، والتسجيل لأياديه رهنا بهذا النطاق المحدود بل لابد من أن يكون كتابا يحرص المؤمن على اقتنائه ، ويعمل على صونه ، ويضن به من أن يضيع فى زحمة الأفكار ، أو فى خضم الإهمال والنسيان ، والكتاب كان ـ ولايزال ـ ذخر الأديب ، وتحفة العالم ، ورأس مال العاقل ، ونزهة المهموم ، ومفزع الحائر ، ودنيا أولئك المحرومين من دنيا الناس :

إلا أننى حينما ابتدأت العزم المصمم على إبراز هذه الفكرة إلى حيز الوجود لم يتيسر لى أن أظل مرتبطا بها حتى النهاية ، لتكون كلها صورة لانفعال وجدانى واحد ، تتناسب فيه المشاعر ، وتتشابه الملامح ، وتتعانق الألفاظ بالمعانى ، فتجىء كما تجىء الحسناء وخيالها فى المرآة ـ كما يقول أديب العربية الرافعى ـ عند من يحسنون الظن بى وبما أكتب فى بعض الأحايين ... ولكننى ارتبطت بالكتابة ، وانقطعت لها ، فى فترتين مختلفتين تمام الاختلاف ، قد قطعت مابينهما شواغل ، وحالت ملابسات ،

جعلت الكتابة كأنها لرجلين يتميز أحدهما عن الآخر فى أدبه ووعيه ، وتصويره وذوقه ، وفهمه وإدراكه ، فمن أول الكتاب حتى عنوان « فى المدينة » كانت الفترة الأولى ، ثم من بعد ذلك إلى نهاية الكتاب كان فترة ثانية :

ولذلك فإن القارىء يرى أن الطابع المميز للأولى هو أسلوب القصة ، وخيال الشاعر ، وتصوير الرسام ، وطريقة الأديب ، أما الفترة الثانية فإنها كتابة المؤرخ الذى يعنى بالأحداث ، ويهتم بالأعاصير ، ويجرى وراء عجلة الزمن ، متتبعا لآثارها ، وماتخلفه وراءها من تغيير الأوضاع والحقائق ، معلقا عليها أو غير معلق .

وحينما انتهيت من الكتاب ووجدت هذين اللونين من الكتابة هممت لأن أهمل شأن هذا الكتاب لأبتدئه من جديد ، على نسق واحد قصصى أو تاريخى ، غير أنى خفت ألا يساعدنى وقتى على الكتابة ، ثم قلت : ماذا يضير القارىء — وفى كل

خير – أن يجد هذين اللونين ، ويمتع خاطره بهاتين الصورتين ، وكلاهما – أو كلتاهما – مما يطلبه الوجدان ، وينشده العقل والرأى .

وأدع للناقد بعد ذلك كله حكمه الذى يصدره ، وتقديره لهذا الصنيع ، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الجهد خالصا لوجهه ، مقبولا عنده ، مشكورا لديه ، إنه هو حسبى (يَوْمَ تَرَى المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِم وَبِأَيْمَانِهِم) وهو نعم الوكيل .

د : إبراهيم على أبو الخشب

يارسول الله

ماتفقدت الإنسانية فضيلة نادرة إلّا وجدتها نفحة من أدبك ، أو لمحة من خلقك أو ومضة من نورك ، أو خطوة من سلوكك ، أو لفتة من هديك ، أو شعاعا من توجيهك ، أو عبرة من تاريخك أو قبسا كنت تبعث به فى الليالى الحالكة ، والسبل الملتوية ، والمعالم المشتبهة ، والساعات الكالحة ، والأوقات الحرجة ، والمحن الصارخة ، والظروف البغيضة ، والشدائد الكريهة . . .

وسيظل تاريخك خالدًا خُلودَ الأبد ، باقياً بقاء الدهر ، مُدَوّياً دَوِىَّ الأذان ، مضيئا كالصبح ، يتحدى الفناء ، ويصارع الأحداث ، ويغالب الأيام ، ويكافح الزمن ، ويحارب الطغيان ، ويُخضع الجبابرة ، ويقضى على الفساد ، ويعلن المساواة ، وينادى بالحب ، ويتعقب الاستبداد ويشرع الاشتراكية : ويقصم ظهور المتكبرين فى الأرض بغير الحق . . لا لأنك رسول رب السماء والأرض — الذى يحتمى ببطشه ، ويعتز بسلطانه ، وينتصر ببأسه ، ويقاتل بسيفه ، وينطق بلسانه ، ويصونه من بغى

المسلّطين ، وعدوان المفسدين ، الذى لايتغافل عن الملحوظين بعنايته ، المشمولين بلطفه ، المحفوفين برضرانه ، المغمورين برحمته — ولكن لأنك كنت المثل الأعلى الذى ترتقى إليه البشرية عند نموها ، وتتطلع له فى تقدمها ، وتحاول أن تحتذيه كلما ثاب إليها الرشد ، أو عاودها الحلم ، وتيقظ فيها العقل ، وتحركت أسباب الفقه والمعرفة ، وألهمها ربها السداد والتوفيق . .

والحديث فيك .. يارسول الله حبيب إلى النفس ، خفيف على السمع ، لذيذ رجعه كأنه الموسيقى للقلوب الظامئة ، والأفئدة الملتاعة ، والجوانح الحَرّى ، والأكباد المحترقة ، والأرواح المتشوفة ، لاينتهى له مدى ، ولاينقطع له جرس ، ولاينضب له معين . . ينشده الأديب فيجد فى حديثك الحكمة الغالية ، والبلاغة الرائعة ، والأسلوب القوى ، والتصوير الدقيق ، والألفاظ الفخمة ، والمنطق الحلو ، والبيان العذب ، والوجدان الصادق ، والنمط الذى لايصل إليه أساطين الكلام ، ودهاقين القول ،

وجهابذة الحديث ، وأساتذة الأدب . . ويتصفحه المصلح الاجتماعى فلا يعثر فيه إلا على هَدْيٍ نافع ، ودستور قويم ، وتهذيب صحيح وتقويم واضح ، وتوجيه سديد . .

وهكذا كل جوانبك — يارسول الله — شامخة ، وجميع جهاتك عامرة آهلة بالخصوبة ، غنية كل الغنى بالبر والمعروف ، و الأمن والسلامة ، والرضا والاطمئنان ، وأنا أجد فى حديثى عنك لذة لنفسى ، ومتعة لخاطرى ، وغذاءً لروحى ، وضياءً لقلبى ، وشفاءً لغليلى ، وإرواءً لظمئى ، وإرضاءً لضميرى ، فلا أسلك فى الكتابة فيك سبيل التاريخ الجامد ، ولا طريق الحوادث المألوفة ولانهج السيرة المعروفة ، ولاماتعود الناس أن يرددوه عنك ، أو يذكروه لك ، أو ينسبوه إليك ، أو يذيعوه عنك . . .

وليس هذا تخيلا يتخيله شاعر ، ولاوَهْماً يدور بخلد فيلسوف لأن الخليقة لم تعرف رجلا لفت جيد الزمن ، وشغل أذهان الناس وحيّر ألباب المفكرين ، وتطلعت الدنيا إلى مافيه من أخلاق نبيلة وسجايا عظمى ، وخلال طيبة ، وسلوك حميد ، وأدب جم ،

قبل أن تعرفك أنت ، فتعرف طبّها وعلاجَها ، وشفاءها ودواءها ومثلها العليا ، وأهدافها البعيدة . .

والدراسة التى تناولتك – يارسول الله – والآداب التى أخذت عنك ، والسلوك الذى رسمته ، والمنهج الذى بينته ، والأخلاق التى رغّبت فيها ، ودعوت إليها هى الدستور الذى كانت البشرية بحاجة إليه لينير لها الطريق إلى مستقبل أفضل ، وغاية أكرم ، ومجد أنبل ، وسعادة أعظم ، وأمن أشمل ، وعدالة أكمل ، وإصلاح أعمق ، وبخاصة إذا نظرنا إلى تلك البلبلة التى كان عليها العرب ، حينئذ – وإلى تلك الجهالة التى كانت تضرب بجرانها فى الجزيرة ، ولاسيما فى المسائل الدينية وقد كانوا فيها أشبه ببحر يموج . أو بركان يغلى ، لاهدف يصح لهم أن يتجهوا إليه ، ولاغاية يمكن أن يقفوا عندها ، ولكنهم كانوا يعبدون الكواكب ، ويؤلهون القوة ، ويعظمون الجماد ، ولايدينون للحق ، أويفتحون قلوبهم للهداية ، أوينظرون بعيونهم نحو النور ، أو يوجهون أفئدتهم إلى الصواب ، يشتغلون بالخرافة ويتعلقون بالباطل ، ويهتمون الاهتمام كله بالأخذ بالثأر ، والمعاقرة للخمر ، وإشباع الشهوات النازلة ، والميول الساقطة ، وليس لهم

من المعارف مايساعدهم على أن تكون لهم حضارة تجعلهم فى صفوف الدول الناهضة ، أو الأمم المتقدمة ، المتطلعة إلى العمران والإصلاح ، والانتعاش واليقظة ، والسير إلى الغايات المحمودة . .

وفى الحق ! إن للدهر أن يطأطئ رأسه لك — يارسول الله — إجلالا لما كان من تاريخك ، وإعجابا بما كان من خلالك ، وإكبارا لما كنت عليه من خلق عظيم ، تجاوز حدود التقدير والاحترام . . .

ونحن لانشك فى أن أصحاب الدعاوى ، وأرباب المبادئ ، وحملة المشاعل ، وقادة الأمم ، وزعماء الإصلاح — فى كل زمان ومكان — لايصلون إلى غاياتهم ، أو يبلغون أهدافهم ، بذرابة لسانهم ، ونصاعة بيانهم ، وقوة حجتهم ، وسداد رأيهم ، واستقامة نهجهم ، وخلابة منطقهم ، وروعة بلاغتهم ، بمقدار ، مايساعدهم على ذلك سلطانهم المرهوب ، وقوتهم المخيفة ، وبأسهم المسلط ، أو نصرة تقف إلى جانبهم ، من قرابة قريبة ، أو ولاء مسعف ، أو عصبية تدافع ، أو مال يغرى بالإقبال والرغبة ، ويعمل على تمكين النفوذ والجاه ، وإشاعة الإرهاب والخوف ،

وأنت لم تنصرك عصبية ، ولم يساعدك مال كان فى يدك ، ولانفوذ أتيح لك ، غير أن سيرتك كانت قرآنا . وحياتك كانت برهانا ، وقد استقبلت الإنسانية حديثك الطيب استقبالها للأحداث الهامة ، والأمور الغريبة ، والمعجزات الكبرى ، وآمنت بسبب ماعرفت منك – أن لله سرًّا يخفى على الفطنة . ويدق على الفهم ، ويتسامى على المنطق ، ويتجاوز حدود العادات ، ويأبى أن يخضع للمألوف ، ولايسع الناس أمامه إلا أن يردوه إلى خالق السماوات والأرض ، ومدبر الكون الواسع ، والملك الفسيح العريض !!.

وفيك – يارسول الله – تحكم الفقر ، وتمكن اليتم ، واستبد الجوع والحرمان ، والذى جرت به العادة مع الأطفال الذين تحيط بهم تلك الحياة ، وتلعب بهم تلك الأحداث ، وتهز كيانهم هذه الأعاصير ، أن يموت فيهم النزوع إلى المجد ، والرغبة فى الكمال والتطلع إلى الأهداف البعيدة ، والأغراض النبيلة ، والغايات السامية ، وأنت – يارسول الله – لم يقل قائل : إن همتك كانت واهنة ، وأن عزيمتك كانت فاترة ، أو أن نهوضك كان كسيحا أو أن نزوعك كان ضعيفاً ، أو أن طموحك كان ميتا ، أو أن

قناتك لانت لغامز ، أو أن نفسك ذلت لجبار ، أو أن عودك انحنى لمتسلط ، أو أن جهادك للإصلاح وقف فى منتصف الطريق أو حولته عن القصد غايات ، أو منعته عن نهايته موانع ! . .

وفى سلوكك منذ كنت ناعم الأظفار ، غَضّ الإهاب ، صغير السن — من سمت طيب ، وخلق قويم ، وعقل بصير ، وفكر ناضج ، ورجولة مبكرة ، وعظمة لاتَصَنُّع فيها ولا احتيال — مايدل على أن مستقبلاً باسما كان ينتظرك ، ومجداً تالدا كان يترقبك وجاهًا عظيما كان على موعد معك ، وأن الإرهاص الذى يسبق المعجزة يسارع إليك ، ليؤذن بالنهاية الكريمة ، والمصير العزيز ، والختام الحميد ، والتاريخ الذى يرويه الآباءُ للأبناء ! . .

فلما بلغت مبلغ الرجال وكنت تَقْرى الضيف ، وتحمل الكل ، وتؤَازر الحق ، وتنطق بالصدق ، وتعين على المعروف وتنصر المظلوم ، وتخفّف ويلات المكروبين ، وتمتلىء نفسك ، الكبيرة بالمعانى النبيلة ، والعواطف السامية ، والأمانى الطيبة ، والنوايا الصادقة ، والغرائز المهذبة ، والخلال الكريمة ، والسجايا

المحببة ، هالهم أمرك ، وعناهم شأنك ، وظنوا أن الأيام سوف تتمخض فيك — لامحالة — عن قيصر الروم ، أو كسرى الفرس أو فرعون مصر ، أو حاكم مستبد قاهر ممن كانوا يسمعون عنهم من الأساطير والأخبار ، إلا أنك حين جهرت بدينك الصحيح ، ويقينك السليم ، وإيمانك القوى ، وكشفت بذلك — كله — عن الحق الصراح ، والسلوك السوى ، والعدل المحض ، والنهج القويم ، تضاءل فى أنظارهم كبرياء الظالمين ، وغطرسة أولئك المتعالين المتكبرين ، وتهاوت تيجان الملوك والسلاطين . وآمنوا أن هذه الدنيا التى كانت لهؤلاء لاتزن إلى جانب ما أعطاك الله إياه جناح بعوضة ، ولاقلامة ظفر ، ولكنها غبار يتطاير ، أو سراب يخدع ، أو وهم لاينطلى إلا على الأغرار البله . .

والعجيب الغريب أن تكون — يارسول الله — مع هذه المكانة التى كنت عليها من العظمة والمجد . والسؤدد والشرف ، والجاه والرفعة ، والسيادة والعزة ، والسلطان والنفوذ ، متواضعا غاية التواضع ، حليما إلى أقصى نهايات الحلم ، جامعا المكارم كلها ، تبذل وتعطى ، وتسخو وتجود ، وتنقذ من يتورط فى شدة ،

أو يشرف على هالكة ، أو يعانى حرجا ، وربما نسيت إساءة المسىء وآثرت غيرك على نفسك ، وقابلت الشر بالخير ، والأذى بالصفح والعفو ، واللوم بالكرم . . وكم أعلنت فى كل مناسبة أنك بشر تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق ، وناديت فى القاصى والدانى بهذا الأدب الرفيع : « إنكم لاتسعون الناس بأرزاقكم ، وأموالكم فسعوهم بأخلاقكم » لتعطيهم الأمثال منك ، والقدوة بك ، والاتباع لك ، وحاشا لخلقك ألا يكون إلا كذلك ، وما عاب أحد لك صنيعا ، أو انتقد لك سلوكا ، ولم تكن جباراً فى الأرض ، ولا قاسيا على الناس ، بل كانت دعايتك بالحسنى وهدايتك بالرفق ، وإصلاحك بالحزم ، وإرشادك بالحجة ، وتوجيهك بالمنطق ، ونصحك باللين ، وسياستك بالحلم ، ومعاملتك بالأدب ، وحكومتك بالقسطاس ، وغضبك لله ،وغيرتك للحق ، وانحيازك إلى جانب الفضيلة ، وجهادك للإصلاح ، وحياتك للخير ، وهدفك أن تعلو كلمة السماء . .

وهكذا تكون العظمة التى لم يفرضها أصحابها بالباطل ، أو ينتهبها أهلوها بسلطان السيف ، ورهبة الملك ، وحكم القانون

وصلى الله عليك — يارسول الله — كلما جرى ذكرك على لسان ، أو خطر طيفك ببال إنسان ، أو ترسّم أحدٌ خطاك ، أو التمس مسلم هدايتك ، وسار على نهجك ، فإنك بحق سيد الناس وخير الخلق على الإطلاق ، لا ينكر عليك ذلك جاحد ولايمارى فيه مكابر « وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

محمد صلى الله عليه وسلم

« محمد » إن هذه الكلمة — وحدها — مجردة عما يقترن بها ، أو يساق معها ، أو يجئ فى إثرها من الأوصاف والنعوت ، والأحداث والجهود ، تشيع فى الجو الذى تسبح فيه ، والفم الذى ينطق بها ، معنىً من معانى السحر ، لايمكن لكائن من كان من الناس ، أن يحدده التحديد الذى يكشف عن حقيقته فى فن الموسيقى الخلابة ، ولا البلاغة الأخاذة ، ولا الجاه الذى لايتطاول إليه جاه ، أو يمكن أن يزاحمه كبرياء وجبروت المحكمين ، وغرور المخدوعين ، أو أحلام المتطلعين ، لأن المسلطين . الذى يضفى على أبناء آدم أردية المهابة ، وثياب العزة ، ومسوح الإجلال والاحترام . خلقه هو ، خلق « محمدا » لتذوب أمامه النعوت ، وتتهاوى بين يديه الأوصاف وتقصر عن الإحاطة بكماله الألفاظ ، وتقف موقف العجز عن التنويه به ، أو الكشف عنه ، بلاغة البلغاء ، وأساليب الأدباء ، ومنطق اللُّسن المقاويل ، ويكفى أن تمر بخاطر الواجم ، أو تجرى على لسان الواهم ، أو تملأ قلب الواعى أو فؤاد المتحدث ، أو يقع عليها نظر قارئ فى ثنايا سطور ، أو فى صفحة من كتاب ؛ حتى يجد أنه — صلى عليه وسلم — تأخذه

المهابة من جميع جهاته ، وتصيب جسمه القشعريرة التي تصيبه إذا وجد نفسه في حضرة عظيم من العظماء الذين تملأ مجالسهم الهيبة الربانية التي لاتكون مستمدة من غطرسة مصنوعة ، ولا أبهة مكذوبة ، ولا مجد مختلق ، أو نفوذ مدعى ، أو جبروت موضوع ، وإنما هى من صنع الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وفى تاريخه صلى الله عليه وسلم مايدل على أن تيجان الملوك ، وعروش الجابرة ، وكبرياء من كانت الدنيا بأيديهم ، والسيوف بأيمانهم والسلطان فى حوزتهم ، تتساقط بين يديه ، أو يصيبها الشلل ، والجمود أمامه ، فلا يجرؤ قوى أن يهدده ، ولا يتطاول جبار أن يخيفه ، ولا يمكن لشرير مهما كانت شراسته وحمقه أن يهز كيانه أو يزلزل بنيانه ، أو يملأ يقينه الذى كان عامراً بخالقه ، ولا أن يحسب حسابه ، أو يخشى بأسه ، أو ترتعد فرائصه منه ، وذلك لأن الذى أرسله بالبينات ، وأيده بالمعجزات ، جعله هو فى نفسه قدوة هذه الإنسانية فى أخلاقه الكريمة ، وأدبه الجم ، وذكائه اللماح وعبقريته الفذة وعقله الكبير ، وقلبه الرحيم ، وعطفه الفطرى ، وحبه للخير ، وميله إلى البر ، وحدبه على الناس ، وتفانيه فى الإصلاح وارتباطه بربه ، وتعلقه بالسماء وهكذا لم تبلغ لفظة من ألفاظ

الأعلام ،ولا اسم من أسماء المعانى ، ولا كلمة من الكلمات ، فى ضخامة جرسها ، ودَوِىّ صوتها ، ونباهة شأنها ، وشهرة دلالتها ، وإيمان الخليقة بها — بعد لفظ الجلالة — ما بلغته تلك اللفظة « محمد » التى يتيمن بها المسلم ، ويعتز بها الموحّد ، ويفاخر بها الإنسان ، ويشرف بالانتساب إليها كل من تكامل له عقله ، ونضج فيه وعيه ، وصح عنده دينه ، وارتقى إدراكه وشعوره ، وسلم بصره وذوقه ، ترددها ألسنة الملايين فى بقاع الأرض ، وأنحاء هذا الكون ، تلذذا بذكرها وارتياحاً لنغمتها ، وسروراً بمرورها على البال ، وخطورها بالذهن . . ولقد عاصرت أحداث التاريخ ، وصيحات المصلحين ، ودعوات الهداية ، والتقويم على المحجة الواضحة ، والجادة الصحيحة ، فكان منها الشعاع الكاشف ، والضياء المساعد ، والنور الذى ترى به البشرية مواضع أقدامها فى طريق الخير ، وسبيل الحق ، ودرب السداد والصواب ، والسلامة والنجاة ، والرشاد والفلاح ، والتقدم والعمران ، والحضارة والنهوض ، والعلم والعرفان . .

ولا يعنينا من هذا العنوان أن نسترسل به مع الحوادث ، وأن نرجع بك إلى ما عساك أن تكون قد حفظته من بطون الكتب ، أو سمعته

من أفواه الرواة والقصاص ، ولا أن ننتهى بك إلى تاريخ أذت تعرفه وتعيه ، وإنما يعنينا أن نستشف ما تعطيه تلك النفس التى لا يتسع لها هذا الفضاء المحدود ، ولا تلك الأرض المرسومة ، ولا هذه السماء المرفوعة ولا ذلك الكون الفانى ، وهى التى حام الفلاسفة حولها بحثا ودرسا وتحليلا وتعليلا ، فما وصلوا إلى شىء وراء كونها خلاصة هذا الخلق وسر هذا الوجود ، ومعنى الإنسانية فى هذا الإنسان الذى أرسلها الله لتقويمه وتهذيبه ، وهدايته وإرشاده ، وتكريمه وإجلاله ، وحريته من ذل الأسر ، ورق العبودية ، وضراوة الإقطاع ، وكابوس الظلم ، وفوضى النظم والدساتير ، لتكون له السيادة فى الأرض ، والقيادة لما فى هذه الدنيا من باغم وناغم : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) .

ولعل هذه الجوانب فى حياته — صلى الله عليه وسلم — من العظمة الخارقة ، وبخاصة فيما يتناول تلك السرعة فى انتشال العرب من وهدة التردى إلى قمة النهوض والسمو ، كانت موضع الدهشة عند كثير من المؤلفين القدامى فأضفوا عليه من النعوت والخلال

ما يتجاوزون حدود البشرية ، وهو الذى كان يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويعلن أن له مالبنى آدم من مزايا وخلال .

وقد كنا نحمد لهؤلاء الذين يكتبون عنه طريقتهم فى الكتابة ، وأساليبهم فى الدراسة ، ومنهجهم فى البحث ، لو أنهم كانوا يحاولون أن يؤرخوا له من الحوادث ، وأن يجعلوا معينهم فى ذلك سيرته مع أصحابه ، وتواضعه لأهله ، وحبه لقومه ، وحدبه على البائسين ، ورفقه بالضعفاء ، وإيثاره لغيره ، ومحاولته القضاء على عناصر الفساد فى الأرض . فإن هذا كله صدى لهمته الكبيرة ، وشخصيته العظمى ، وضميره النقى ، ودخيلته الطاهرة ، ونحيزته الشريفة ، ورغبته الخالصة من شوائب الفضول والزيف ، والتمويه والكذب ، والرياء والنفاق ذلك لأنه نمط لا غبار عليه فى البحث إذ هو يجرى على طريقة علم النفس الإنسانى فى تحليل السجايا والطباع ، وفهم الغرائز والميول ،لو خلا من تلك المبالغات التى يلتجئ إليها بعض أصحاب هذه الدراسات .

وستظل الأجيال والعصور تدرس جوانب هذه العظمة لتأخذ منها نماذج من النبل ، وشواهد من المكارم ، وملامح من البر ،

وأساليب من الكمال ، ومقاييس من الخير ، لا تجدها الأفكار الواعية ، ولا العقول الناضجة ، إلا في صفحاته الناصعة ، من تاريخه الخالد ، أو سيرته التي تفوح بالعطر ، وتنفح بشذى المسك ، ولا يرى الناس شرفا كهذا الذي يلتمسونه منه ، ولا قربى تشفع لهم عند الله أحسن من كونهم يجعلونه وسيلتهم إليه .

وحسب « محمد » صلى الله عليه وسلم – أن اسمه مأخوذ من « الحمد » الذي هو نهاية جهد كل إنسان في سعيه ، وآخر كدحه في عمله ، وقصارى إعلانه الشكر لبارئه ، إذا ترادفت عليه نعمه ، وغمرته آلاؤه ، وشمله عفوه ، وأحاطت به وسائل رحمته . إذ لا يجد سبيلا إلى الاعتراف بهذا الفضل الذي أثقل كاهله . وأسعفته أسبابه ، وراء قوله : (الحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) وليس بعد هذا الشرف الذي حظى به ، والمكانة التي ارتقى إليها ، واسمه مردده في السر والنجوى ، والجهر والعلن ، مقرونا بالإجلال والاحترام : (إن الله وملائكته يصلون على النبي

يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) . . وفى هذا كله وسام الشرف ، وشارة المجد ، وعنوان الإجلال الذى ليس بعده ولا قبله . .

يتيم رعاه الله

هل رأيت ذلك اليتيم وقد جللت وجهه سحابة من الحزن . أو غمامة دكناء من الشعور بالذلة والانكسار ، إنْ مَرِحَ زملاؤه أولعبوا ، أو أخذتهم نشوة من الفرح فطربوا ، أو جرى فى وجوههم دم الطفولة البريئة ، أو ماءُ الصبا الرقراق ، كان هو — مع ذلك كله — كأنه العود الصغير من الزرع ، جفَّ عنه الرى ، وانقطع عنه الغذاءُ ، فسارع إليه الذبول ، وتخلت عنه الحياة ، إلا أنه ظل فى مكانه من الحقل يحسبه الناس حيا ، ويظنونه متهيئا لمستقبل حافل بالأمانى والأحلام ، وهو هيكل لا يحس . .

إن كنت قد رأيته ففاضت عينك بالدموع ، وثار قلبك من الجزع ، وملأت الحسرة نفسك ، وأسفت على تلك الإنسانية المعذبة ، يتخلى عنها المجتمع الظالم ، فلا يمسح عنها العبرات ، ولا يأخذ بيدها إلى سبيل النجاة من المهالك ، والسلامة من الأذى ، والبغض للدنيا ، والنفور من الحياة . . فذلك هو اليتيم ...

وإذا كان للنجاح فى هذا الميدان الصاخب ، والمعترك المائج ، والميدان الذى يتصارع فيه على البقاء كل كائن حى ، وسائل من القوة ، ووشائج من الحيلة ، فإن انكسار النفس باليتم ، وهوانها على الناس، لا يجعل هذا النجاح نجاحا ، ولايُضْفى عليه الثوب الذى يظهر فيه بمظهر البهجة ، أو الارتياح ، أو لون اللذة ، والاغتباط .

وقد رأينا كثيرا من هؤلاء الذين فقدوا العائل ، وعدموا الراعى، كان اليتم هو حجر العثرة فى طريقهم ، أو العقبة الكأداء فى سبيله . فكيف وقد كان « محمد » صلى الله عليه وسلم — مع اليتم الذى ابتلاه الله به فقيرا من المال ، محروما من الغنى ، على أنه لو لقى مع هذا الشظف الذى كان يقاسيه مجتمعا مهذّبا ، أو بيئة رحيمة ، أو إنسانية راقية ، لكان له منها عزاء ، أو وجد فى جوارها الدواء .

وقد حدث التاريخ : أن أباه فارق هذه الدنيا بعد حمل أمه به بشهرين اثنين ، وأن أمه قد لحقت به بعد أربع سنوات من وضعه ، وأن أمه لما أرادت أن تجرى على سنة العرب الذين كانوا يدفعون بأبنائهم للمراضع لينشأ الناشئ منهم على الخشونة والنبل ،

والإباء والشرف ، والنجابة والشمم ، لم تجد له من ترضى بضمه إليها ، وولت كل امرأة بوجهها عنه ، بعد أن عرفت أنه لا أب له من أهل الثراء ، ولا أم له من أرباب الغنى ، وأن المرأة التى تقبل على نفسها أن تأخذه إنما تتقرب للأوثان ، أو ترمى بجهدها الذى تبذله فى وجه الشيطان ، لأن لقمة العيش لا تشترى بالمعروف ، والحياة لاتستقيم إلا لمن يدفع لها الثمن من المال . .

ولولا أن « حليمة السعدية » صادفها الجد العاثر ، والفأل العاطب، ماقبلت على نفسها أن تأخذه ، أو تعود إلى منزلها بصفقة المغبون ، اللهم إلا أن يكون رضاها به لدفع ماعساه أن يوجه إليها من تهمة الخيبة ، وعار شؤم الرجوع من غير شىء .

وقد ظل الطفل عند أمه « حليمة » وانتهى رضاعه وحبا ومشى . وأكل وحده ، ولبس وحده ، وكان المفروض فى أمثاله من الأطفال أن يلحقوا بذويهم من الآباء والأمهات ليجدوا هنالك من رعاية الوالد ، وحنان الأم ، مالا يمكن بحال من الأحوال أن يجدوه إلا عندهما ، وتلفت الطفل ليجد هذين فلم يجد ، فبقى فى بيت « حليمة » يمرح مع ابنها ، ويروح ويغدو ، إلى أن جاء إليه

الملك « جبريل » ليشق صدره الشريف ، ويخرج منه تلك العلقة السوداء التي يتسرب منها الشيطان إلى النفس ، وينفذ منها إبليس إلى خواطر الناس ، ليلقي فيها ما يريد من هواجس الشر .

وكان مع « محمد » — صلى الله عليه وسلم — في هذه الحادثة ابن «حليمة » الذي كان في سنه ، والذي كان لفرط حبه له ، وتعلقه به ، يود ألاّ يفارقه ، وكانت حليمة لهذه العاطفة التي كان ابنها يكنها لمحمد ، لا تفكر أن يعود « محمد » إلى أهله ، وبخاصة بعد أن وجدت أن قدمه عليها كانت يمنا . وعيشه في بيتها كان بركة ، وأن المراعي لغنمها قد أخصبت فزاد اللبن ، وكثر الخير ، وأن اليوم الذي لاترى فيه هذا الطفل يملأ بيتها بنور وجهه هو اليوم الذي يكثر فيه شؤمها ، ويزداد بؤسها .

إلاّ أنها لم تفسر هذا الحادث الذي حدث لمحمد بشيء سوى أنه نكاية بها ، أو مؤامرة عليها ، وهي مشكلة — إن وقعت — لاتستطيع أن تعتذر منها لأهل هذا الطفل ، لذلك لم تجد مخلصا من ذلك الضيق وراء رده لهم ، وتسليمه إليهم ، وبراءة ذمتها من أمانة كانت تتحملها . .

وراح الطفل إلى جده الشيخ « عبد المطلب » ، وكان هذا الطفل عند جده أحب الناس إليه ، يرأمه ويعطف عليه ، ويوفر له أسباب الهناءة والسعادة ، ويملأ قلبه بالرضا والارتياح . ومع ذلك كله كان اليتيم الفقير لايزال يشعر بالفراغ الواسع الذى تخلّف عن فقده لأبيه وأمه . . وعلى الرغم من الانكسار الذى كان يلازمه ، ما هانت نفسه ولا انخفضت رأسه ، بل كان دائماً أبدا يشعر أنه يعيش فى دنيا غير دنيا الناس ، ويحيا فى عالم غير هذا العالم الذى يرفع درجات أهله بالمادة الحقيرة ، والحطام الفانى ، والعرض الزائل ، وما رآه راءٍ من زملائه وأقرانه إلّا وحمله ترفّعه عن السفاسف ، وبعده عن الدنايا على أن يحترمه احتراما يليق بأمثاله الذين يتعشّقون المجد ، ويطلبون السؤدد .

وسبب ذلك يرجع إلى أنه لم يتدنس بدنس الجاهلية قط ، وكأنما كان ينظر من عالم الغيب إلى ذلك الموقف الذى سيقفه من تلك الخرافات ، وهذه الحرب التى سيعلنها شعواء على تلك الخزعبلات فكان سلوكه الذى يسلكه ، ومعاملته التى يعامل بها من حوله ، على طراز من الأدب ، ومثال من الكمال .

ولقد حدث عن نفسه : أنه رفع ثوبه عن جسمه ليجمع فيه شيئاً من الحصى والحجارة ــ كما يفعل الأطفال ــ فوجد هاتفاً يزجره فى عنف بالغ ، وإزعاج مرعب ، وخوف انخلعت له نفسه ، فلم يَعُدْ بعد ذلك إلى مثلها .

وحدث أيضا : أنه أستأذن أخاه من « حليمة السعدية » أن يترك له الغنم فى المرعى ليذهب هو ــ وحده ــ إلى عرس كان فيه لهو وطرب مما اعتاد الناس حينئذ أن يفعلوه ، فلما ذهب إلى هنا لك أخذته سِنة من النوم لم ينتبه منها إلّا بعد انقضاء العرس .

وفى هذا كله دليل على حفظ الله له ، ورعايته إياه ، وعنايته به .

أما تلك العظمة التى كانت تملأ جوانب نفسه فإنها تظهر كذلك فى كثير من خلاله التى كانت تسيطر عليه ، والتى كانت لاترده أبدا موارد الصغار ، أو تنزل به إلى حيز الإسفاف ، ولقد كان لجده « عبد المطلب » بساط لايجلس عليه غيره ، ولا يقتعده سواه ، وهو تقليد كان عند العرب توارثوه عن الآباء والجدود . فإن تعدى متعد ذلك التقليد ، اعتبروه متمرداً على الأوضاع . خارجاً على الحدود ، وقد حكوا : أن « محمدا » فى طفولته كان يتمرد على

تلك السنة ، ويتجاوز ذلك التقليد ، ويسارع إلى المكان قبل أن يحتله جده « عبد المطلب » فإن وبّخه أحد ، أولامه لائم ، قال لهم عبد المطلب : دعوه . فإن دم السيادة يجرى فى عروقه ، وروح المجد يملأ جوانحه ، والنزوع إلى الرفعة يدفع به نحو المكان العالى .

وكان الذى يملأ قلب « عبد المطلب » بهذا اليقين أنه رأى فى منامه رؤيا فسّرها له العارفون بتأويل الأحلام : أن رجلا من صلبه تدين له العرب بالطاعة ، وتعرف له بالفضل ، وتذعن له بالشرف ، وتؤمن له بالسلطان .

وكذلك كان يفعل الطفل مع عمه « أبى طالب » بعد أن انتقلت كفالته إليه بموت «عبد المطلب» وهى روح إن دلت على شىء فهى إنما تدل على أن تلك النفس العالية كانت تسبق الزمن ، وتستعد للمستقبل ، وترعاها عناية خفية عن أنظار البيئة التى يعيش فيها . .

وربما خطر ببال إنسان أن يسأل : ولماذا اختارت العناية الإلهية هذا المخلوق الذى طحنته الحوادث ، وعركته الخطوب ، ولوّعته صروف الزمن ، ونشأ تلك النشأة المليئة بالشدائد والأهوال ؟

وهو سؤال يعرف الجواب عليه من يدرك أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ لم يشأ إلا أن يشرب رسوله تلك الكأس المترعة من أول يوم ، لتنطبع نفسه على الرحمة ، ويَتَعَوَّد قلبه على العطف ، وتمتزج روحه باللين ، ويتسع صدره لما عساه أن يصادفه بعد ذلك من محن ، وهكذا يتربى الأبطال وينشأ العظماء ، ويحيا حياة القسوة من يريد أن تنقاد له الحوادث وتخضع له الظروف ، وتطاوعه الأيام والليالى .

على أن الأب والأم والناس جميعاً لم تكن إلا أسباباً ظاهرية للحدب والعطف ، والرعاية والشفقة ، والصيانة والحفظ ، والإرشاد ، والنصح ، ولو شاء الله لجعل أسبابا غيرها تؤدى عملها ، وتقوم بوظائفها ، تباركت آلاؤه ، لانحصى الثناء عليه ، ولاندرك أسراره فى خلقه ، ولا نفقه ، من قضائه وقدره إلّا مايكشفه لنا النظر الكليل ، والفهم المحدود ، والعقل القاصر ، وننتهى بعد هذا المطاف إلى الإيمان العميق ، والتسليم المطلق ، ونعوذ به من شر الوسواس الخناس . . .

كان عصاميا

من أدبه الذى كان يؤدب به أمته ، وهديه الذى كان يهدى به المسلمين ، ألا يكون الرجل عالة على غيره ، وألا يقعد أحد وغيره يعمل له ، لأن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وكان مما يتحدث به عن الأنبياء والمرسلين : أنهم كانوا يأكلون من عمل أيديهم .

لذلك لم يعرف عنه منذ طفولته أنه استراح إلى صدقة يُتَصَدَّق بها عليه ، أو معونة يبذلها باذل له ، وظل حياته كلها — قبل البعثة — يعمل بالأجرة فى رعى الغنم تارة ، وفى التجارة تارة أخرى ليأكل من كده ، ويرزق من كدحه ، حتى لا يكون عنوانا — سيئا — للأفراد الذين يعيشون على حساب غيرهم ، أو الجماعات التى تُشيعُ الكسل والنوم فى الأمم .

وكان وهو فى كفالة عمه « أبى طالب » بعد أن أحَسَّ من نفسه القدرة على مزاولة البيع والشراء — فى التاسعة من عمره — يتعلق به ، ويلح عليه ، ليأخذه معه ، وكان عمه يستقبل منه تلك الرغبة

بالارتياح ، وبخاصة بعد أن تبين له أنه إنما يفعل هذا فرارا من التواكل ، وهربا من أن ينبت لحمه من غيره .

وأول مرة تعلق به هذا التعلق هى تلك المرة التى استقبله فيها «بحيرا الراهب» فى الطريق إلى الشام وحذّره من اليهود ، وأفهمه أنهم سيقتلونه إن ظفروا به ، لأن فى كتبهم نعته ، وفى شرائعهم تحديد المصير الذى يترقبهم على يديه ، وهم لهذا يجدون فى طلبه ليقطعوا عليه الرسالة ، وهم بذلك يكررون مأساة فرعون مع أطفال مصر حتى لاتتحقق نبوءة الكهنة الذين أخبروه أن ملكه سيزول على يد غلام يولد فى هذا الوادى ، فأمر بقتل كل مولود ذكر ، ولكن ذلك كله لم يحل دون قضاء الله وقدره ، وزال ملكه على يد « موسى » الذى تربى فى بيته ، ونشأ فى جواره .

ولم يزل — صلى الله عليه وسلم — على هذا الخلق ، يعمل لأصحاب رءوس الأموال بين مكة والشام ، وهو فى هذه الآونة الرجل المحترم ، والإنسان الكريم على الناس ، يتسابقون إلى طلبه ، ويتنافسون فى وده ، لأن الأمانة التى تحلّى بها ، والصدق الذى غلب عليه ، والخبرة التى حذقها ، والبصر الذى كان له ، والخلال الطيّبة

التى كانت العامل الأول فى إعجابهم به ، وحديثهم عنه ، جعلتهم يعتبرون الظفر به مغنما من المغانم التى يكون حصولهم عليها عنوان الجد السعيد ، والحظ الموفور . .

والسيدة « خديجة » لم تكن من دهماء الناس . ولا عامة الشعب ، لأنها من أشراف قريش . وأغنياء العرب ، وكثير من وجوه أهل مكة كان يتمنى أن يطلب يدها ، ويخطب ودها . وكانت هى تقابل ذلك بالدّفع والامتناع ، والكبرياء والصلف ، إلا أنها لم تملك أمام هذا الخلق العظيم ، والأدب العالى . والرأى السديد ، والفكر الواعى ، والأمانة النادرة ، والقلب النقى ، والرجولة الصحيحة ، إلا أن تعرض نفسها على هذا الرجل الذى لم تجد له مثيلا بين أهلها وذويها ، وقومها وعشيرتها ، وليس ذلك لما بينهما من فارق السن — إذ كانت فى الأربعين وكان فى الخامسة والعشرين — ولكن لهذه المعانى من النبل ، والسجايا من الخلال . .

على أنه — صلى الله عليه وسلم — لم يعرف عنه أنه — وقد أسلمت إليه « خديجة » هذا القياد ، وجعلت فى يده هذا المال — كان مستغلا لنفوذه ، أو مغتصبا لحق سواه ، بل كانت يده

فى هذا المال يد الأمين ، ونفوذه نفوذ الوكيل ، وتصرفه تصرف العامل ، لم يظهر عليه بذخ ، ولم يبد منه سرف ، ولم يخطر - يوما - فى شكل الأعيان والوجوه ، وقد أرسله الله رسولا وفتحت له الدنيا أبوابها ، فلم يخدعه زخرف من زخارفها ، ولم يفتنه شيء منها . . .

وهذه « عائشة » - رضى الله عنها - تحكى لنا هذا الخلق وتسجل عليه هذا الطبع ، وتصف لنا فيه ذلك الزهد ، إذ تقول : (ما شبع آل محمد - صلى الله عليه وسلم - منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعا حتى قبض) .

ولعل بعد هذا السرد الذى سردناه من حياته - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يبعث الله به رسولا إلى الناس ، تدرك أنه كان يأبى كل الإباء أن يعيش كَلاًّ على أحد ، أو عالة على إنسان وتلك هى التى يسميها علماء الأخلاق « العصامية » ممجدين لشأنها ، معتزين بالاتصاف بها .

وكأنما كانت إرادته سبحانه وتعالى تقضى أن ينشأ يتيما فقيرا لتكون هذه العصامية أبرز صفاته ، وأوضح خلاله ، وليكون ذلك

امتحانا لرجولته ، وتربية له ، وإعداداً لهذا المستقبل الحافل الذى كان ينتظره .

وإن الذى يقرأ تاريخه الرائع ، ومواقفه الخالدة ، وثباته العجيب ، وبطولته الفذّة ، وجهاده الذى كان مثلا للمجاهدين يؤمن أن ذلك لا يكون إلاّ لإنسان عركته الحوادث هذا العراك وامتحنته الخطوب هذا الامتحان ، وهكذا كان العصاميون من عظماء الرجال . . .

وفى جزيرة العرب كانت موارد الرزق محدودة ، وأسباب العيش غير متنوعة ، وأبواب الكسب لا تكاد تتجاوز رعى الغنم والإبل ، وشيئا من الزراعة فى بعض الجهات ، وكان ذلك باعثا لقصار الهمم والعزائم أن يحترفوا قطع الطرق ، أو اغتصاب ما لا يملكونه من متاع سواهم . ولهذا ظهرت بينهم جماعات السلب والنهب أمثال « عروة بن الورد » و « الشنفرى » وغيرهما ممن يسمون فى الاصطلاح « بالصعاليك » فكان هؤلاء أبغض الناس إليه ، بل كان لا يقل فى بغضه لهم ، وكراهيته إياهم ، عن بغضه للذين يستجدون إحسان غيرهم .

وعلى رغم كون دينه حث على التصدق والبذل ، وزكاة الأموال والزروع ، كان يرى أن هذا الذى يؤخذ من أموال الأغنياء على هذا الأسلوب قذر يتعفف عنه المسلم ، ويترفع عن أخذه كل ذى همة عالية ، وخير للرجل أن يأخذ حبله إلى الجبل فيحتطب فيبيع حتى لا يسأل الناس أعطوه أم منعوه ، ثم يقول : (حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه) ويقول : (ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه) ليعلم المسلم أن الذى يعيش لشهوته لا يساوى فى نظر هذا الدين أحقر الأشياء .

اعتكافه وخلوته

فى كتب السيرة كلها شبه إجماع على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قبل مبعثه مَيَّالاً إلى الخلوة . تواقا إلى العزلة . شديد الشَّغَف بالانقطاع عن الناس ، لا يحب الصخب ، ولا يألف الضوضاء ، ولا يميل إلى الاندماج فى مجتمعات اللهو ، ولا محافل الهذر ، فلما تكامل وعيه ، ونضج عقله ، ودق تفكيره ، وقوى شعوره بالكون وخالقه ، والحياة ونظامها ، والعالم وما فيه من حيوان وإنسان ، وكان قد عرف شيئا عن ملة أبيه « إبراهيم » ـ عليه السلام ـ صارت العبادة هَمَّه ، والانقطاع إلى الله ـ جل جلاله ـ شغله الشاغل .

أما حقيقة شريعة « إبراهيم » التى كان يتعبَّد بها ، ويعبد الله على نسقها ، فأمر يدخل فى باب الحدس والتخمين ، والظن والاجتهاد لأننا لم نعرف عنها أكثر من كونها كانت شريعة تضمنت هديا واعيا ، وإرشادا قويما ، وأن القرآن تحدث عنها بكونها : (دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا) .

واليهود يزعمون : أنها صورة مكررة للتوراة ، والنصارى – كذلك – يزعمون أنها صورة – طبق الأصل – من الإنجيل .

وبالغ هؤلاء وهؤلاء فى أن « إبراهيم » كان على تلك الملة التى هم عليها ، ترويجاً لدينهم الذى مسخوه بالعبث ، وغيروه بالهوى وبدّلوه بالبهتان ، وحرّفوه بالباطل ، وأدخلوا فيه ما ليس منه ، وفضح القرآن دعواهم المزوّرة ، وافتراءهم الكاذب ، حينما قال : (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) . . . وشريعة السماء على كل حال تهذيب وتقويم ، وهداية ونور ، ولا يمكن إلاّ أن تكون علاجا للبشرية ، وصلاحاً لحال الإنسانية . . . فى هذا الظلام الدامس الذى كان يخيم على الأفئدة ، فجعلها الوسيلة بينه وبين الله الذى امتلأ قلبه به ، ويقينه منه . . . وهنالك تحول هربه من الناس ، وفراره من صخب المحافل ، وبعده عن ضوضاء الدهماء ، واعتزاله لكل مكان يضم أهل الشرك ، أو عُبّاد الأوثان ، إلى تفكير عميق فى إنقاذ تلك الإنسانية الضالّة ، والبشرية المعذبة ، فتطلع ببصره إلى السماء أملاً فى قبس ترسله ، أو ضياء يكشف له معالم الطريق ، وساقته قدماه إلى مكان عال

يجعله مع الكواكب فى ارتفاعها ، والنجوم فى مداراتها ، فكان فى غار حراء ، يغذّى فكره بالعزلة ، وينمّى حسّه بالخلوة ، ويرقق شعوره بالاعتكاف ، وطابت له هذه الإقامة ، ولذّت له تلك العبادة . ورأى أن هذا العالم الروحى الذى تفتح له قلبه . وانشرح به صدره ، وطاف فيه خياله ، لم تكن لتعدله لذة ، أو تساويه حياة ، ولذلك صار كلما فرغ زاده ذهب إلى أهله فتزود زاداً آخر ليواصل السير ، ويداوم العبادة ، وكانت هذه الفترة من عمر « محمد » صلى الله عليه وسلم — إلى جانب كونها رصيداً روحيا ضخما ، امتلأ به يقينه مما ساعده على أن يهزأ بالحوادث ، وكانت سبباً فى أن تكون صلته بالله خير ما يُمتع به فؤاده ، ولذلك يقول فى بعض أحاديثه : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » لأنها صلة بينه وبين ربه ، حيث يناجيه بحاجته ، ويبثه شوقه ، ويطلب منه الرضا ، ولم تكن الصلاة وحدها هى هذه الفرصة التى أرضى الله فيها خواطره ، وحقّق بها أمانيه ، من ذلك الارتباط الذى يبتغيه ، والتعلق الذى ينشده ، بل شرع له الصوم الذى هو إمساك عن الأكل والشرب ، والجماع واللذة ، وفيه يتجلى كبح النفس بالطاعة ، وكفها بالحرمان ، وتهذيبها

بالرياضة ، وتأديبها بالجوع ، وهو — كما ترى — سمو بالروح ، وترفع عن المادة ، وبعد عن الناس ، واتصال بالله ، لا يقل عن ذلك الذى يكون بالخلوة ، ويجيء من طريق التجرد عن الدنيا . . . وكانت الشريعة فى جملتها ، عناية بالروح ، وتطهيراً للقلب ، وتزكية للنفس ، وتربية للجوارح ، وكانت النية فى العبادات وهى معنى وجدانى بحت شرطا فى صحتها ، وعاملا من عوامل قبولها ، ويحاسب الله الناس عليها يوم القيامة كما يحاسب على الأعمال سواء بسواء « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه . . . » بل إن فى هذه الشريعة كثيرا من المعانى التى ترضى نزوعه — صلى الله عليه وسلم — إلى الخلوة ، وميله إلى التأمل فى صنع الله الذى أتقن كل شيء خلقه ، وحث صارخ على النظر فى النجوم والكواكب ، والصحارى والبحار ، والليل والنهار ، والاعتبار باختلاف الألوان والألسنة ، والحظوظ والأرزاق ، والصحة والمرض ، والشقاوة والسعادة ، وهى سياحة طويلة فى ملكوته ، وتفكر متزام فى مدى قدرته ، ليكون وراء ذلك كله التسليم له

بالربوبية ، والإذعان له بالعبودية ، والإيمان بأنه وحده « لا شريك له . له الملك وله الحمد » .

ومن شعائر هذا الدين الاعتكاف فى المساجد . . وفى حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله أحد هؤلاء السبعة : الرجل الذى تعلق قلبه بالمساجد ، فهو لا يغادرها إلا على شوق العودة إليها ، والاعتكاف فيها ، وكان — صلى الله عليه وسلم — إذا جاء العشر الأواخر من رمضان شمر عن ثيابه ، واعتزل أهله ، واعتكف فى المسجد . . .

ومن غريب المصادفات أن يكون المعتكف الأول للرسول الكريم — غار حراء — الذى كان يتردد عليه ، ويلتجئ إليه ، كلما حزبه أمر ، أو اشتد به هم ، هو الابتداء للفرج الذى أصابه ، وللخير الذى أغدقه الله عليه ، إذ عليه جاءه جبريل الأمين بالرسالة ، وبشره بالاختيار ، وبلغه عن ربه قوله : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنسَانَ مِن عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » ثم توالى الغيث ، واسترسل . . .

قصة القراءة

جاء فى البخارى وغيره من الكتب الصحاح عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : (أول ما بدئ به — صلى الله عليه وسلم — الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح ، ثمّ حُبّبَ إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث — وهو التعبد — الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ ؟ فأخذنى فغطّنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ؟ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت ما أنا بقارئ ؟ فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، فرجع بها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يرجف فؤاده ، فدخل على « خديجة بنت خويلد » ، فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه

الروع ، فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ : لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ، ثم انطلقت به « خديجة » حتى أتت به « ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى » ـ ابن عم خديجة ـ وكان امرأ قد تنصّر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل ما شاء الله له أن يكتب ـ وكان شيخا كبيرا قد عمى ـ فقالت خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة : يا ابن أخى ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نَزّل الله على موسى يا ليتنى فيها جذعا ، ليتنى حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أوَ مخرجىّ هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلاّ عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزّراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى ، وفتر الوحى . .

وفى هذه القصة دليل قاطع على أن الطابع التى تتميز به تلك الشريعة عن سواها من الشرائع أنها شريعة العلم بالأحكام ، والفقه فى الدين ، والدراية الواسعة بما فى هذا الكون من أسرار خفية ، وقوى كامنة ، وخيرات سخرها الله للإنسان ، وذللها للناس ، ولذلك كان أول ناقوس قرع سمعه — صلى الله عليه وسلم — هو طلب القراءة : « اقرأ » ، ومتى أزال المرء عن نفسه غشاوة الجهل ، وقبس من نور العلم ، واهتدى بالمعرفة ، كان من السهل عليه إلى حد بعيد ، أن يتجه إلى الخير ، وأن يسلك سبيل الصواب . وأن يكون فى كل تصرفاته وأعماله ، على سنن الحق ، ومنطق الصدق ، وشرعة الإنصاف ، وكأنما العلم فى هذه الدنيا هو الشعاع الهادى ، والمصباح المضىء .

وهنا لفتة جميلة لا يمر بها الذهن المرور العابر ، أو يخطر بها الخطور الخاطف ، ولكنه يتأملها تأمل الفاحص ، ويتروى فى أخذ العبرة منها تروّى العاقل ، وتلك هى تكرار الأمر بالقراءة المرة تلو الأخرى ، ليفهمه — صلى الله عليه وسلم — وتفهم أمته معه — أن الذى يطلب الأمر العظيم لا بد أن يحتال له ، ويَجِدَّ فيه من غير ملالة ولا سأم ، وألا يكون الإخفاق فيه ، أو عدم

الحصول عليه ، سبيلا إلى اليأس منه ، أو قطع الرجاء فيه ، فمن جد وجد ، ومن زرع حصد . . .

ومن أراد العلا عفواً بلا تعب
قضى ولم يقض من إدراكها وطرا

وكل إنسان يدعو إلى مكرمة ، أو يحاول تقويم معوج ، أو ينادى بمبدإ من المبادئ ، أو يوجه جماعة من الجماعات إلى طريقة مثلى ، وخطة سليمة ، أو عمل نافع ، من شأنه أن تصادفه العقبات ، وتواجهه المصاعب ، وتقف فى سبيله العراقيل ، فليوطن نفسه على اقتحام ذلك كله ، والاستهانة بالجهد المبذول ، والتعب الحاصل ، والشدائد الطارئة ، التى يكون من أهونها المطاردة من الوطن ، والمفارقة للأهل والأصدقاء ، ولقد كان حديث « ورقة بن نوفل » للنبى — صلى الله عليه وسلم — وقوله له : « ليتنى حيًا إذ يخرجك قومك . . . لم يأت رجل قط بمثل ما أتيت به إلا عودى » بمثابة التأويل لهذا الضم الذى حصل من جبريل إلى حد أن بلغ منه الجهد ، فإن التاريخ الذى مرّ به — صلى الله عليه وسلم — والشدائد التى لاقاها ، والخصومات التى

قامت فى وجهه ، والحروب التى خاض غمارها من أعداء الدعوة كانت تطبيقا لتلك الصورة التمثيلية الرائعة التى مثّلها أمين الوحى وتصديقا – كذلك – لقول « ورقة بن نوفل » : لم يأت رجل بمثل ما أتيت به إلاّ عودى » . . ولكن محمدا – صلى الله عليه وسلم – على الرغم من الجهد الذى لاقاه من جبريل ، والخوف الذى اعتراه ، والهلع الذى أصابه ، وتنبؤ ورقة بإخراج قومه له ، وعداوتهم إياه ، لم يثن ذلك من عزمه ، أو يقتل طموحه ، أو يطفئ نار الشوق إلى الغاية التى كان يترقبها ، وظل بعد ذلك يود أن تتكرر الحادثة ، وكان بصره دائما يتطلع إلى السماء . وقلبه دائما مرتبط بغار حراء ، رجاء أن يتجلى الله عليه ، وتحفه الرحمة منه ، فلما فتر عنه الوحى ، ظلت جوانحه تغلى ، وفؤاده يخفق ، وعروقه تتمزق ، وأخذ اليأس من الدنيا يعاوده ، والكراهية للحياة تعتريه . . . إلا أن كلمات خديجة التى وجهتها إليه فى ساعة الفزع – إذ قال لها لقد خشيت على نفسى – كانت فى أذنه فى كل وقت أشبه بالموسيقى الحلوة ، والنغم الحبيب ،

يذكرها بينه وبين نفسه : « لا يُخزِيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتَقْرِى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » ويحاول أن يطمئن إلى أن ربه أكرم من أن يخذله أو يخزيه ، مع ما هو عليه من خلال ، وما هو فيه من طاعة .

والبطولة التى تبدت فى موقف خديجة — مع أن الزوجة أجدر بالجزع ، وأحق من غيرها بالفزع — تَدُلُّ على العزيمة القوية ، والإيمان الصادق ، والعقل الراجح ، والرأى السديد ، وهى بطولة تجعلنا لا نشك فى أن المرأة الكاملة للرجل بلسم جراحه ، وراحة نفسه ، وظِلٌّ له إذ اشتدت عليه حرارة الشمس ، أو تضاعف عليه لفح الحياة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » ، فإن العاقل يفهم معنى قوله تعالى : « لتسكنوا إليها » تمام الفهم ، من مثل هذا الموقف الذى وقفته « خديجة » منه — صلى الله عليه وسلم — والرجل تصيبه المتاعب ، وتعتريه

الهموم ، وتتراكم عليه المصائب ، فتضيق الدنيا فى وجهه ، وتلتوى المسالك أمامه ، فلا يشع له بصيص النور إلاّ فى وجه شريكة حياته ، التى تمسح دموعه ، وتداوى آلامه ، وتحمل همّه ، وتخفّف مصابه ، بما تكنه له من ود ، وتضمره من إخلاص ، وترجوه من خير ، وتحلم به من أمان وآمال .

ما ودّعك ربّك ! !

على الرغم من الخوف الذى اعتراه - صلى الله عليه وسلم - والفزع الذى أصابه ، والهزة العنيفة التى كادت تعصف بقواه ، لولا ما كان من أمر « ورقة » ، وعزاء « خديجة » ، فإن شعوره بالشوق الحار إلى معاودة الوحى إياه ، وملاقاة جبريل له . كانت تقيّض عليه مضجعه ، وتملك عليه تفكيره كله ، فكان دائم الرغبة إلى تكرار ما حدث ، ورجوع ما كان ، وبلغ من حنينه إلى الملك ، وحبه له ، وظمئه إلى مشاهدته ، أن كان يذرع الأرض بقدميه صاعداً إلى « حراء » ، أو هابطاً منه ، متلفتا ها هنا . . وها هنا ، علّ صوتاً يسمعه ، أو نداء يقرع أذنه ، أو بشيراً يقابله ، أو هاتفاً يناجيه ، أو نوراً يسطع عليه ، ليطمئن خاطره ، ويذهب قلقه ، وتتبدد وساوسه ، وينقضى يأسه ، أو تنقشع عنه تلك السحابة من الحزن الذى كان يلازمه ، من جرّاء قالة المرجفين ، وحديث الشامتين ، الذين كانوا يملأون مكة أن « محمدا » قد تركه ربه ، وبغضه مولاه ، وانصرف عنه ذلك

الملك الذى كان يزعم أنه ينقل له خبر السماء ، ويبلغه التحيات المباركات عن خالق الكون كله ، ولا يؤلم المرء ، أو يحز فى نفسه أو يسىء إلى شعوره ، ويكدر خواطره ، مثل الشدة بعد الفرج ، والإحجام بعد الإقدام ، والنقمة بعد النعمة ، والشر يجىء بعد الخير . . . وقد ظل هذا الحرمان الذى ابتُلى به ، مدة يختلف المؤرخون فى تحديدها على أقوال متضاربة ، وآراء متباينة «من أربعين يوما إلى ثلاث سنوات ، إلا أنهم لايختلفون فى أنها أشد أيام مرت به ، وأوجع شدائد صادفته ، وآلم فترات عاشها فى الحياة . . .

ونحن من جانبنا إنما نتصورها أسلوبا من أساليب التشويق الذى يقول عنه علماء التربية : إنه أحسن الوسائل للتعلق بالمطلوب ، والتلقى له ، والحرص عليه ، ووعيه وعيا لا يخامره شك ، ولا يداخله ريب ، وقد كانت كل خطوات جبريل معه — صلى الله عليه وسلم — تربية وتهذيبا ، وثقافة وتعليما ، وتوجيها وإرشاداً ، ليكون منها بعد ذلك كله أحسن المواعظ والعبر « لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » .

على أن الوحى بعد هذه الفترة ، قد أروى ظمأه ، وشفى غيظه ، وأذهب غليله ، وأرضى خاطره ، وبدّد همومه وأحزانه ، بما أسبغه عليه من بر ، وأضفاه عليه من معروف ، وأشاعه فيه من أمل ورجاء : (والضُّحَىٰ ، واللَّيْلِ إِذَا سَجَى ، ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَىٰ ، وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَىٰ ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ، أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيما فَآوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ، فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ، وأَمَّا بِنِعمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » .

ومحمد — صلى الله عليه وسلم — بإجماع المنصفين من فحول البلاغة ، لا يدانيه أديب ، ولا يدرك شأوه فصيح ، ولا يجرى فى حلبته إنسان ، وقد وجد فى هذا الخطاب الذى وُجِّه إليه ، والأسلوب الذى تحدث به الوحى ، نمطًا من القول ، ولونًا من ألوان التعبير ، لا عهد له به من قبل ، سحره تصويره ، وخلبه بيانه ، وامتلأت منه نفسه بماله من روعة ، وما فيه من حسن ، ارتفع إلى سماء عالية ، فلم يسعه إلا أن يقف منه موقف الذاهل ، إعجابا بتمكنه من التأثير عليه تمكنا أنساه ما كان يعانيه قبل ذلك من حرارة الحرمان ، ولوعة الفراق . .

ولقد رأى — صلى الله عليه وسلم — فى قوله سبحانه : « والضحى والليل . . . الآيات » خطابا يلامس وجدانه ، ويثير أحاسيسه فهو يقسم له بالضحى والليل ، وبهما يذكر « محمد » ليل همه ، وظلام حيرته ، وضيق صدره ، وجرح نفسه ، وتراكم هواجسه وكأنما يتخيل باقترانهما ومجىء الضحى آخذاً بتلابيب الليل: أن مع العسر يسرا ، وبعد كل ضيق فرج ، فيتطامن ويهدأ ، ويسكن ويسكت . . .

وفى ذلك العرض الإجمالى لتاريخه : « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » تأخذه الدهشة ، لأنه تصوير ناطق ، وتعبير صادق ، لم ينحرف عن الواقع ، وكأنما كان حاضرا معه ، فينتقل من تلك الدهشة التى تبعث الرهبة فى نفسه ، والمهابة فى قلبه ، إلى قوله : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر » فيجد الحنان الذى يملأ جوانحه لهؤلاء الضعاف ، ويستريح الراحة كلها ، لهذه الوصية الأكيدة التى يوصيه بها ربه ، لأنه ذاق اليتم . وعرف مرارة الحرمان ، التى قد تحمل صاحبها على ذل السؤال ، وكأنما

يناجيه فؤاده بأن شيئا من ذلك كله لا يكون منه ، ثم يعود إلى ذلك الصوت الذى يهز ضميره : « وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى ، ولسوف يُعْطِيكَ ربُّكَ فترضى » فيحمد اللهَ على هذا الوعد الحلو ، والبشارة الصادقة . .

وهكذا جو من البهجة والرضا ، والسعادة والأمل ، والغبطة والارتياح ، ينسى بها كل شدة كانت ، وكل كرب كدر صفوه ، وأتعب خاطره ، وهو ما بين الاحتفال بشأنه ، والعناية بأمره ، والوعد له ، والرعاية التى تحيط به من كل جانب فى جَنَّة عرضها كعرض السماء والأرض . . .

لكنه — صلى الله عليه وسلم — مع ذلك كله كان يقف فى الميدان وحده ، إلى أن آمنت به زوجته خديجة وصارت تصلى الصلاة التى علَّمه إياها جبريل ، وتسبقها بالوضوء والطهارة ، وتقرأ ما يقرأ من القرآن ، وانحصر تفكيرها كله فى الوقوف إلى جانبه بمالها وأهلها وذوى قرابتها . وانقلبت عاطفتها له من زوجة تنظر إليه كزوج ، إلى مؤمنة مخلصة صادقة ، تود أن تملأ قلبه بمعان أخرى أكثر من معانى الزوجية ، ترضاه وترجو أن يشملها بما أفاض

الله به عليه من الهدى والإرشاد ، وكان إحساسه منها بذلك كله يشد أزره ، ويقوى ساعده ، ويبعث فى نفسه الإيمان بانه منتصر لا محالة ، طال الأمد أو قصر . . .

ثم آمن به من الغلمان «على بن أبى طالب» الذى كان يتربى فى بيته ، والذى أراد النبى – صلى الله عليه وسلم – بصنيعه – معه أن يرد لعمه أبى طالب بعض جميله عليه إذ كفله صغيرا بعد انتهاء كفالة عبد المطلب . . ولم يتدنس على – كذلك – بشىء من دنس الجاهلية ، ولم ير عورة قط حتى عورته . . لذلك قيل عنه كرم الله وجهه ! ! .

وآمن به – أيضا – مولاه «زيد بن حارثة» ، وآمن «أبو بكر» وكان وجيها فى قريش يهابونه ويحترمونه ، ويكبرون رأيه وتفكيره . فكان لإيمانه أثر بارز ، وفائدة عظمى ، حيث قفى على أثره «عثمان بن عفان» ، و«طلحة بن عبيد الله» ، و«عبد الرحمن بن عوف» ، و«سعد بن أبى وقاص» ، وغيرهم ممن قوى بهم ظهر النبى ، وصار حديث الإسلام يتهامس به العرب فى كل مجلس . !

تَبَّتْ يَدَا أبى لهب

كان أبو لَهَب اللعين عَمًّا للنبى — صلى الله عليه وسلم — يجمعه به آصرة الرحم والقرابة ، ووشيجة الحسب والنسب ، واللحم والدم ، والعرب بطبيعتهم كانوا أشد الناس غيرة على أرحامهم ، وأكثر حمية لأهليهم وذوى قرابتهم ، لا يحتملون فيهم أذى ، ولا يقبلون أن يلحق بهم ضرر ، أو ينالهم مكروه ، ومعظم ما كان يقع بينهم من حروب ، تراق فيها الدماء ، وتذهق النفوس ، يرجع سببه الأصيل — إلى الحميَّة للقرابة ، والدفاع عن العرض ، أو الانحياز إلى جانب النسب .

والعقل البشرى لا يستطيع أن يتصور كيف كان هذا الرجل — على ما بينه وبين النبى من القرابة — يحقد عليه هذا الحقد — ويبغضه هذا البغض ، ويشتغل بعداوته ، والصد عنه ، والتنفير منه ، وإقامة الأشواك والعقبات فى طريقه إلى هذا الحد ؟ !

ولقد دفعت الحمية لمحمد صلى الله عليه وسلم — والغيرة عليه ، والعصبية له «الحمزة بن عبدالمطلب» وهو أخ لأبى لهب

أن يعلن إيمانه بابن أخيه ردًّا على مابلغه عن أبي جهل من تطاوله على «محمد» ، وسخريته به .

فهل يدور بخلدنا أن القرابة غير القرابة ، والوشيجة غير الوشيجة ، والدم غير الدم ؟ أم أن الجهل هو الذى يَطْمِس على البصائر ، ويحول بينها وبين أن ترى الحق ، وتتبع سبيل الرشاد ؟ ويكفى أن التاريخ الذى لايظلم أنزل كل إنسان المنزلة التى تليق به ، والمكانة التى تناسبه ، وهذا هو أبو لهب يكوى بميسم من نار ، إلى جانب ذلك التشنيع الذى أصابه ، والعار الذى لحق به ؛ وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد ، وهو ازدراء وتنكيل لم يكن «محمد» ليقدر عليه ، ولايستطيع أن يُلحقه بأبى لهب ؛ ولو كان أحد من العرب صنع ذلك الصنيع بأبى لهب لزمجر وغضب ، وأقام الدنيا وأقعدها ، ثم جعل الأرض ترتوى بدم القتلى ، وبخاصة لذلك الازدراء الذى يجعل زوجته من الابتذال والمهانة ، بتلك المثابة ، وللمرأة عند زوجها تقدير عظيم ، واحترام بالغ ، يجعلانه يجود لها بنفسه ، ويبذل فى سبيلها أغلى مايملكه ،

لكن الذى فعل بأبى لهب ذلك هو جبار السماوات والأرض ، لهذا فإن أبالهب ذهل ودهش ، ولم يملك إلا الحقد الدفين ، والكيد الخفى ، والعداوة الكاشحة ، أما زوجته فقد صنعت ماتصنعه المرأة ، وذهبت من غيظها بسَلَى جزور ، ورمت به النبي — صلى الله عليه وسلم — وهو ساجد لربه فى إحدى صلواته

وسبب هذه القصة الطريفة أنه — صلى الله عليه وسلم — بعد أن فتر عنه الوحى وترضاه الله بعودته إليه ، وكان قد آمن به أبوبكر ، وعثمان ، ، وسعد بن أبى وقاص ، وغيرهم ، من ذوى المكانة فى العرب ، وكانت الدعوة لا تزال فى الخفاء لايجرأ أحد على إعلانها ، ولا يستطيع إنسان أن يرفع رايتها ، واتخذ المسلمون دار « الأرقم بن أبى الأرقم » مخبأهم الذى يجتمعون فيه ويتدارسون ، لئلا يتعرضوا للأذى ، أو يستهدفوا للضرر ، وظلوا على ذلك ثلاث سنوات حتى ، نزل عليه الوحى بقوله جل جلاله : (وأنذرعشيرتك الأقربين) عسى أن يكثر سواده بهم ، أوتتمكن منزلته بينهم ، أو تقوى آصرته فى جوارهم ، فلم يسعه إلا أن يمتثل أمر مولاه ، وفى هذه الآونة

صعد الصفا ونادى : « ياصباحاه » ! وهى الكلمة التى كانوا يقولونها عند الدعوة للحرب ، والنفير للقتال ، وكانوا يرون تلبيتها ، والاجتماع لها ، من أوجب الواجبات ، وأقدس الأمور ، فلما سالت عليه شعاب الحى من كل ناحية ، وغصّ بهم المكان ، قال لهم : « أرأيتم لوأخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ ؟ » وهنالك قالوا له : «نعم . . . ماجربنا عليك كذبا ! » فقال صلى الله عليه وسلم : « إنى نذيرلكم بين يدى عذاب شديد ! . . . إنكم لتموتون كما تنامون ، ولتبعثون كما تستيقظون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا » وإلى هنا كان المنطق الفطرى يقضى بصحة الموقف ، وسلامة العاقبة ، وقبول الدعوى أو رفضها ، لأن محمدا — صلى الله عليه وسلم — قد أتى البيوت من أبوابها ، وخاطبهم بالعاطفة والعقل فى آن واحد ، وأخذ منهم صكا على أنفسهم بأنه صادق غير كاذب فلم يكن إصرارهم على الباطل بعد ذلك كله إلاّ مكابرة وعنادًا كان الأليق بهم أن يتحاشوهما ، ولذلك كان هذا الرد من أبى لهب على الرسول الكريم : «تبا لك : ألهذا جمعتنا؟ »

ومع كونه تصويرا للطيش ، ودليلا على الحمق ، لايستحق إلا هذا الردع القاسى ، والرد المؤلم : (تبت يدا أبى لهب وتب ، ماأغنى عنه ماله وماكسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد)وكانت تشى بالنبى عند قريش لتؤلبهم عليه ، وكأنها بذلك تحمل الحطب لتشعل به النار ، وكأن فى عنقها حبلاً من ليف لتحزم به ذلك الحطب ، وهو تصوير – كما ترى – يسمو على كل تصوير

وقد كان فى الشعر الجاهلى هجاء يتناول الأخلاق والأعراض ، وينال من العلية والسفلة ، والكبار والرؤساء ، والعظيم والحقير ، وكان العرب يثورون الثورة العارمة لهذا الهجاء ، إلا أنه كان فى الكثير الغالب من ذلك النوع المبتذل ، أو الأدب المكشوف ، يعيب المتكلم به أكثر مما يعيب المقول فيه . . وهذا الهجاء الذى أصاب أبالهب كان من طراز جديد ، لأنه لم يعد أن أظهره مع ماله وولده فى هيئة الذليل الحقير ، أمام عقاب الله له يوم القيامة (ما أغنى عنه ماله وما كسب) وأن امرأته

التى هان شأنها ، وذهبت كرامتها ، وابتذل عرضها ، لاتعدو أن تكون فى صورة (حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد) وأمام هذا التهديد المقلق ، والهجاء المقذع ، والتنكيل الشديد ، بأبى لهب بدأت دعوة محمد — صلى الله عليه وسلم — ترفع رأسها وابتدأ وابتدأ المسلمون — كذلك — يسفّهون معبودات المشركين ، ويعيبون آلهتهم الباطلة ، ويعلنون أن الإسلام حق لامرية فيه ، حتى إذا مابلغ عددهم الثلاثين ، وكان «الحمزة بن عبد المطلب» ، «وعمر بن الخطاب» ، وهما دعامتان قويتان للمسلمين ، قد أسلما ، نزل عليه — صلى الله عليه وسلم — قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » وهنالك أخذت الدعوة طوراً آخر تجاوزت به مرحلة الهمس إلى مرحلة الإعلان . .

رَجُلان

رجلان كانت الدعوة الإسلامية تترقب بفارغ الصبر لحظة انحيازهما إليها ، ووقوفهما إلى جانبها ، يدافعان عنها ، ويشُدّان أزرها ، ويجعلان كفتها ترجح على كفة الشرك والمشركين ، كلاهما بألف رجل أو يزيد ، لأن بطولته النادرة وشجاعته الفذّة ، وصرامته البالغة ، من شأنها أن تجعل قريشا تسكت عن « محمد » — صلى الله عليه وسلم — وتخشى بأسه ، وتحسب لحربه ألف حساب ، أولهما « الحمزة بن عبد المطلب » — سيد الشهداء — وثانيهما « عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — .

أما الحمزة هذا فكان سبب إسلامه غيرته على الرسول ، وحميته له ، وغضبه لأجله ، وكراهيته أن تنال منه يد آثمة مهما كان شأنها ، وقد رووا أن أبا جهل — قبّحه الله وأخزاه — تلاقى بالنبي عند الصفا فازدراه وسخر منه ، ثم لطمه على وجهه ، وسرى ذلك الخبر فى شعاب مكة ، وقابله الناس

بالبشاعة والاستنكار ، والوجوم والسخط ، وعدم الرضا والارتياح . . وكان «الحمزة» فى لهو عن ذلك كله ، لاشتغاله بالصيد والقنص ، والرياضة فى الصحراء بعيداً عن العمران ، فلما آب من رحلته ، وحضر من سفره ، وانتهى إليه هذا الخبر المؤلم ، لم يستطع الصبر ، ولم يقدر على الإغضاء ، ولم يحتمل مع كفره ، وكونه جنديا من جنود المعارضة لابن أخيه ، أن يسكت على هذا الضيم الذى أصابه فى أهله ، فذهب إلى المسجد ، وأخذ بتلابيب أبى جهل وضربه بالقوس على ناصيته ، ولما شجت رأسه ، وسال دمه ، وأراد بعض أصحاب أبى جهل أن يثأروا له ، أمرهم أن يكفوا ، وقال لهم : أنا الباغى وعلى الباغى تدور الدوائر ، وأفهمهم أنه تطاول على ابن أخيه ظلما وعدوانا ، وفى هذا الوقت لم يسع «الحمزة» إلا أن يواصل سعيه لشفاء غليله من أبى جهل وفريق المشركين أجمعين ، فذهب إلى ابن أخيه وأعلنه أنه منذ هذا اليوم قد صار جنديا من جنود الله فى ميدان الدعوة إلى دينه ، والدفاع عن شريعته ، ثم ظل إلى جانبه — صلى الله عليه وسلم — وكان الرسول يحبه حبا لا مزيد عليه ، ولأن الذى قتله «وحشى»

— عبْدُ جبير بن مطعم — فى غزوة أحد كان لايحب أن يراه على الرغم من أنه أسلم بعد ذلك — والإسلام يجب ماقبله — ، ولذلك يحكى هذا القاتل عن نفسه : أنه كان أشد الناس ألما لما كان من الرسول له ، وظل ذلك يحز فى قلبه ، وكان يود مخلصا أن يرضى عنه الرسول ، فقيض الله له أن يقتل مسيلمة فى خلافة أبى بكر ، فاطمأن خاطره ، ورجا من الله سبحانه وتعالى أن يكون ذلك إرضاء للنبى .

وثانى الرجلين «عمر بن الخطاب » ، الذى لم يجدْ الزمن بمثله فى تاريخ الإسلام والمسلمين عدالة وإنصافا وصرامة على الباطل ، وتمسكا بالحق ، ودفاعا عن الدين ، ودفعا لراية القرآن ، وإعزازاً لكلمة الله ، وإرهاباً للمشركين ، وإذلالاً للمعاندين ، وتوطيداً لدولة محمد — صلى الله عليه وسلم — وقد كان فى كفره درعا للشرك ، وسيفا للشيطان ، وقوة لخصوم الدعوة ، وكان السبب الذى جعله يفيق من غوايته ، ويثوب إلى رشده ، ويشرح الله صدره للإسلام ، أنه أخذته الحمية لمافعل «الحمزة» بخاله أبى جهل ، فهام على وجهه وأخذ طريقه إلى «محمد» ليقتله ، وبينما هو فى الطريق لقيه

أحد أصحابه ، فقال له : إلى أين ياعمر ؟ فأخبره الخبر ، فأنكر عليه القصد ، وقال له : كان أولى بك أن تعمل ذلك بأهل بيتك ، لقد صبئت أختك هى وابن عمك زوجها ! ، وما كان «عمر» يدرى من أمر هذا قليلا ولا كثيراً ، فغلىَ دَمُه فى عروقه ، وبدا على وجهه الغيظ ، وحوّل قصده إلى أخته وابن عمه ، ودخل عليهما فى بيتهما كالأسد الهصور ، ولما أشبعهما ضربا نظر إلى وجه أخته الذى كان يسيل منه الدم ، فسكن ثائره ، وهدأت حدته ، وكانت قد أخفت بعض صحائف من «القرآن الكريم» .

فقال لها : ماهذا الذى واريته عنى ؟ قالت له : ! إنه كلام رب العالمين ، فطلب منها أن تواصل القراءة ، ليسمع هو إلى ذلك ، فظلت تقرأ فى «سورة طه» إلى أن وصلت إلى قوله تباركت أسماؤه : (إننى أنا الله لاأله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) وهنالك تطامن الشامس من «عمر» ، وزال

غضبه ، وتحولت غلظته إلى رقة ، وكراهيته إلى محبة وجحوده إلى إيمان وأحس كأن الأرض تميد به ، وأن السماء تنطبق عليه ، وأن يوم الحساب قد حضر ، وأنه قُذِفَ به فى جهنم ، فصاح بأعلى صوته : أين الطريق إلى محمد ؟ لأقبس من نوره ، وأروى الظمأ من رحيقه ، وأمتع النفس بعذب بيانه ، وكان المسلمون يترقبون فى كل وقت من «عمر» أن يفتك بهم ، أو يتطاول عليهم ، لذلك أخذ كل منهم يقول : أنا أكفيكم شره ، وأرد عنكم عدوانه ، وقال النبى — صلى الله عليه وسلم — «بل عَلَىَّ به ، فإنى أقدر عليه منكم» ، واستقبله النبى بقوله له : «أما آن لك أن تهتدى ياعمر ؟» وكان رد عمر بالاذعان والتسليم ، والإيمان والانقياد ، وإعلان الشهادة : أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأشاع خبر انضمامه إلى معسكر المسلمين الذعر والهلع فى نفوس المشركين وأخذ المسلمون يطوفون معه على مجالس قريش ومنتدياتها ليوقعوا فى قلوبهم الرعب ، ولم يرض «عمر» منذ أعلن إسلامه أن يكون المسلمون فى خفية بدينهم ، وقال للنبى — صلى الله عليه وسلم — : «يارسول الله ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ . قال له :

نعم ياعمر ، فقال له : علام نرضى الدنية فى ديننا ؟ وهنالك أمر – صلى الله عليه وسلم – بالجهر بالدعوة . .

وتاريخه – رضى الله عنه – حافل بالأمجاد ، ملىء بالمكارم ، يعطى الصورة الرائعة عن الحاكم الإسلامى العادل ، والجندى المجهول فى موآزرة الحق ، ومعاونة الإنصاف ، وفى الوقت الذى رغم أنف كثير من المؤمنين على أبى بكر ، لأن تكون الخلافة له من دونهم كان هو يسانده ويساعده ، وينصح له ، ويشير عليه ، وكان « أبو بكر » لاينسى له ذلك ولا يغمطه . بل كان دائما أبدا كلما أنار له الطريق ، أو فتح فى وجهه المغلق ، يقول له أمام الأشهاد : « لقد كنت أولى بها منى ياعمر » ولا يرى أن ذلك يضيع كرامته ، أو ينزل بقدره ، أو يحمل الناس على أن يتمردوا عليه . . .

ولعمر فضل التحرر والانطلاق ، وعدم الجمود فى الشريعة الإسلامية ، لأنه كان – حتى والوحى ينزل – إذا لم ينقدح

فى ذهنه الحكم ، أو لم تظهر فيه حكمة التشريع ، يسأل ويستوضح ، ولا يرضى أن يأخذه قضية مسلمة ، بل كان هو بنفسه ممارسة للمسلمين تعلموا منها ، حرية الرأى ، والعلة تدور مع الحكم وجوداً وعدما ، وأمثال ذلك من القوانين التى تدل على أن هذا الدين صالح لكل زمان ومكان ،' . .

والله ياعمّى . . !!

كان لزاما على «محمد» — صلى الله عليه وسلم — وقد أمره ربه بإعلان الدعوة ، ونشر الرسالة . وبخاصة بعد أن انضم إلى معسكره بعض الكبار أمثال « أبى بكر » «وعمر » «وعثمان » «وحمزة بن عبد المطلب » ، وهم قوم لهم منازلهم المرموقة ، ومكانتهم المحترمة ، وبعد أن صار أبو جهل وأضرابه من المعاندين يشتغلون ليل نهار فى مناوأته ، والكيد له ، والتنفير منه ، والتشويه لدعوته لذلك أخذ يبرز فى المحافل ، ويذهب إلى الأسواق ، فيستجيب له من يستجيب .

وكانت تلك الحال أشبه بحرب باردة قامت بينه وبين قريش ، فصارت تؤمن إيمانا لايخامره شىء من الريب أن مجد زعمائها مقضى عليه ، وجاههم فى سبيله إلى الزوال ، وسلطانهم آخذ فى التقلص ، وجبروتهم ستحطمه الأيام المقبلة ، لأن الدين الجديد الذى جاء به محمد — صلى الله عليه وسلم — وإن لم يكن ملكا سيقوم على أنقاض ملكهم ، ولا سلطانا

سينازعهم السيادة — إلا أنه يذيب الفوارق . ويمزج بين الطبقات ، وينفر من التسلط ، ولا يحترم الذين يقوم مجدهم على النفوذ الكاذب ، والثروة المغتصبة . والغنى من غير الطريق المشروع ، ولا يُمَكِّنُ للأنانية الجرداء ، ولا الأثرة البغيضة .

وقد كانت السدانة على البيت الحرام ، والرياسة على العرب . وحق الفصل فى الخصومة ، والحكم فى الديات ، والتقدم فى المجتمعات سمات بارزة تميزهم على غيرهم ، وإذا استرسل ذلك الداعى فى دعوته ، فسوف يكونون سوقة بين الناس لايمتازون عن غيرهم بفضل ، ولا يتقدمون بجاه ، ولا يشرفون بحسب ولا نسب ، لأن «محمداً» يقول : « الناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، لافضل لعربى على عجمى إلاَّ بالتقوى ...) وهنالك أجمعوا أمرهم على الوقوف فى وجه «محمد» مهما كلفهم ذلك كله من ثمن ، وشرعوا يتخذون مختلف الأساليب ، فلما أعيتهم الحيل كلها لم يجدوا إلا الالتجاء إلى «أبي طالب» ظنا منهم أنه هو الذى يحمى ظهره .

ويقف بجانبه ، فإذا تخلّى عنه صار من السهل عليهم أن يردوه ، أو يمنعوه من المضى فى سبيله .

وكان الالتجاء إلى «أبى طالب» فى لين وسياسة ، وترغيب وإغراء حينا ، أو فى شكل تهديد ووعيد ، وسخط وغضب حينا آخر ، فمرة يعرضون عليه أن يتبنى بعض الفتيان الذين فيهم وسامة وحسن ، وقوة وجلد ، على أن يسلم لهم ابن أخيه ليفعلوا به مايريدون فيقول لهم أبو طالب : « بئس الرأى ما ترون » ومرة أخرى يمتزج الوعيد بالوعد والرغبة بالرهبة ، والأمن بالتخويف ، والرضا بالغضب . . إذ يقولون له : إن كان ابن أخيك يريد ملكا ملكناه علينا ، وإن كان يريد المال أعطيناه حتى لايرجو مزيدا ، وعليه بعدذلك أن يكف عن آلهتنا التى ازدراها ، ومعبوداتنا التى حقّرها ، وإلا فإن لنامعك ومعه حسابا آخر ، وسلوكا جديداً ، وأبوطالب أمام هذا القول يقف موقف الحيرة ، ويظل يفكر فى أهله وقومه ، كما يفكر فى ابن أخيه الذى لايصح له أن يسلمه أو يخذله ، أو يخيب رجاءه فيه ، وفى تيار هذه الوجدانات المتناقضة ، والعواطف المضطربة ، يذهب إلى «محمد» صلى الله عليه وسلم

ليأمره أن يكف عن إيلامه لهم ، وعدوانه عليهم ، وإحراجه إياهم ، وقد عرض عليه ذلك العرض السخى الذى عرضوه ، والعدة الطيبة التى وعدوه بها ، وفهم – صلى الله عليه وسلم – من حديث عمه أنه ينوى أن يتخلى عنه ، فلا يقف له دونهم : فاغرورقت عيناه بالدموع ، وأفهمه أنه يحتمى بربه ، ويستعين بخالقه ، ويعوّل على القوى القادر ، ثم قال له فى لهجة المطمئن الواثق : (والله ياعمى ، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى مارجعت عن هذا الأمر أو أهلك دونه) فرق قلب «أبى طالب» ، وقال له : يابن أخى قل ماشئت فو الله لاأتخلى عنك ، ولا أخذلك ، ولا أسلمك لهم . . . ! .

ومن حق الأديب البارع ، والفيلسوف الماهر ، والناقد البصير ، أن يقف أمام هذه الجملة ، التى نبعت من فيض إيمان «محمد» بربه ، وصدرت عن قلب امتلأ بجلال مولاه فلم يعد فيه فراغ لسفاسف الحياة ، ولا لدينا الناس ، ولا لأكاذيب الجاه أو السلطان . . !

ترى هل كان يتروّى فى نسجها ، ويتأنق فى صوغها ، ويفكر قليلا أو كثيرا فى تأليفها . لتنطلق انطلاق السهم ، وتدوّى دوىّ المدفع ، وتسير مسير الشمس ، فَلاَ فَمَ إلا وهو مرددها ، ولارأس إلا وهو واعيها ، ولاعقل إلا وهو مكبرها ومعجب بها ، أم أنها صدرت عن طبع ، وانحدرت عن سجية ، وحدثت من غير تكلف ، شأنها شأن الشهيق والزفير ، وهى وحدها تطوى ذلك التاريخ طيًّا فى ماضيه وحاضره ، وتبرز لهذه الأمة سيرة المنقذ واضحة لاغموض فيها ، بسيطة لاتكلف معها . .

وفى الحق أن اليقين الذى عمرت به نفسه ، والإيمان الذى أنار بصيرته ،والثقة التى لاحد لهافىخالق الخلق ،وبارىء النسم ، ومصرف الكون ، تجعله يسخر من كل هذه المظاهر ، وما الشمس والقمر ، والنجوم والكواكب ، والأرض والسماء ، والجاه والسلطان ، والنفوذ والحكم ، والرياسة والملك ، أو ماسوى ذلك وذلك ؟ أليست كلها من خلقه جل جلاله ؟ ونتيجة حتمية لقوله : «كن » ، ولوشاء لأزالها ، وسلبها بهجتها .

على أن الذى امتلأت يداه بأعظم من الشمس والقمر ، لايفرح بهما ، ولايطرب لحيازتهما ، وقد ملأ «محمد» — صلى الله عليه وسلم — يديه برضا ربه عنه ، وحب مولاه له وأفعم قلبه الكبير به ، وهى ثروة — كما يرى — لا يكون القمر والشمس معها إلا هباء منثوراً ، وما المال والملك ومتاع الحياة الدنيا على اختلاف أنواعه إلا كمالا نفسيا يطلبه المرء ليجبر به نقصا كان به ، أو يغطى عواراً لحقه ، «ومحمد» — صلى الله عليه وسلم — كما جاء فى سورة الضحى — صنعه خالقه على عينه ، وأدبه سيده بأدبه ، وتعهده مولاه بعنايته ، وطهره بارئه من رجس الشيطان ، فكان قلبه نقيا ، وفؤاده سليما ، وضميره متيقظا ، وروحه عالية ، وهمته بعيدة ، وعقله رشيداً وإيمانه صحيحا ، . . وكل هذه معان إذا أضفى الله — سبحانه وتعالى — رداءها على إنسان صار بها من الأبرار المقربين ، لايسف فى غرض ، ولا ينحرف فى قصد ، ولايلتوى فى سنن ، ولا يقصر فى واجب ، ولاينام عن مكرمة ، ولايقف دون غاية . .

وهذه الكلمة التى قالها «محمد» — صلى الله عليه وسلم — إلى جانب كونها سخرية بما كان لهم من أهداف ، واحتقار لما كان لديهم من دنيا ، وازدراء لما كان عندهم من موازين ، ترسم للمصلح الاجتماعى التصميم الجازم الذى يصير عليه ، والعزيمة القوية التى يتحلى بها ، وإلا كان جهده هزيلا ، وعناؤه ضائعا ، وسعيه خائبا . . وذلك هو المنطق الذى وصل به الرسول الكريم إلى القمة ، وانتهى به إلى الغاية ، مع قلة عدده وكثرة خصومه . .

عنت ومكابرة . . ! !

التجأت قريش مع النبي — صلى الله عليه وسلم — إلى العنت والمكابرة بعد أن فشلت فى كل محاولة ، وخابت فى كل سعى ، وأخفقت فى كل جهد ، ظنًّا منها أن العنت والمكابرة ، ينطليان على الأغرار ، فيتسرب اليأس إلى نفوسهم . ويسرى الوهن إلى أفئدتهم ، ولا يكون هذا الرسول فى نظرهم إلا صورة للرجل المغرور ، أو الإنسان الأحمق ، الذى يقذف بالدعاوى طويلة عريضة من غير دليل يؤيدها ، أو برهان يصدقها ، ولم يدر بخَلَدِهم أن زيفهم سينكشف ، وأن سحابة الصيف لا بد أن تنقشع : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَايَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ » كما لم يدر بخلدهم أن الخصم الذى يلتجىء إلى السلاح الهزيل يعلن من أول وهلة عن ضيق عَطَنِهِ ، وسفاهة رأيه ، وطيش عقله ، وأنه لايزيد شيئا — فى ميزان الحق — عن دموع المرأة التى تفزع إليها حينما يدركها الإعياء ، وتصيبها الهزيمة ، وهم أهل لدد ،

وأرباب بيان ، ودهاقين منطق ، وأصحاب بلاغة رائعة ، وماكان يظن ظان أنهم سينحدرون هذا الانحدار ، أويسفون ذلك الإسفاف ، أو يتهافتون إلى هذا الحد ! ! .

والذى يتتبع « القرآن الكريم » ليقف على ماكان منهم من عنت ومكابرة يجد الأعاجيب من أغاليطهم ، والأكاذيب فى دعاواهم ، ولعل ذلك كله يبرز بصورة واضحة إذ كانوا يتهمونه فيما يقوله عن ربه ، وينقله إليهم من وحيه ، ويزعمون أنه يمليه عليه رومى كان يصنع السيوف بمكة لمولاه « عامر بن الحضرمى » ، وقد قوّى هذا الزعم عندهم أن ذلك الرومى من جنس له تشريع ، ولقومه ثقافة ومعرفة ، وأن هذا الذى يجيء به — صلى الله عليه وسلم — فيه من المنطق ، وله من سيما التربية والتهذيب ، وعليه من مسحة الأخلاق والأدب ، مايروِّج لتلك الشبهة المدعاة ، ، وتناسوا أن ذلك الكلام الذى يقروه « محمد » من معين عربى بحت ، وبيان يعربى محض ، ليست عليه سحنة الترجمة ، ولافيه طابع النقل ، وقد كان أولى بهم وهم نقدة الكلام ، وأصحاب الذوق الأدبى ، ودهاقين

البلاغة ، أن يلتفتوا إلى البون الواسع بين الجنسين « لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ » لكن ذلك على حد قول القائل : « كاد المريب أن يقول خذونى » ليحق الله الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ! . .

ولهذا كانت محاولاتهم مفضوحة حتى بينهم وبين أنفسهم .
وليس أدل على فضيحتهم من أن «القرآن» لسحر بيانه ، وعذوبة منطقه ، وقوة أسره ، ودقة تصويره ، كان يسحرهم جماله ، ويبهرهم نسجه ، ويأخذهم حسنه ، فلا يملكون أن يتحولوا عنه ، أو يميلوا إلى سواه ، وكانوا لذلك يختلسون الخطى ، ويتحينون أن تسنح لهم فرصة التنكر ، ليستمعوا منه بعضاً مما يقرؤه الرسول — صلى الله عليه وسلم — حتى إذ مافشا عليهم ذلك ، وعرف عنهم ، وخافوا أن تتمكن منهم الفرقة ، وأن يتحولوا جميعاً إلى مفتونين بجرسه ، مأخوذين بسحر ألفاظه ، تعاهدوا على الكف ، وأكدوا بينهم المواثيق على ألايفعلوا ، ثم كانت النتيجة المزرية أن كان يتلاقى كبارهم متلبسين بالجريمة ، فإذا تعاتبوا ادعى كل منهم أنه كان يتجسس على أخيه ! !

ولما كان الكتاب الكريم قد تضمن من أنباء السابقين ، قصصا جاء بها للاتعاظ ، وهو نوع من التربية الحكيمة الذى يأخذ به أرقى الأمم والشعوب فى تنشئة أبنائهم ، كما قال سبحانة : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) وظنوا — هم — أن « محمدا » يؤلف ذلك كله من خياله ، ويخترعه من وهمه ، قصداً إلى التلهى ، ليلتف حوله الفارغون من العمل ، المتعطلون عن الوظائف بعثوا « النضر بن الحارث » ليطوف على أهل القصص من الروم والفرس ، ليعارض « محمدا » ويحول الناس عنه : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولئكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » وفاتهم أن الذى يقصه « القرآن » برهان قائم على أن « محمدًا » لايدعى مايجئ به ، ولا يزعم مايحكيه : « وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ قَضَيْنَا إِلى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، وَلكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّور إذ نَادينا وَلَكِن رَحْمَةً مِن رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِن نَذِيرٍ مِن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » وهو تاريخ

ليس عندهم علمه ، ولا بأيديهم كتبه . ولا بين ظهرانيهم رواته : «إن هو إلا وحى يوحى» .

وما كانوا يصدقون أن يكون الرسول من أبناء آدم ، بل كانوا يتوهمون أنه لا يكون إلا من الملائكة « وقالوا : مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » ؟ونسوا أن الجنس أميل إلى جنسه ، وأن الإنسان يأنس للإنسان (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ ملكا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ مَايَلْبِسُونَ) . . فلما تبين لهم تفاهة هذا الظن ، وهزال هذا الرأى ، اتجهوا اتجاها آخر (وَقَالُوا : لَوْلاَ أُنْزِلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُل مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ؛ يقصدون الوليد بن المغيرة بمكة ، أو أبا مسعود بن عمير سيد ثقيف بالطائف ، وقد قطع الله عليهم السبيل بقوله : (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) . .

أما معارضتهم للقرآن ودعواهم الإتيان بمثله على الرغم من أن كبارهم نصحوا لهم بالسكوت عنه ، والتسليم له ، ووصفوه بالحلاوة ،

والطلاوة ، والإغداق وكثرة الثمر ، فإن حديثه يطول ، وحسبنا أن نقول : إنه تحداهم فعجزوا عن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ولم يبق بعد ذلك كله إلا حديثه عن عالم الغيب من الجنة والنار ، والصراط والميزان ، والجزاء على الأعمال يوم القيامة وإعادة الأجسام بعد فنائها ، التي تعرض لها — صلى الله عليه وسلم — في دعوته ، ليوقع الرهبة في نفوسهم ، والهلع في قلوبهم ، عسى أن يتخوفوا المصير ، ويحذروا سوء العاقبة ، وقد كانت هذه — أيضا — محلّ تندر عندهم ، ومجال تكذيب وشك ، ولاسيما الشجرة التي تنبت في أصل الجحيم ، ليأكل منها أهل النار فيشتد بهم الظمأ ، ولا يجدون ماء يرتوون به ، مبالغة في العذاب والإيلام (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ، والتي جاء ذكرها في آية أخرى في قوله جل جلاله : (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين) ولم يعقلوا أن تعيش شجرة في النار ، أو تبقى على شدة اللهب ، وسبب ذلك أنهم قاسوا الدنيا على الآخرة ، وقدرة المخلوق على قدرة الخالق ، وما علموا أنه — سبحانه — على كل شيء قدير .

وقد كان « الخبَّاب بن الأرت » دين على كافر من هؤلاء الماندين فلما طالبه به ، وألح فى الطلب ، وكان ذلك الكافر يريد أن يتخلص منه ، قال له ياخباب سأدفع لك هذا الدين يوم البعث ! مع أن عقلاءهم تحدثوا به ، وحكماءهم رددوه على ألسنتهم ، ولم ينكره هذا الإنكار إلا الملاحدة الذين كانوا يقولون — كما حكا عنهم القرآن (إن هى إلّا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) .

المُعَذَّبُونَ

إذ لما لم تفلح قريش فى رد « محمد » — صلى الله عليه وسلم — عن طريقه الذى سلكه ، ولا عن دعوته التى آلى على نفسه أن يمضى فيها إلى النهاية ، وقد خاب ظنها فى « أبى طالب » الذى كانت ترجو أن ينتصر لها ، ويضرب بسيفها ، أو يسلم لهم ابن أخيه ، استعملت معه أقذر الأساليب فى الإيلام وأحقر الوسائل فى الكيد ولم تكتف بالسخرية منه ، والاستهزاء به ، ولا بإلقاء الأوساخ عليه وهو مار فى الطريق ، أو ساجد فى الصلاة ، أو أن يكون ذلك كله من الصبيان والنساء لا من الكبار المرموقين كعقبة بن أبى معيط ، أو أبى جهل وهما من المستهزئين الذين نكل الله بهم ، وانتقم له منهم ، وأراه مصارعهم الذليلة ، ونهايتهم المحزنة .

استعملت أقذر الأساليب لتصرف عنه أصحابه ، وتفرق من حوله أتباعه ، ليقف هو وحده بعد ذلك أشبه بالخليع المعيَّل . . . ولقد نجحت فى ذلك كله إلى حد ما ، وأصبحت مكة وفيها من يعرفه ولا ينكره ، ويحترمه ولا يحقره ، لاتفتح أبوابها له ، ولا تأهل

مجالسها به ، ولا يقبل كفارها بحال من الأحوال أن يعلن فيها محمد دعوته ، أويرفع عقيدته ، أو يقول : لا إله إلا الله ، كما أصبح المسلمون هنالك مهددين بالردة ، أو معرضين لأقسى أنواع الإيلام والأذى ، ولقد ارتد فريق من هؤلاء الضعاف الذين أحسوا أنهم معرضون للموت ، وهكذا يكون العنت القذر ، والكيد الوضيع ، والخصومات الفاجرة .

إلا أن النبي — صلى الله عليه وسلم — لم يكن ليشك أنه هو والمسلمون معه سيلاقون الهوان ، ويحتملون الضيم ، ويمتحنون أشد أنواع الامتحان (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) . . إلا أن الإيمان الصادق ، والعقيدة الراسخة ، أو الإذعان القوى حينما يمتلئ بها القلب ، لايبالى صاحبها بالعذاب ، ولا يأبه بالموت .

وقديما آمن السحرة بموسى بعد أن عمرت ضمائرهم بهديه ، وضاءت بصائرهم بدينه ، فلما هددهم فرعون بالقتل ، لم يكترثوا لتهديده

(قالوا : لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ماأنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خيرٌ وأبقى) .

وكذلك فعل أصحاب العزائم القوية ، من أصحاب محمد — صلى الله عليه وسلم — فلم يفرطوا فى دينهم ، أو ينفضوا عن نبيهم ، على الرغم من الجوع والعطش ، والمشقات التى كانت تترادف .

فهذا هو « بلال الحبشى » مؤذن رسول الله ، وقد كان مملوكا لأمية بن خلف الجمحى يلاقى من مولاه هنا مالا تحتمله الجبال ، ولا تصبر عليه النعال ، ثم لايؤثر فى عقيدته ، ولا يصرفه عن طيته ، ولا يجعل قناته تلين لغامزه ، إذ يخرجه « أمية بن خلف » إلى الرمضاء فى وهج الظهيرة ، ويأمره أن يلقى بجسده العارى فوقها ، ثم يكلفه حمل الحجر الثقيل ويقول له « ستظل كذلك حتى تموت أو ترجع عن دين محمد » فلا يكون رده عليه إلا أن يقول : « أَحَدٌ أَحَدٌ » .

والتاريخ يحدثنا أن « أبابكر » — رضى الله عنه — أنقذ كثيرًا من الموالى أمثال « بلال » هذا ، إذ كان يشتريهم ثم يعتقهم .

ولعل إسلام الموالى وتعرضهم لهذه القسوة من أسيادهم ، دليل واضح على أن هذا الدين يتخطى الحواجز ، ويقطع الحديد ، ولا يغلب سلطانه جبروتُ الطغاة ، ولا إرادة المتكبرين فى الأرض بغير الحق . .

وكانت قصة التعذيب هذه كالمؤامرة العامة ، التى تحالفوا على إنجازها من غير محاباة ولا استثناء ، ولذلك لم تسلم قبيلة من القبائل من وصمتها ، ولا حى من الأحياء من عارها ، حتى « عمر بن الخطاب » انحدر فى ذلك قبل أن يسلم ، فنكل بجارية له ، وبالغ فى تعذيبها وطلب إليها أن تعود إلى عبادة اللات والعزى . . ولم يفك خناقها ويحل وثاقها إلا شراء « أبى بكر » لها !

أما آل ياسر « عمار » وأبوه وأمه فإنهم صورة أخرى للفداء ، والتضحية ، والثبات على المبدأ ، والتمسك بالحق ، والتفانى فى ذات الله ، والاستهانة بكل شدة فى سبيل العقيدة التى تعمر القلب وتملأ الصدر ، وتحيا بها الروح فى دنيا من السعادة والبهجة ، والرضا والارتياح ، استبد بهم بنو مخزوم ، يسومونهم الظلم ، ويحملونهم على الكفر ، وينكلون بهم التنكيل الذى تأباه الإنسانية ، وتعافه

الكرامة ، وتنفر منه الأخلاق ، والذى كان أقله التعذيب بلفح الشمس ، وحرارة الرمضاء ، الأمر الذى لم تقو عليه بنية الرجل المتهدم « ياسر » أبو عمار فلفظ أنفاسه فى زفير الحر ، وظمأ الكبد وجوع البطن ، وإيلام الروح ، ونصب النفس . ولا سيما وقد رأى زوجته يطعنها أبو جهل اللعين فى قلبها الطعنة النجلاء التى تودى بحياتها ، وليس بعد ذلك كله أسى تجئ به نفوس ناكبة عن الرشد ، جانحة إلى الباطل ، منغمسة فى الشر ، متناسية للأخلاق متلاعبة بأبسط قوانين الإنسانية ! ! .

ولعل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان ألمه أشد ، وهمه أكثر ، وعذاب نفسه أنكى وأوجع ، لأنه لا يملك لهؤلاء جميعاً سوى الرثاء والإشفاق ، والحسرة والعناء ، والمضاضة ، واللوعة وإن كان يقول لآل ياسر : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » .

أو يقول لخباب بن الأرت — الذى تضجر من قسوة تلك المحنة ، فطلب منه أن يدعو الله — سبحانه وتعالى — بكشف الغمة ، وتفريج الكربة — : (ياخباب ، إنكم تتعجلون ، لقد كان الرجل ممن قبلكم يمشط بأمشاط الحديد فلا يرده ذلك عن دينه ...) الحديث .

وفى الحق إنها لمحنة بلغت نهايتها فى الشناعة ، وغايتها من ، البشاعة ، والعرب – الذين كانوا يغيثون الملهوف ، ويبذلون المعروف ويحسنون الجوار ، وينكرون الظلم ، ويأبون القسوة ، يتلوث تاريخهم بتلك المخازى ، وينحدر إلى ذلك المستوى .

أسئلة فى الذهن ينهال بعضها فى إثر بعض ، وتتزاحم فى الرأس دون أن تظفر بالجواب ؟ .

لكن الذى يعلم قذف النمروذ لإبراهيم – عليه السلام – فى النار ويتصور قصة أصحاب الأخدود التى ورد ذكرها فى القرآن : (قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذهم عليها قعود ، وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود) يؤمن أن الإنسان هو الإنسان ، فى كل زمان ومكان ، كما يؤمن أن الفضائل التى كان العرب يتمدحون بها ، لم تكن لها من الأصالة فى النفس ، والتمكن من القلب ، والرسوخ فى الخاطر ، مايجعلها تمتزج بالدم ، وتتغلغل فى الروح ، فتصور الأفعال على مقتضاها صدورها عن العقيدة .

وذلك هو السر فى أن للتربية الدينية فى الأُمم والجماعات جلالها واحترامها ، وقوتها وسلطانها ، وثباتها ، وتمكنها ، لأن الدين يُنَمِّى الوازع ، ويوقظ الضمير ، ويُطَهِّرُ القلب ، ويرتفع بالنفس عن الغرض والهوى ، والحاجة والغاية ، والشهرة والميل .

وهم كانوا فى حاجة إلى ذلك كله لتجرى منهم تلك الأخلاق مجرى الروح من الجسم !.

هجرة إلى الحبشة

على الرغم من نكاية قريش بمحمد — صلى الله عليه وسلم — وإيذائهم له ، وسخريتهم به وقطعهم الطريق عليه ، كلما هم بدعوة إنسان ، أو أعلن دينه فى محفل من المحافل ، أو مجتمع من المجتمعات ، لم يجرءوا على أن يتجاوزوا ذلك إلى قتله ، لأن عمه « أبا طالب » كان واقفا لهم بالمرصاد ، وبنو هاشم كلهم من ورائه ، والإقدام على مثل هذا الطايش يعرض قريشا لحرب لاقبل لها بها ، ولا طاقة لها بمثلها ، فكان من الضرورى — عندهم — أن يصبوا جام غضبهم على أصحابه ، وأن يقفوا لهم بكل صراط يوعدون ، ويصدون عن سبيل الله .

وهنا لك أذن النبى للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة وقال لهم : (إن بها ملكا لايظلم جاره . .) فتسللوا فى ظلام الليل ، ولما انتهى خبر تسللهم إلى قريش أسرعت لتقطع عليهم المنافذ وتردهم إلى مكة ، لتواصل الحملة عليهم ، وتتمادى فى تعذيبهم ، وتسد عليهم كل

مسلك ، ليعودوا إلى ما كانوا عليه من الوثنية والشرك ، ولكن قضاء الله كان أسرع من إرادتهم ، ولطفه كان أسبق من حياتهم .

غير أنهم لم يكادوا يصلون إلى الحبشة ، ويستقر بها قرارهم ، حتى كان الكفار قد أرسلوا إلى النجاشى « عبد الله بن أبى ربيعة » المخزومى « وعمرو بن العاص » ، وحملوهما من الهدايا للملك وللبطارقة ، ماعساه أن يساعدهما على الوصول إلى الغرض الذى جاءوا من أجله ، وقد تقبل الملك والبطارقة الهدايا بالغبطة والرضا ، والسرور ، والارتياح ، فكان ذلك مشجعا للرسولين — ابن أبى ربيعة وابن العاص — أن يقولا له : « إنه قد فرَّ منَّا قوم ، تركوا دينهم الذى كانوا عليه ، واعتنقوا دينا جديدا يعادى الأديان كلها ، ويقول فى عيسى وأمه مريم قولًا لايليق بهما . . . » .

اهتز الملك والبطارقة لهذا القول ، واعتبروه عدوانا على المسيحية وافتياناً على مقدساتهم المرعية ، فانتدبوا واحداً من ذلك الوفد الآبق ليناقشوه فيما نسب إليهم .

فإذا « جعفر بن أبى طالب » ينبرى لهم ، ويبين بيانا شافيا : أن هذين الرجلين إنما أرادا الإيقاع والدس ، وأن حقيقة الأمر : أن

محمداً — صلى الله عليه وسلم — جاء إليهم بعد أن طفح الكيل ، وطال الليل ، واشتد الظلم ، وساد البغى فى الأرض بغير الحق ، وفشا بين الناس الربا ، وكثر الزنا ، واسترق القوى الضعيف ، فكان جماح الطيش ، وكبح لجام الظلم ، وسوى بين الناس فى المعاملة ، وقضى على الرق ، ونهى عن الزنا ، وحرم الربا ، ودعا إلى أن يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

ثم قرأ « جعفر بن أبى طالب » سورة « مريم » وفيها الإشادة بعيسى وجهاده ، والثناء على ما كان له من هدى وتقويم ، وتنزيه « مريم » عن الفواحش ، والشهادة لها بطهارة العرض ، ونقاء النفس ، وبراءة الساحة ، وشرف المحتد ، وحينئذ أبى « النجاشى » والبطارقة كل الإباء أن يفرطوا فى المسلمين ، الذين هاجروا إلى إلى الحبشة ، أويسمحوا لأى إنسان كائنا من كان أن ينالهم بسوء

وظل هؤلاء المسلمون فى الحبشة يلاقون الرعاية والكرم ، والعناية والاهتمام ، حتى كانت الهجرة إلى المدينة ، وترامى إليهم إجماع الناس عليها ، وخروج النبى — صلى الله عليه وسلم — وصاحبه « أبى بكر » فلحقوا بهم ، وشاركوهم النزوح إلى ذلك الوطن الجديد .

أما ما كان من أمر « النجاشى » والبطارقة بعد جلاء الحال لهم — هكذا — فإنهم بعثوا من قبلهم وفداً يستطلع الخبر من مكة ، ويدرس ذلك الحدث الذى حدث ، وينظر مدى تلاقيه مع المسيحية على محجة واحدة من السلوك القويم ، والسنن الواضح ، والهداية السليمة ، ثم مع هذا وذاك يشكر « محمداً » وأصحابه على ذلك التنويه العظيم بعيسى بن مريم وأمه ، وبالإنجيل الذى جاء به .

وكان من هذا الوفد أن تأثر إلى حد بعيد بشريعة « محمد » — صلى الله عليه وسلم — وأعجبه ما تأخذ به البشرية من إصلاح ، وماتسلكه من هدى ، وتعمل له من نهوض ، وما كاد يستمع للقرآن الكريم من النبى حتى شعر بسحره ، وأدرك سيطرته الغلابة على النفس وهيمنته القوية على الضمير ، واستدراره الغريب للدمع ، وسلطانه القاهر للفؤاد ، ولما خنقته العبرة ، وفاض ماء عينه أعلن إيمانه بمحمد وبدينه ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم

تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) .

وفى هذه الأيام التى كانت قريش تعانى الهزيمة التى أصابتها من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ، ثم من إيمان هذا الوفد الوافد ، كذلك ، كان إسلام « حمزة بن عبد المطلب » ، وإسلام « عمر بن الخطاب » بعد ذلك بثلاثة أيام فطاش صوابهم أكثر وأكثر . وأخذت منظماتهم الإرهابية تزاول من جديد نشاطها فى التنكيل والإيلام .

ولحق ذلك الرجل الطيب « أبا بكر » الذى كان — على الرغم من حبه لمحمد ، ومبادرته إلى اعتناق دينه — محترما لديهم ، موقرا فيهم ، لايريدون أن ينالوا منه ، أو يعتدوا عليه ، ولم يجد بدًّا من الخروج هائما على وجهه من الألم ، لايدرى أهو ذاهب إلى الحبشة ليلحق هنالك بإخوانه من المسلمين ، أم هو ذاهب إلى مكان آخر .

ويرجع ذلك إلى أنه كان يقرأ القرآن أمام بيته فيتهافت عليه النساء والصبيان ، وقد خشيت قريش أن يكون ذلك من أبى بكر غزواً داخليا لها ، فضيقت عليه الخناق ، وأقامت فى وجهه المتاريس وكأنه فى هذه اللحظة قد تمثلت له الآية : (إن الذين توفاهم الملائكة

ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالو ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) فأخذ طريقه إلى حيث يفارق تلك الوجوه ، وينأى بعرضه عن تلك الأقذار .

إلا أن رجلا من هؤلاء الذين كانت تمتلئ نفوسهم بحبه لقيه ، وعز عليه أن يفارق مكة ، أو أن تخلو عرصاتها منه ، فسأله ، ولما عرف من أمره ماعرف ، أخذ بتلابيبه وقال له : « لا تفعل يا أبا بكر فوالله مثلك لايَخرج ولا يُخرج » ، ثم طاف به على مجالس قريش وقال لهم : « ليبلغ الشاهد الغائب أن هذا الرجل فى جوار « ابن الدُّغُنَّة » ، لايتعرض له أحد بسوء إلا كان ذلك تعرضا لابن الدغنة وعدوانا عليه » ، لكنهم اشترطوا على « ابن الدغنة » أن يظل « أبوبكر » فى قراءته للقرآن متخفيا فى داخل بيته حتى لاتعود الفتنة جذعة ! .

وكان الرجل يقرأ القرآن فى داخل بيته ، فيقتحم الأطفال والنساء الجدران ويدخلون إليه ليستمعوا لمايتلو ، وحينئذ عادت

شكوى قريش منه ، وخوفها من الافتتان به ، فراحوا إلى « ابن الدغنة » ، الذى هدده بسحب جواره منه ، ولم يكن من هذا الرجل — الذى لو وزن إيمانه بإيمان هذه الأمة مجتمعة لرجح — إلا أن يقول له : « افعل ما بدا لك ، فإننى فى جوار من هو أقوى منك ومنهم ، ينصرنى ويؤيدنى ، ويكلؤنى ، ويرعانى ، ولا يتخلى عن جوارى . .

الحصار الاقتصادى

أساليب حرب الناس بعضهم لبعض كثيرة متنوعة ، ربما كان أهونها أن تكون وجها لوجه ، أو أن تكون حارة لا باردة ، وفى العصور الحديثة تلجأ الدول الكبرى فى استذلال الدول الصغرى — لتنال غرضها منها ، وتصل إلى غايتها التى تقصد إليها ، إلى مايسمى فى لغة علماء الاقتصاد السياسى « الحصار الاقتصادى » .

وهى وسيلة من وسائل الحرمان والتجويع ، والحيلولة بين الدولة وبين تبادل السلعة ، أو شرائها أو الانتفاع بها بوجه من الوجوه ، سدًا لحاجتها ، وقضاء لمصلحتها ، وإقامة للأسوار والحواجز دونها ، لتصبح أمام الضرورة الملحة ، والحاجة القائمة ، مضطرة للتنازل عن كرامتها وعزة نفسها وإبائها ، فلا تعارض فى سلطان يفرض عليها ، أو رغبة ظالمة توجه إليها ، كما يفعل — الآن — أرباب الجشع الاستعمارى ، والسعار الأجنبى ، مع الشعوب التى تريد أن تتحرر من سيطرتهم ، أو تتخلص من نفوذهم .

وهو بعينه الذى حدث من كفار مكة مع النبى — صلى الله عليه وسلم — والمسلمين معه ، حينما وجدوا أنهم استنفدوا كلَّ جهد فى إرغامهم ، وبذلوا كلَّ محاولة فى إذلالهم ، وقطعوا كلَّ أمل فى إلجائهم ، وأن المطاردة والعنف ، والاستهزاء والتعذيب ، وغير ذلك وذلك .

لايقف التيار الجارف الذى كانت تسير به دعوة « محمد بن عبد الله » إلى نفوس الرجال والنساء ، والصبيان والأطفال ، وأن فيهم من يتسللون إلى بيوت المسلمين ليستمعوا إلى القرآن ، الذى كان يترك فى نفوسهم يُقض مضاجعهم ، ويطارد النوم عن أجفانهم ، ويثير الوساوس فى قلوبهم والبلابل فى أفئدتهم ، .

وقد حدّث الرواة : أنهم بعد أن عقدوا المجالس للمشورة وتبادلوا الرأى لعلاج موقفهم مع « محمد » ، انتهوا إلى معاهدة مكتوبة تربط مابينهم ، وتقيد إلى حد بعيد سلوكهم مع المسلمين . وكانت تلك المعاهدة تقضى ألا يزوجوهم أو يجيروهم أو يغيثوا اللهيف الذى يستصرخ بهم أو يفزع إليهم ، وألا يتبادلوا وإياهم منفعة من المنافع على وجه من الوجوه ، وأن يكون حالهم معهم حال المنبوذين واستتبع ذلك أن ينفصل كلٌّ من الفريقين فى الدار التى يعيشون فيها ، فكان هؤلاء المنبوذون فى شعب بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، وظل الأمر هكذا ثلاث سنوات كاملة .

وقد بدا على المسلمين من هذه المحنة الهزال من الجوع ، والشحوب من الألم والحرمان ، والاصفرار من الحبس ، وفشت فيهم الأمراض والأوبئة ، ولم يكن من حق المسلمين أمام هذا الضغط والحصار أن يتجولوا أو ينتقلوا إلا في داخل هذا السور المضروب ، أو السجن المحدد ، اللهم إلا في الأشهر الحرم ليطوفوا بالبيت إذا أرادوا ، أو يحجوا إذا ما ابتغوا ، وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يجد متنفسه إلا في موسم الحج حين يستقبل الوافدين على البيت ، ليعرض عليهم الإسلام وكانت دعوته تجد طريقها إلى أفئدتهم بسهولة ، وكان مايعانيه هو وأصحابه حينئذ سبباً في عطف القلوب عليهم ، وميل كثير من الناس إليهم ، وقد سرى ذلك كله إلى صفوف خصومهم فكاد يبدد جمعهم ، ويفرق كلمتهم ، ويشيع بينهم التفكك والتخاذل .

ووقف بعض هؤلاء ليقول لقريش : إنه ليس من المروءة ولا من الرجولة ولا من الذوق والأدب أن نتمتع نحن بحقوقنا المشروعة وأن نحس بقيمة الحياة في حرية وأن ننعم بدنيانا التي بأيدينا ، في الوقت الذي يشقى إخواننا في النسب ، وزملاؤنا في الوطن ، وشركاؤنا في حرم بيت الله .

فلما ذكره أبو جهل بما فى الصحيفة أبدى تَمَرُّده عليها ، وعدم اعترافه بها ، وقال له لم نكن حاضرين لكتابتها ، ولا راضين عن قيودها ، ثم أمن على قوله آخر وآخر ، وهكذا ... حتى كادت الصحيفة تذوب من شدة ما وجه إليها من اعتراض ، ورميت به من قسوة ، ووصفت به من مجانبة للصواب ، وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — قد وصل إليه من العلم عن طريق الوحى أن الأَرضة ، أكلت هذه الصحيفة الظالمة ، والوثيقة الغاشمة ، فأخبر بذلك بعض أصحابه ، ولم يلبث الخبر أن تطاير للمشركين أنفسهم ، فظنُّوا لأول وهلة أنها إشاعات يريد المسلمون بها بَلْبَلَةَ الخواطر ، استدراراً لعطف الناس عليهم ، وتمهيداً لرضا قريش بعودة المياه إلى مجاريها بينهم وبين المسلمين ، ولكن خبيثا من خبثائهم تسلّل إلى الصحيفة فى مكانها من الكعبة ثم جاء يعلن أن ذلك الخبر لاريب فيه ، وهنالك ذهلت قريش ذهولاً شنيعاً ، وبخاصة حينما تراءى إليها أن « محمدا » يقول : إن الأَرضة لم تبق منها إلا لفظة « باسمك اللهم » ، وفى هذه اللحظة حاصوا حيصة حمر الوحش وأخذوا يروحون ويجيئون ، ويفكرون فيما عساه أن يكون . أو اعساه أن يُتَّخَذَ أمام هذا الموقف الذى وقفتهم إياه الحوادث ، وصيرتهم إليه الأقدار ، على اعتبار

أنه خذلانٌ لهم ، وتقهقر إلى الوراء فى حرب المسلمين ، والقضاء على روحهم المعنوية التى كانت تدفعهم ادئماً أبداً إلى الغيرة على « محمد » والعصبية له ، والوقوف إلى جانبه ، والدفاع عنه ، والدعوة لدينه ، وإعلان رايته خفّاقة مدوّية ، وقد أصبح بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب يحسُّون بأن الصراع بينهم وبين قريش قبلى أو عصبى لا أثر للدين ولا للعقيدة فيه ، وصار همّ « أبوطالب » الاهتمام بابن أخيه فى صحوه أو نومه ، وليله أو نهاره ، حتى لاتمتد إليه يد آثمة ، أو تتطاول عليه نفس خبيثة ، أو يقتله سيفٌ ظالم ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتابع الدعوة الخافتة ، والجهود المكتومة ، وأصبح ذلك الموقف أشبه بالإعلان الصامت لذلك الدين الذى أرادوا طمس معالمه ، وقبره فى مهده منذ أول يوم ولادته ، ورأت قريش أنه لامناص من التصريح بنقض الصحيفة المكتوبة ، والمعاهدة المعقودة واضطرت صاغرة إلى التنازل عن كبريائها ، وعاد الاتصال ورفعت قيود حظر التجول ، وتبادلوا السلع والحاجات ، إلا أن النفوس كانت مع ذلك كله لاتزال تشعر بالجفوة ، والقلوب لاتزال تحس باللوعة ، والعيون لاتزال تتبادل النظر الشزر ، والجوانح لاتزال منطوية على الكراهية والبغضاء .

والمسلمون كانوا يشعرون أنهم فى دار غربة وهوان ، يتمنون من صميم أفئدتهم أن يبدلهم الله قوما خيرا من أولئك الذين يرونهم قَذًى فى أعينهم ، أوشجًى فى حلوقهم ، ووطناً أحسن من هذا الوطن الذى يضيق بهم ، ويضيقون به ، حتى لقد كانت الهجرة إلى الحبشة تراودهم ، ليتخلصوا من ذلك العنت الذى يُلَاقُونه .

أما محمد — صلى الله عليه وسلم — فإنه نفض يديه من قريش ، وقطع أمله من مكة ، وظل — كذلك — يضيق ذرعا بتلك البيئة المريضة ، والأرض المجدبة ، وكان يغدو إذا غدا ويروح إذا راح متمنيا مايتمناه من كان معه من المسلمين أن يستبدل له الله من قريش أهلًا بأهل ، ، وجيرانا بجيران . .

عام الحزن

كان سند النبي — صلى الله عليه وسلم — فى دعوته ، ودرعه التى يتلقى بها الأحداث ، وساعده التى يذود بها الأذى ، وركنه الركين الذى يعتمد عليه ، فى أول عهده بالرسالة ، حيث لم يكن حوله من سواد المسلمين من يشد أزره ، ويقوى ظهره ، إذ كان يُحِسُّ من نفسه بالغربة والوحشة ، والضعف وقلة الحيلة ، اثنان من الناس ، كلاهما بعدد ضخم ، وقوة هائلة . . امرأة هى « خديجة » ، ورجل هو عمه « أبو طالب » .

« وخديجة » لم تكن له زوجةً ككل امرأة تكون تحت رجل لاهم لها إلا أن تتمتع به ، وتلوذ بكنفه ، وتحتمى بظله ، وتترامى بين أحضانه ، وتطلب فيه دائماً أبداً الغنى والمال ، والصحة والعافية والمركز والجاه ، وأن يكون قلبه فى كل آن متلهفا عليها إن غابت أو حضرت ، فإن رأت شيئاً من ذلك كله قد تحول أو نقص ، أو رأت أنه لم يعد فيه ما يأخذ انتباهها ، ويملك إعجابها ويشغل بالها وتفكيرها ، فترت شواغلها به ، وبردت حرارتها له ، وماتت

أحاسيسها التى كانت متأججة ، وجعلته من تحفها القديمة ، أوثيابها البالية ، لأنه لم يعد فتى أحلامها ، الذى تحن إليه ، وتنجذب نحوه ، لم تكن « خديجة » تلك الزوجة ، بل كانت أمه وأخته وأهله وعشيرته ، وأحب الناس إليه ، وكان هو عندها كل شىء تطلبه ، وكل حلم يدور بوهمها ، ويخطر ببالها ، ويسبح بخيالها تؤمن إيماناً جازما بأنه يكمل نقصها ، ويجمّل نفسها ، ويرضى تطلعها ، ويشفى أوجاعها ، ويملأ دنياها باليمن والبركة ، والسعادة والسرور ، لذلك كان عندها نور عينيها ، ونبض فؤادها ، وحياتها الدائبة ، وأملها الذى لاينتهى ، فمالُها فى يده ، وثقتُها فى نفسه ، وقومُها من حوله ، وأهلُها أطوع له من ظله ، وكأنه بها وحدها فى ألف ساعد وساعد ، وألف نصير ونصير ، وكلما غدا أوراح ، كان ظلُّها يتابعه بالأنس والبهجة ، والأمل والحب والصحة والعافية ، والشجاعة والإقدام ، والظفر والغنم . . والفراغ الذى كانت تملؤه من قلبه لم يكن حُلّ من قبل ، وهى مع هذا وهذا أم أولاده ماعدا « إبراهيم » الذى كان بعد ذلك من « مارية » القبطية .

وكان موتها عند النبى — صلى الله عليه وسلم — فاجعةً كبرى ، ومصيبةً عظمى ، شعر بعده أن الأيام تتنكّر له ، والمحن تصطلح

عليه ، والمصائب تواجهه ، والحوادث تحاربه ، وزاد من الألم في نفسه أن لم يمض على موتها هذا ثلاثة أيام حتى مات عمه « أبوطالب » كذلك ، فكان هذا العام عام الحزن .. كما سماه المسلمون وسماه النبي . وأى حزن وراء هذا ، وأية فاجعة بعد تلك الفاجعة ، ولذلك روى عنه . . صلى الله عليه وسلم — أنه كان يقول : (اجتمعت على هذه الأمة فى هذه الأيام مصيبتان لا أدرى أنا بأيهما أشد جزعا) .

ونحن نعلم أن قريشاً بعد موت « أبى طالب » ابتدأت تعامله معاملةً أخرى ، وتقف منه موقفاً جديداً ، وتحشد كل ماتملك من وسائل ، وماتستطيع من حيلة ، لتشل حركته ، وتعطل سيره ، وتُعَوِّق ركبه ، وإن كانت هذه الشدائد التى كان يلاقيها ، والمحن التى كان يصادفها ، دفعت عجلة الزمن ، وحركت عقرب الساعة ، ولفتت أذهان كثيرين إلى الدخول فى الإسلام ، والإيمان بمحمد — صلى الله عليه وسلم — وهكذا الشر يأتى بالخير ، والضيق يكون وراءه الفرج القريب .

وعلى الرغم من أن قريشا انتهزت فرصة موت عمه الذى كان درعه وسيفه ، ومجنّه وترسه ، وبرهنت بهذا على أنها تجردت من الذوق ، وجف معين الحياء منها ، وأصبحت تتشفى فى النبى من نشاله ، والقطع لأوصاله ، والقضاء على تحركه وانتقاله [illegible] هو مع هذا كئيب النفس ، يحاول جهده كله أن يعيش فى ذلك الجو من الحزن الذى خَلَّفَه له موت خديجة وأبى طالب ، لا لأنه يئس من الدعوة وقطع رجاءه فى نصر ربه له ، ولكن لأنه وهو يستجيب لبشريته كان يتألم كما يتألم الناس ، ولذلك لم يكن أحدٌ يراه على الحال التى كان عليها من التسلل إلى المجتمعات والتسرب للمحافل ، وكان دخول من يدخل فى الإسلام أشبه بالعمل الآلى والتجاوب العاطفى ، لم يكن لأحد فيه جهد ولا دخل .

وكأنما أراد الله — جلت قدرته — أن يبرهن للنبى — صلى الله عليه وسلم — من طرف خفى أن هذا الصنيع الذى تصنعه قريش لا يمكن بحال من الأحوال أن يرد قدراً ، أو يدفع إرادة ، أو يحول دون تبليغ الرسالة .

وبينما الرسول الكريم من شدة ما ناله من الحزن ، وكثرة ما أصابه من عناء التفكير مستغرق فى ذهوله ، سابح فى خياله ، رأى نفسه متكئا إلى جذع شجرة يقرأ « القرآن » والجن حوله يستمعون إليه فى صمت ، وينصتون إليه فى إعجاب ، ويتأملون قوله ، ويتدبرون

هديه ، وكأنما هو كان ضالتهم المنشودة ، وحاجتهم التى ظلوا يبحثون عنها من زمن طويل . وقد سجل القرآن قصتهم هذه ، وتغلغل الهدى فى نفوسهم : (وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ، وأنّا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا .

وكان فى الحديث الذى صدر منهم ، والتفكير الذى بدا عليهم مسحة من العقل والمنطق ، تدل على أنهم يجيدون التفكير ، إلى حد بعيد ، وبخاصة فى مثل قولهم : (وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ، وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا) وكان هذا الحدث فى نظر العرب جميعاً من الذهول والغرابة بمثابة بعيدة ، حملتهم على أن يشتغلوا بالتأمل والتفكير فى أشياء كانت لاتخطر لهم ببال ، ولا تمر لهم بذهن ، وكان فى مقدمة ذلك فهمهم للجن ، وتصورهم لهم ، وحديثهم عن إيمانهم بالله وبحثهم عن المعرفة ، وجريهم وراءها ، وكانوا إلى هذه اللحظة يظنون فى ذلك الظنون .

وقد تناقلوا هذه القصة ، وأخذوا يتحدثون بأن لمحمد — صلى الله عليه وسلم — محيطاً وراء محيطهم ، وأن دعوته إن لم تجد منهم انتباها ورغبة ، وتَلَقِّياً وقبولا ، فستجد من سواهم ، رضوا أم سخطوا ، وأنه إن كان — اليوم — يتردد إليهم فى هديه ، ويلاطفهم فى دعوته ، ويصفح عنهم ، فى إيذائهم له ، ومطاردتهم إياه ، فسيجئ اليوم الذى يكونون فيه مرغمين ، ويكون الأمر والنهى ، والحل والعقد له هو وحده ، وأنهم إن كانوا يقولون : أمر ابن أبى كبشة — أبوه من الرضاع — استهزاءًا به ، وسخرية منه ، فلا بد لهم أن يقولوها صدقا وحقا .

وسترى البشرية كلها هذا النصر الذى يسعى إليه ، والسلطان الذى يتمكن له : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويُسَلِّمُوا تسليما) وحينئذ يعاودهم الندم حيث لاينفع .

مع ثقيف بالطائف

إصغاء الجن للنبي — صلى الله عليه وسلم — واستماعهم إليه ، وإعجابهم به . وتبليغ قومهم ما وعوه منه ،كان بالطائف ، وقد كانت الطائف آهلة بالوجوه والأعيان من ثقيف ، وكانت خيراتها من التين والعنب ، وسائر أنواع الفاكهة يتهادى بها الركبان ، ويتحدث بها الرائح والغادى ، وقد اختار الرسول الكريم أن تكون وجهته إليها ، ودعوته فيها ، بعد أن نفض يديه من قريش بمكة ، وأصبح لا يرجو عندهم خيراً ، ولا يترقب فى جوارهم أمنا ، ولا يجد بينهم هدوءا واستقرارا .

وكان المنظور — وللطائف تلك المزايا ، ولمناخها هذا الاعتدال ، ولأهلها ذلك الرزق الواسع — أن يكون فيهم من دماثة الأخلاق ، وحسن المعاملة ، وقوة الإدراك ، وسهولة القياد ، ما يحقق فيهم أمل النبيّ — صلى الله عليه وسلم — الذى أمّله منذ اللحظة الأولى لتحول وجهه إليهم ، إلا أن الذى أخلف الظن ، وجعله لا يعود من هنالك بطائل ، أن الطائف كانت كعبة للوثنية ، ومركزاً مرموقا من مراكز الشرك ، لأن فيها « اللات » وهى إحدى بنات

الله « اللات والعُزى ومناة الثالثة الأُخرى » — كما يزعمون — وعصبيتهم لها ، واعتقادهم فيها ، لا يمكن أن يفارق نفوسهم ، أو يغيب عن أذهانهم . .

وتقص الأنباء أنه — صلى الله عليه وسلم — حينما انتهى إلى الطائف ، واستقر بين ظهرانى ثقيف ، واستقبلوه استقبال الطارئ ، وأنسوا به أنسهم بالضيف ، واطمأنوا إليه اطمئنانهم لرجل حصيف الرأى ، بعيد النظر ، قوى الحجة ، واضح الدليل ، متكامل البيان ، استمعوا إلى دعوته إلى الله ، وتخويفه من المآل ، وتحذيره من العقاب ، ونصحه بالطاعة ، ونهيه عن المعصية ، ومجاهرته بضرورة المساواة ، ونبذ العبودية وبغض الظلم .

ثم لم يكد يصل بهم إلى أن البشرية الضالة ، والإنسانية المتخبطة ، هى التى تنحرف عن السنن ، وتلتوى عن القصد ، إذ تعبد حجرا ، أو تبتهل إلى جماد لا يضر ولا ينفع ، ورب الناس حاضر بين يديهم ، يرفع الضرّ ، ويكشف البلوى ، ويلبى دعوة الداعى إذا دعاه ، حتى فهموا أنه يريد بذلك أن ينتقل بهم إلى

دين يحول بينهم وبين ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم ، فأغروا به السفهاء منهم ، وسلّطوا عليه الصبيان .

وما زالوا به حتى أدركه الإعياء ، وأنهكه الجهد ، وخارت قواه ، ووجد نفسه وقد أغمى عليه ، وهو مستند إلى حائط بستان من بساتين الطائف .

وبعد أن أخذ يضيق مما به ، ويصحو من تلك الغاشية التى أصابته ، ابتدأ يقول مناجيا ربه : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ! ! يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملّكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ! ! ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلاّ بك) .

وهو دعاء – وإن كان عنوانا على الجزع والهلع ، والهوان والضعف ، والشدة والعسر – إلا أنه تسجيل لذلك العنف الذى

قوبل به ، والنذالة التى صنعوها معه ، وقد كان — صلى الله عليه وسلم — يؤمن أن نصر الله يلاحقه ، وعنايته تسابقه ، ودفعه الأذى عنه لا يمكن إلا أن يكون . لذلك يخاطبه خطاب المطمئن إلى وعده ، الواثق من لطفه ، الطامع فى رحمته ، حتى إذا ما خشى أن يكون قد تجاوز حدود الأدب معه ، سارع إلى مرضاته : (إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى !) . وقد كانت هذه الكلمة شعاره فى أمثال هاه الشدائد .

وقد جاء إليه « جبريل » عقب هذه الحادثة من غير توانٍ ، فقال له — بعد أن سلم عليه — « إن الله قد سمع الذى قلته ، وسمع ما ردوا به عليك ، وهذا أخى ملك الجبال . إن شئت أن يطبق عليهم الأخشبين فعل » .

ولكنه قال له : (لا . يا أخى جبريل . فإنى أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئا) . . .

ولعمرى ! لو أن إنسانا آخر مع هذا الذى أصابه منهم ، أو ناله ن إيلامهم ، لما وقف هذا الموقف الكريم ، أو عاملهم بهذا الظرف ، وتلك الرأفة ، ولكنه كان يعلم — منذ ضمه « جبريل »

عند أول عهده به ، وقال له : (اقرأ) ومنذ قال له « ورقة بن نوفل » : « لم يأت رجلٌ بمثل ما أتيت به إلا عودى » — : أنه مُعَرَّضٌ لذلك كله ولا بد له أن يلاقيه !.

وقد كان فى البستان الذى اتكأ إلى جداره بعض أصحابه من الأطفال فرقَّ قلبهم له ، وثارت فى النفوس منهم الشفقة عليه ، وبخاصة بعد أن سمعوا منه ذلك التضرع الباكى ، والتوسل الحزين ، فلم يجدوا من العزاء له إلا أن يشيروا على خادم لهم أن يقدم له عنقودا من العنب ، وشربة من الماء ، فتناوله منه شاكرا له ولهم هذا الصنيع ، حتى إذا ما أخذ فى الأكل سمى الله ، فملك ذلك على الخادم إعجابه ، وحمله هذا الإعجاب أن يسأله بعض أسئلة انتهت بإيمانه به ، وانقطاعه له ، وقد عاتبه مخدوموه فلم يأبه بهم ، أو يلتفت إليهم ، أو ينكر فى أن ذلك قطع لما كان بينه وبينهم من صلة الخدمة التى يتعيّش منها .

ومضى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومضى معه ذلك الغلام ، وثالث هو مولاه « زيد بن حارثة » الذى كان معه . .

وظل الرسول يفكر فى المكان الذى يتجه إليه بعد ذلك ، ولم يكن قد رسم الخطة التى يختطها ، أو الجهة التى يحوّل إليها وجهه ، ولم يكن هنالك مفر من الرجوع إلى مكة ، التى كان يرجو ألا يعاود الرجوع إليها ، وهو لا يأمن على نفسه إذا رجع إلى مكة أن يضاعفوا له الإيذاء ، ويواصلوا له الكيد ، ويدبّروا له الشر ، وهو لم يبق فيه من الاحتمال ما يواجه به عدوانهم المنتظر ، ولا إيلامهم المتوقب .

فكلف مولاه « زيداً » أن يسبقه إلى مكة ، ليبحث له عن رجل من أهل المروءة والنجدة ، والكرم والإباء ، والتفضل والأريحية . ليجيره من هؤلاء الناس ، فكان ذلك الرجل هو « المطعم بن عدى » الذى قبل أن يؤمنه ريثما ينكشف الغيم الذى يحيط به ، أو يبدو لمحمد وجها جديدًا يتحول إليه .

وكان حدثا من الأحداث أن يجير « المطعم بن عدى » رجلا لا يجد فى مكة كلها إلا قلوبا تغلى بالحقد عليه ، والكراهية

ه ، والنفور منه ، على أن « محمداً » ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم
يكن ليفكر فى البقاء هنالك ، حتى يعرّض « المطعم بن عدى »
نفسه لسخطهم عليه ، من هذا الجوار الذى منحه لمحمد ، بل
كان يرجو ـ كما قلنا ـ أن يبدله الله خيرا من مكة ومن أهلها .

الإسراء والمعراج

كان لتلك المعاملة القاسية التى عاملت بها قريش النبى — صلى الله عليه وسلم — إلى درجة أن ضاق ذرعا بمكة وأهلها ، فقطع الرجاء من دعوتهم ، ونفض يديه من جوارهم ، وتطلع بفؤاده المكدود ، ونفسه الكئيبة ، وقلبه الحزين ، إلى جو آخر يتنفس فيه الهواء النقى ، وينظر فيه إلى وجوه باسمة مشرقة ، لا تكفهر له ، ولا تعبس لرؤيته ، وظل على ذلك زمنا طويلا يترقب الفرج ، وينتظر طلائع رحمة الله ، وقد كان ذلك — مضافا إليه موت « خديجة » وموت « أبى طالب » ، وتلك المقاطعة الظالمة التى حاصرته بها قريش هو والمسلمين معه فى شعب بنى هاشم ثلاث سنوات — سببا فى إجهاد عنيف ، ونصيب قاس هد ركنه ، وفتور عظيم أصابه ، وتعب ليس قبله ولا بعده لحق به ، والأجسام إذا لم تخلد إلى السكون بعد الكدح ، والراحة بعد العناء ، والنوم بعد الصحو الطويل ، والسهر الدائم ، كلت وملت !

وقد جعل الله — سبحانه وتعالى — تلك الرحلة الممتعة ، ترضية لخاطره — صلى الله عليه وسلم — ومتعةً لنفسه ، ولذة لروحه ، وإظهاراً لمكانته عنده ، ومنزلته لديه ، حتى لا يتسرب إليه الشك فى أنه أفضل خلقه ، وأكرم أنبيائه ورسله ، وهو عمل أشبه بما يصنعه الملك من ملوك الدنيا إذا ما وفد عليه زائر عزيز ، فإنه يطوف به على قصوره الفخمة ، وضياعه الواسعة ، حيث يستقبله الناس هنالك بما يدل على اغتباطهم به ، وفرحهم لقدمه ، وإذا كانت الرحلات إلى جانب ما يكون فيها من المتعة النفس ، والترويح عن الخاطر ، تزيد فى المعرفة ، وتطبق العلم على العمل . فقد كان ما رآه — صلى الله عليه وسلم — من مظاهر الكون ، واختلاف الألوان والأشكال ، والجزاء على أعمال الخير أو الشر ، وعقبى الظالم أو المتكبر ، والمنحرف أو المقترف ، تأكيداً للحقائق ، وتصويراً للمعانى .

وقد ورد حديث الإسراء والمعراج » بصورتين مختلفتين باختلاف الرواة ، فالذى يرويه « مالك بن صعصعة » ، غير الذى يرويه « أنس بن مالك » وإن كان كلاهما يتفق على أن

الإسراء تقدمه إيقاظ جبريل له ، وشق صدره ، وصب وعاء من علم وحكمة فيه ، كما يتفق كل منهما على أن الرسل كانوا موزعين على أبواب السماوات ، يستأذن عليهم « جبريل » فيقول القائل منهم : « من يطرق الباب » ؟ فيرد عليه « جبريل » قائلا : « أنا جبريل » ، فيقول سادن الباب : « ومن معك » ؟ فيقول له : « محمد » ، فيقول ذلك السادن : « أوَ قد أرسل إليه ؟ » فيقول جبريل : « نعم » فيقول السادن « أهلاً بالأخ الصالح والنبي الصالح » .

وأنت إذا تصورت هذا الاستقبال كله لم يرد فى خيالك — شيئا ما — عن هذا الذى تسمع به عن استعراض الجيوش لاستقبال الملوك وعظماء الدول ، احتفالا بقدومهم ، وابتهاجا بضيافتهم .

ولا تنس أنه صلى بهم فى بيت المقدس ، وفيهم أبوه « آدم » وأبوه « إبراهيم » ، وأولو العزم من الرسل ، وهو دليل آخر على الحفاوة البالغة ، والتكريم الواسع المدى . .

ويقول رواة الحديث : « إن جبريل – عليه السلام – لم يتجاوز السماء السابعة ، أما هو – صلى الله عليه وسلم – فإنه ارتفع إلى « سدرة المنتهى » ورأى نبقها مثل قلال هجر ، وورقها مثل آذان الفيلة ، ثم تجاوزه إلى « البيت المعمور » ، وهكذا رأى ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وفى ذلك – أيضا – دليل آخر على أن قدره وراء هؤلاء جميعا ، بما فيهم « جبريل » الذى لا يستطيع أن يتجاوز قدره ، أو يتخطى مكانه .

والإسراء : هو السير بالليل ، ومثله « السرى » وزان « هدى » وهو قطعه – صلى الله عليه وسلم – المسافة من « المسجد الحرام » إلى « بيت المقدس » على الدابة المسماة بالبراق ، وكان العرب لا يقطعونها إلا فى شهر كامل ، يذهبون ، وآخر يجيئون

ولذلك هالهم الأمر ، واستعظموا ذلك الحديث ، وطالبوه بالدليل على صدقه ، فأخبرهم أن بالطريق عيرا لبنى فلان ، وأخرى لبنى فلان ، ومن أوصافها كيت وكيت . . فطالبوه

بوصف بيت المقدس فأخذ يصفه كأنما هو حاضر أمامه ، وهو يتحدث إليهم عن جدرانه ونوافذه وأبوابه .

وفى الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما : أنه سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : (لما كذبتنى قريش قمت فى الحجر فجلا الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه . . .) .

والقرآن الكريم تعرض لذكر الإسراء دون المعراج ، إذ يقول : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) والسبب فى ذلك أنه تعالى كان يعلم أنه لم يكن عندهم من الكناية والفهم ما يساعدهم على تلقى مثل هذا الخبر بالقبول ، وأنه مهما أتى بالأدلة على حصوله ، فإنهم لا يصدقونه . !!

على أنهم أنكروا الإسراء — كما علمت — وقالوا : لعلها رؤيا نائم ، أو أوهام حالم ، وارتد بعضهم عن الإسلام بسببها : (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) .

والمعراج : هو الصعود ، ومنه قوله تعالى فى سورة المعارج : (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) . . وقد صعد به « جبريل » من غير سلم ولا آلة أخرى يعرج عليها ، بل بقوة إلهية كانت تجذبه إلى فوق كأنه كان يمتطى « مصعدا » مما صنعه العلم الحديث الآن .

وللعلماء اختلاف فى حصوله للنبى – صلى الله عليه وسلم – هل كان بجسمه وروحه أم أنه كان بروحه فقط ؛ والذين يؤيدون أنه كان بروحه فقط ، يقولون : إن نظرية الضغط الجوى هى التى تحدّد ذلك ، لأن الإنسان إذا ارتفع إلى طبقة خاصة من الجو خرج دمه من مسام جسمه فمات ، وقد ثبت أنه – صلى الله عليه وسلم – لم يمت من المعراج ، فدل هذا على أن المعراج كان بالروح فقط .

والذين يقولون : إنه كان بالروح والجسم يبطلون هذا الدليل بأنه قياس غائب على شاهد وهو باطل ، ويقولون : إنه كان معجزة من معجزاته – صلى الله عليه وسلم – والمعجزة : هى الأمر الخارق للعادة . . . ويستدلون بأن الله – سبحانه وتعالى –

فى تسجيل هذه الحادثة قال : (سبحان الذى أسرى بعبده) والعبد : اسم للروح والجسم ، ولو كان بالروح فقط لما كان جديرا بالذكر ، ولما كان أكثر من خيال الشعراء أو أوهام الفلاسفة ، أو أحلام النائم .

وفى عروجه — صلى الله عليه وسلم — إلى السماء فرضت الصلاة خمسين صلاة فى اليوم والليلة ، وما زال « محمد » يذهب إلى ربه ليسأله التخفيف — بناء على نصيحة موسى — حتى كانت خمسا لا خمسين .

ومن عجيب الأمر فى حديث المعراج أنه يخص « موسى » بإغرائه « محمدا » بالرجوع إلى ربه ، ويخصه كذلك بالبكاء ، لأن رسولا بعث بعده ، يدخل الجنة من أمته أكثر من الذين يدخلون من أمة « موسى » .

بيعة العقبة

لم يعرف عنه — صلى الله عليه وسلم — أنه سكت عن الدعوة ، أوتهاون فى أداء الرسالة ، ولكنه كان دائب العمل ، دائم الجهد ، لايثنيه صعب ، ولا يردُّه مستعص ، ولايثنى عزيمته جاسٍ غليظ . . .

وقد كان خصومه كلما حاول واحدٌ منهم أن يغلق فى وجهه سبيلا مهّدَ هو بجلده وكفاحه سبيلا آخر ، حتى لاتتوقف به عجلة المسير ولا تنقطع به حركة الجهاد .

ونحن نعلم أنهم منذ أول يوم وقفوا له ، وحاولوا أن يُعَوِّقوا ركبه ، وأن يعطلوا وظيفته ، وأن يردوه على وجهه فى كل قصد يقصده . وكل طريق يبتدئ منه الخطى ، فإن علموا أن وافداً جاء يسأل عنه ، أو غريبا يسعى فى طلبه ، أخبروه عنه الأخبار الكاذبة ، وحدثوه الأحاديث الملفقة ، حتى لايصل إليه ، أو يؤمن به .

وقد حدثوا : أن الأعشى الشاعر جاء إليه ليعلن إسلامه ومعه قصيدته التى مطلعها : « ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا » لينشدها

بين يدى النبى — صلى الله عليه وسلم — فاعترضه « عامر بن الطفيل » وقال له : يا أبا بصير ، إنه يحرم الزنا . فقال له : مالى به من حاج فقال له : ويحرم الخمر ، قال له : أغيب عنه إلى العام القابل حتى أرتوى منها ثم أجىء إليه ، وفى طريقه وهو عائد مات .

وفى الأسواق التى يقيمونها للتجارة وللأدب كعكاظ « وذى المجنة » كان يدب فى أزقتها ، ويندس فى طرقاتها ، ويمشى فى مسالكها ، ليدعو إلى دينه ، وينوّه برسالته . ولاتخلو هذه الحركة كلها من فائدة ، حتى ولو أعرض عنه الناس ، أو واجهوه بالبرود وعدم الاكتراث ، فإنهم سيتحدثون إلى أهليهم وذويهم بما صادفوه فى أسفارهم ، وما لاقوه فى غربتهم ، ولذلك كانت الأسواق من كل جهة ، وفى كل مكان ، تتحدث عن حادث جديد ، ورسالة جديدة . وكان ذلك بمثابة التمهيد لما سيكون من تبليغ ومعرفة ، وإذعان وقبول . . .

والمؤرخون يعتبرون أن بوادر انتصار الإسلام ، ودخول دعوته فى مرحلة جادة قوية ، فى أفق أوسع ، ونطاق أرحب كان من « بيعة العقبة » ، وهى منسك من مناسك الحج ، حيث ترمى الجمار ، وهى عقبة أولى ، وثانية ، وثالثة .

وتفصيل ذلك : أنه — صلى الله عليه وسلم — كما كان يدعو فى الأسواق ، كان كذلك فى أيام الحج ، فيلتقى بالناس فى موسم الحج ، ويتعرف على كبارهم وذوى المكانة فى أهليهم وعشيرتهم . . . ولما بدا له أن يفعل ذلك والتقى بنفر من « الأوس » بايعوه على السمع والطاعة والنصرة والكف عن المحارم ، وكان عدد هذا النفر ستة فقط .

ثم حضر فى العام الذى بعده فى موسم الحج — أيضا — اثنا عشر رجلا ، بايعوه عند «العقبة الثانية » لهم ولنسائهم الذين تركوهم فى المدينة .

وفى العام الثالث حضر من الأوس والخزرج وفد ثالث مؤلف من ثلاثة وسبعين رجلا بايعوه عند العقبة الثالثة على كل نصرة وعلى حرب الأسود والأبيض ، ورغبوا إليه أن يتخذ « المدينة » موطناً له لتطلع منها شمس الدعوة رائعة وهاجة على العالم كله ، من غير أن يحجب نورها حجاب ، أو يقف فى سبيلها جهول ، أو يصد انبساط ضيائها أحمق .

ولما سرى خبر هذا العرض الطيب ذهب جماعة من قريش إلى أولئك الضيوف الحاجين إلى بيت الله الحرام ، وعتبوا عليهم أشد

العتب ، أنهم يأخذون عدوهم من بينهم ، ليحموه فى بلدهم ، ويصونوه ، من خصم يطلبه ، أو غريم يبحث عنه . فى الوقت الذى يفكرون هم فى قتله ليستريح العالم من شروره .

وقد أكد الوفد لقريش أن شيئاً من ذلك لايكون . وحينئذ تسلل هذا الوفد إلى المدينة ، وشاع الخبر فى أثرهم أنهم خدعوا قريشا بهذا الرد الذى ردّوا به عليهم ، وأن الخطة التى دبروها مع « محمد » والعهد الذى أخذوه عليه ، هى أن يتخذ « المدينة » منارةً للرسالة وموطناً للدعوة ، وأنه هو جاد فى ذلك ، وأنهم هم جادون فى نصرته والعمل فى صفوفه .

وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — منذ بايع الوفد الأول . قد أرسل إليهم « مصعب بن عمير » يعلمهم القرآن وينير لهم بعض المسائل التى تشتبه عليهم فى الدين . .

وكان اليهود بالمدينة يهددون الأوس والخزرج بأنهم سيظفرون بهم ، وينتصرون عليهم بالنبى الجديد ، الذى سيسارعون إلى اعتناق دينه ، عندما يصل إليهم خبره ، فكان هذا عاملا من عوامل

سريان الدعوة مسرعة إلى صفوف الأوس والخزرج ، حتى لايسبقهم اليهود باتباعه والإيمان به ، وبذلك يتمكنون منهم ، ويظهرون عليهم ، ويكيدون لهم .

ولم يكن شيء من ذلك خافيا على قريش . فأخذت تتوجس من الخوف ، وتضطرب من الفزع ، وتدرس من جديد الموقف الذى يجب عليها أن تقفه من « محمد » ، حتى لايفلت من يدها ، ليستعد للوثبة عليها ، والنيل منها ، ولايعدم – مادام ماضياً فى سبيله هذا المضى – أن يزحف عليهم بجيش من العرب لاقبل لهم برده ، ولاطاقة لهم بالوقوف فى طريقه .

ونحن نعلم من سيرنا مع الحوادث ، ووقوفنا على الخطوات التى سلكوها معه من قبل – على الرغم من الكيد العنيف ، والأذى المتلاحق – أنهم كانوا يتهيبون قتله ، ويعتبرون الإقدام عليه إقداماً على عمل طائش ، وتصرف خاطئ ، أوغير سديد ، لذلك تجنبوه ، ولم يقبلوا مشورة من كان يشير عليهم به ، تفاديا من عداوة

بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، لكنهم أصبحوا مع «محمد» على حال تحتم عليهم أن يفكروا فى قتله ، لأنه بسلوكه الذى يسلكه ، ونهجه الذى ينتهجه ، منته إلى قتلهم من غير شك .

والحصافة تقضى إذا تجهز لك عدوك أن تتجهز له ، وإذا خطا خطوة إلى حربك أن تخطو مثلها إلى حربه : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وقد أيقنت قريش بذلك كله منذ أدبر عنها وفد الثلاثة والسبعين ، وأن عليها أن تحتاط للشر قبل أن يقع ، إلا أن هذا الشر الذى سيقع شر شائك ، ودفعه بمثله أكثر شوكا ، والجرح الذى تتوقعه من قتل « محمد » لايزال قائماً ، لكن محمدا سيقتلها إن لم تبادر هى بقتله ، لذلك وضعت هذا الموقف موضع الدرس ، وأخذت تقلّبه على وجوهه كلها . لتجعل بنى هاشم وبنى عبد المطلب أمام الأمر الواقع — كمايقولون — حتى لايفكروا فى الثأر له إذا قتل .

فقال قائل : نربطه على ظهر بعير أهوج يضل به فى الصحراء ليموت من الجوع والعطش ، فسفّهوا رأيه ، وقالوا له : إنه لايعد

بمنطقه الحلو ، وبيانه العذب ، أن يجمع عليه الجموع التى تتأثر بقوله ، وتشفق لحاله ، وتعطف عليه ، وتفك هذا الوثاق الذى يعانيه .

وقال آخر : نحبسه فردوا عليه ردا يشبه ماردوا به على سابقه .

وكان رأى أبى جهل أحزم هذه الآراء وأحكمها ، لأنه قضى أن يأخذوا من كل قبيلة فتى جلدًا قويًا ، ثم يجمعوا هؤلاء الفتيان ليضربوه ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرق دمه فى قبائل العرب جميعًا ، فلا يستطيع قومه أن يثأروا له .

وبينما كانوا يعملون - جادين - لإنجاز ماوصلوا إليه من تفكير ، كان المسلمون فى الحبشة ، والمسلمون فى مكة ، قد أخذوا طريقهم إلى « المدينة » ، وكان على - كرم الله وجهه - فى المكان الذى كان ينام فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نائما على سريره ، وكان الرسول مع « أبى بكر » قد خرجا من مكة .

الهجـــرة

لم يكن من الحتم على « محمد » - صلى الله عليه وسلم - أن يبقى بمكة وقد تبين له أنها لم تعد صالحة للدعوة ، ولا مرجوًّا من أهلها الخير ، وبخاصة بعد أن أوصى الله — سبحانه وتعالى — إليه هذا الشر الذى يبيتونه له ، والغدر الذى تنطوى نفوسهم عليه ؛ بل إن بقاءه مع هذه الاعتبارات كلها عبثٌ لا يليق به ، وخطأ ليس له أن يفعله .

ولا يصح أن تؤوَّل هذه الهجرة بأنها فرارٌ من الميدان ، أو هرب من المسئولية ، لأن الفرار إنما يكون فرارًا إذا تأكد صاحبه أن الصمود نبل ، والبقاء شجاعة ، والمنازلة بطولة ، والحرب مصلحة والاستماتة فناء فى الحق ، وكذلك المسئولية إنما تكون مسئولية إذا كانت جديرة بالتحمل ،

لكن المسألة لا تعدوا أن يكون الجو غير ملائم ، والظروف ليست مناسبة : والشأن فى ذلك شأن طالب الثمرة من الأرض ، السبخة ، أو الباحث عنها فى غير أوانها ؛ فإن المنطق يحكم عليه بالطيش ، ويصفه بالعته ، وهكذا كان كفار مكة كالأرض السبخة

التى تلفظ الحب ، وتنكر البذر ، ولا يجدى معهم محاولة ولا جهد .

على أن الرسول الكريم لم يكن مرسلا إليهم وحدهم ، مرتبطا بعجرتهم ، أو يتقرر مصيره بهم ، أو يعيش تحت رحمتهم — كما يقولون — وإنما هو مرسل للأحمر والأسود ، والعرب والعجم ، يسافر ويقيم ، ويعانى ويتحمل ، ومن حقه أن يجعل مكة مقرا له ، أو المدينة مركزا للقيادة . .

وفى هذه الهجرة ظهر أنه — صلى الله عليه وسلم — من كبار الساسة الذين لا يُغْلَبُ دهاؤهم ، ولا يضعف احتمالهم ، ولا تضيع جهودهم ولا يُخدع رأيهم ، ولا يطيش صوابهم ، وقد تبين ذلك كله فى أمور :
منها تركه عليا — كرم الله وجهه — مكانه متغطيا ببردته الخضراء ، التى كانوا يعرفون أنها تلازمه ولا تفارقه ، ليظنوا أنه لا يزال فى مكانه نائما كعادته ، فإن حاولوا أن يداهموه كان الأمر على غير ما يتوقعون . والشأن على خلاف ما يقصدون ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، ولذلك ذهلوا حينما علموا أن النائم « علىٌّ » وكانت هذه أول هزيمة أصابتهم فى الصميم ، وجعلت روحهم المعنوية هزيلة كئيبة ، ولم يشكوا عندها أنه قد سُقط فى أيديهم .

ومنها أنه لم يترك مكانه لعلىّ إلا وهم يرصدونه أمام بيته .. وقد طلع عليهم وهم فى سنة من النوم ، فرمى التراب على وجوههم ، وفوق رؤوسهم قائلا : (شاهت الوجوه) ، إذلالاً لهم ، واحتقاراً لشأنهم ولذلك تطامن كبرياؤهم ، وتضاءلت عظمتهم ، وبدا على وجوههم الصغار والخزى . .

ومنها أنه لم يخرج من مكة إلا فى النهار ، ليسجل عليهم فشل محاولاتهم التى حاولوها ، وبطلان تآمرهم الذى اجتمعوا له ، وفكروا فيه ، ودرسوه دراسة فاحصة ، وقلبوه على كل وجه يحتمله ، وذلك لأنه نام فى غار « ثور » إلى الصبح ، حيث عاد إلى مكة ليصحب معه « أبا بكر » ، وقد ظل هو وأبو بكر ثلاثة أيام فى الغار حتى أحضر خادم « أبى بكر » البعيرين اللذين ركبهما « أبو بكر » وصاحبه . . . وكان القصد من بقائهما فى الغار — الذى لا يبعد عن مكة إلا بساعة واحدة من الزمن — ألا يدركهما القوم إذا ماجدوا المسير فى طلبهما . .

ومنها أيضًا ، أن « أسماء بنت أبى بكر » التى كانت تجئ إليهما بالطعام ، « وعبد الله » ابنه الذى كان يأتيهما بحديث المشركين عنهما ، وكان يُعَفّى على مواضع أقدامهما بغنم « أبى بكر » التى كان

يرعاها له مولاه « عامر بن فهيرة » ، وكان هذا كله غاية التضليل وأقصى ماتكون التعمية . . وكل هذه أساليب الرجل الداهية ، وخطط السياسى المحنك ، وطرق لايهتدى إليها إلا إنسان ربته الحوادث والأيام . .

أما عناية الله التى أغنت عن مضاعفة من الدروع — كما يقول البوصيرى فى قصيدته البردة — فهى التى جعلت الحمام يصنع العش ويملؤه من بيضه ويرقد فوقه للتفريخ ، وجعلت العنكبوت تنسج خيوطها هذا النسج الدقيق .

وكان من تلك العناية أن أعمى الله بصيرة المشركين ، فلم يدركوا من أمره — صلى الله عليه وسلم — شيئا ، مع أنه كان فى موقع أنظارهم ، وكان « أبوبكر » كلما اشتد به الخوف وزاد عليه الهلع والفزع ، قال له صاحبه : (لاتحزن إن الله معنا) .

وقد دلت تلك المخاطرة التى أقدم عليها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حينما كان لابد له أن ينأى عن تلك الوجوه الكالحة ،

ويباعد مابينه وبين تلك النفوس الخبيثة ، على أنه كان مطمئنا كل الاطمئنان إلى أن أعداءه لايستطيعون أن ينالوا منه ، ولا أن يظفروا به ، ولا أن ينتصروا عليه ، وإلا لكان همُّه أن يهرب وكفى ، أو أن ينجو فحسب ، ولكننا رأيناه يخرج بليل ثم يعود بالنهار ، ورأيناه يحثو فى وجوههم التراب ، غير مبال بما يستهدف له من انتقامهم ، أو مايتعرض له من سخطهم ! ! .

وفى كتب التاريخ : أنهم بعد أن أصابهم هذا الحادث بدُوَارٍ فى رؤوسهم ، رصدوا جائزة معرية لمن يجئ بخبر « محمد » — حيًّا أو ميتا — أو من يدلهم على الطريق الذى سلكه ، والجهة التى انْتَهَى إليها ، وكانت تلك الجائزة مائة بعير ، وهى نصاب من المال لا يعدم أن يرفع الذى يحرزه من ذات الصدع إلى ذات الرجع ، لذلك تقدم « سراقة بن مالك » المدلجى الكنانى لهذه المهمة ، وقال لهم : « أنا ضمين لكم بذلك » وهنالك ركب فرسه إلى حيث سار « محمد »

و «أبوبكر» على الرغم من أنهما سلكا طريقاً مهجورا ،لايعرفه أحد ، ولا يمشى فيه إنسان ، وكان السبب فى ترك المسافرين له ، وعدم خطوره لهم ببال ، أنه غير ممهّد ، ولا قريب المسافة ، وماكان لسراقة أن يعرفه لولا أنه سمع رجلا يغنى بهذا البيت . .

جزى الله رب الناس خير جزائه
رفيقين حلّا خيمتى أم معبد

فأخذ يتقصّى منه خبر هذين الرفيقين ، وماذا عساه أن يكون لهما من نبإ ، حمل الشاعر على أن يسجله ، وجعل ذلك وغيره من الناس يتناقلونه ، والناس إنما يتناقلون الطريف من الحوادث ، أو الغريب من الأخبار .

ولابد أن يكون الفضول قد دفع غير «سراقة» أن يسأل لكن «سراقة» كان أسرع من سواه ، وطار إلى القوم ، ثم ركب إلى حيث يمر بخيمة «أم معبد» ، وربما سألها — كما سألتها قريش بعد — وعرف أن رجلين أضناهما الجوع ، وأنهكهما المسير ، وأعياهما التعب ، قدما إلى خيمتها يعدألانها

طعاما أو شرابا ولم يكن عندها شيء من الزاد أو الماء ، ولم يكن بخيمتها غير شاة هزيلة كان ضرعها من الهزال والجوع لم يدر قطرة واحدة من اللبن منذ زمن بعيد ، وأن أحد هذين الرجلين طلب الشاة فقرأ على ضرعها بعض الأدعية ، ثم احتلبها فحلبت ، فشرب هو وصاحبه ، وأعطى بقية الذى حلبه لصاحبة الخيمة . . وارتحل الرجلان وخلّفا وراءهما هذا الحديث المروى .

ولم يشك « سراقة » فى أن يكون هذان الرجلان « محمدا وأبابكر » الذى يصاحبه فى كل شيء

فى الطريق إلى المدينة

على الرغم من أن الطريق الذى سلكه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن مألوفا للمسافر إلى المدينة ، ولا معروفا للقوافل التجارة ، التى كانت تنتقل من هنا وهنالك ، فقد كان حادث خيمة « أم معبد » هو المفتاح الأول فى أن يضع «سراقة» يده على الخيط الموصل ،

لكنه لم يكن وصولاً ساراً ، ولا هداية نافعة ، إذ أن فرسه لم تكد تصل به إلى حيث كان « محمد وأبو بكر » حتى ساخت قوائمها فى التراب ، وتوقفت حركتها ، وكأنما أصابها ذهول ، أو اعتراها شىء لا تدرى ماهو ، فظلت مكانها لا تحاول أن تغادره إلى الأمام ولا إلى الوراء ، ثم بعد غيبوبة طويلة عن الوجود انتزعت قوائمها بعنف انفجر له مكان تلك القوائم بصوت مزعج ، وحركة مخيفة ، ذهل لها « سراقة » ، ولم يسعه إلا أن يطلب الأمان من « محمد » فأمّنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن يتأخر

فى الرجوع إلى قريش ريثما تكون الرحلة قد انتهت ، أو قاربت الانتهاء حتى لايستطيعوا أن يدركوه .

وقد طلب « سراقة » كتابا يثبت وصوله إلى الضالة المنشودة وحصوله على الغرض المطلوب ، رجاء أن يكون شفيعا له فى استحقاق الجائزة المرصودة ، فرغب النبي إلى « أبي بكر » أن يكتب لسراقة هذا الكتاب فكتبه ، ومضى « سراقة » إلى قريش ليخبرهم خبره ، فظنوه يتوهم أو يتخيل ، إلا أنه بعد أن أطلعهم على الكتاب الذى كتبه « أبو بكر » بيده أطمأنوا إلى صدقه ، وأذعنوا لقوله ، ثم عاتبوه على البطء فى العودة الذى حال بينهم وبين إدراكه والحيلولة بينه وبين دخول المدينة ، فاعتذر بوعورة الطريق ، والتواء المسالك ، والخوف الذى يكتنف المسافر ، ولم يخبرهم عن السبب الذى حمله على التأخير ، حتى لايتهموه بمجاملة « محمد » ، أو العمل على مرضاته ، لأنه وهب له حياته ، وكان فى استطاعته أن يأخذه بذنبه ، أو يقوده أسيرا .

وعلى كل حال فقد كان يُهَوِّن المسافة التى كان طولها مملاً بغيضا ، أن « أبا بكر » وهو العالم بأنساب العرب وأخبارهم ،

كان يقص من التاريخ ، ويروى من حوادث الأيام ، مايطرد الهم، ويشيع المرح والأنس فى نفس النبي — صلى الله عليه وسلم — فلا يحس تعبا ، ولا يشعر بألم ، ولايدركه إعياء ولافتور .

ومع ماكانت عليه تلك الرحلة من المشقة التى ظل محمد صلى الله عليه وسلم يعانيها هو وأبو بكر ، فإنها كانت مشقة حبيبة إلى نفسيهما ، سهلة الوقع عليهما ، لإحساسهما العميق بأن المدينة سوف تكون الدار الطيبة ، والبيئة الصالحة ، والتربة الخصبة ، والوطن العزيز الذى تجد الدعوة فيه من الازدهار والكمال ، والثبات والاستقرار ، ماكانت تتوق إليه فلا تجده ، وتتطلع إليه فلا تكاد تقرب منه ...

وقد كان من العوامل المهمة فى الاستهانة بالمتاعب عامل آخر لايصح إغفاله فى تاريخ الهجرة ، والحديث عنها ،وهو أن «محمدا» — صلى الله عليه وسلم — فى كل خطوة يخطرها ، وفى كل مكان يمر به ، كانت تتفتح له قلوب الناس ، وتترامى بين يديه أفئدتهم ، وتحفه من كل جانب ضمائر تتأجج بنار الشوق ، وتشتعل

بلهيب الحب ، وتخف من مكانها لاستقباله والحفاوة به ، وتطلب منه أن يعرج عليها ، وينزل بين ظهرانيها . . .

ولم يكد يصل إلى « قباء » — وبينها وبين المدينة ثلاثة أميال — حتى وجد أهلها صفوفا على الطريق يتشوّقون إليه . ويتلهفون عليه ، ويرجون رجاءً حارًّا أن ينزل فى رحابهم ، ويقيم بينهم ، وكان ذلك فى الضحى ، والشمس تلفح بنارها الوجوه ، ولايقوى على استقبالها ، والصبر على لذعها القوى ، إلا من يتناسى أذاها وألمها فى سبيل حاجته الملحة ، وهدفه النبيل ، وغرضه الأسمى ، وكان على رأس أهل « قباء » أشرافهم ، ورؤساؤهم من بنى « عمرو بن عوف » .

وكان فى هذا الوقت نفسه ينتظر هذا الانتظار ، ويترقب هذا الترقب ، ويصطف على جوانب الطرق أهل المدينة من لدن طلوع الشمس إلى غروبها ، إلا أنه آثر أن يستريح فى « قباء » وأن يبنى فيها مسجدًا تقام فيه الصلوات ، وكان هذا المسجد أول مسجد فى الإسلام أعلن فيه المسلمون عبادتهم ، ثم اجتمعت كلمتهم على نصرة الرسول ، ورفع راية الإسلام ، والجهاد الحق فى سبيل

الله » وهو ذلك المسجد الذى امتدحه الله إذ يذم غيره حين يقول فى سورة التوبة : (والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقا بين المسلمين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلاّ الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون لاتقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطّهّرين) وهو هذا الذى أسس على التقوى من أول يوم .. وأهله هم هؤلاء الذين يصفهم « القرآن » بأنهم يحبون أن يتطهروا ،

وإذا تحدث المؤرخون عن بنائه — صلى الله عليه وسلم — لهذا المسجد ، وأنه خطب بالناس هنالك خطبة الجمعة ، وصلى بالناس ، وفهمنا نحن أنه كان بناء على الطريقة المألوفة باللبن أو الحجارة ، اعتمادًا على أن المدة التى أقامها بقباء كانت ثلاثة أيام وهى لاتتسع للبناء بمعناه الواسع ، فإنه كان — على كل حال — رمزا للانتقال بالدين من مرحلة العقيدة والإيمان ، إلى مرحلة العمل ، وهى المرحلة التى كانت المدينة السبب الأصيل فى وجودها ، ولولا

الهجرة إليها ، لما ظفر الإسلام بهذا الغنم إلا بعد عنف عنيف ، وجهد شاق .

أما المسجد الثانى بعد مسجد « قباء » هذه فقد كان بالمدينة — وهو المسمّى بالحرم المدنى — ومن حديثه الرائع أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — لما دخل المدينة بين تهليل أهلها وفرحهم ، كانوا يتنازعون زمام ناقته ليأخذوها إلى حيث ينزل ضيفاً عليهم ، وكان كلما انتزع أحد زمامها ، يقول لهم الرسول : (خلوا زمامها فإنها مأمورة) ثم لايزالون .. كذلك —ولايصرفهم النبى إلا بهذه الكلمة ، حتى مع أخوال جده «عبدالمطلب » — بنى النجار — الذين مات أبوه عندهم ، وفى حين أن طمعهم فى نزوله كان شديداً لتلك القرابة القريبة بينهم وبينه : فإنه قال لهم كذلك : (خلوا زمامها فإنها مأمورة) .

وأنهى أمر تلك المأمورة بأن بركت على مقربة من دار «أبى أيوب الأنصارى » ، ثم قامت فبركت على باب دار «أبى أيوب الأنصارى » ، ثم قامت وعادت ثانية إلى موضعها الأول :

وكان تفسيرذلك أن المكان الأول هو مكان المسجد ، والمكان الثانى هو مكان ضيافته — صلى الله عليه وسلم — فإن «أبا أيوب» حمل رحله ونزل به عنده ، وكان له شرف تلك الضيافة دون أهل المدينة .

وكان من طريف مايروى عن تلك الضيافة أن دار «أبى أيوب» كانت ذات طابقين اثنين ، فاختار النبى الطابق الأول ، وألح «أبو أيوب» أن يختار — صلى الله عليه وسلم — الطابق الثانى رفعاً لشأنه ، وتكريماً لأمره ، ولم يكف عن إلحاحه فى ذلك إلا بعد أن أقنعه الرسول أن زواره كثيرون .

فى المدينة

وصل – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة ومعه المسلمون ، وكلهم خاوى الوفاض ، بادى الإنفاض – كما يقول الحريرى فى المقامات – وما منهم إلا من له فى مكة ابن أو أب أو أخ أو زوجة أو أم أو أخت أو إنسان عزيز عليه أن يفارقه ، أو يرى نفسه بعيداً عنه ، إلى جانب أنهم لا يملكون زاداً يتبلغون به ، ولا ماء يشربونه ، ولا داراً يأوون إليها .

والفقر إذا ماتناول الناس فى ناحية من هذه النواحى كان هو الموت الأحمر ، ولكنه القدر القاسى يأبى إلا أن يضيف إلى مرارة الاغتراب وفراق الأهل والأصحاب مرارة الحاجة الشديدة ، والبؤس المحقق ...

والمسلمون فى المدينة إن اتسعت صدورهم ودورهم لضيافة النازلين عليهم لاتتسع أموالهم وأرزاقهم ، وإن كانوا يؤثرونهم على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، لهذا كان النبى – صلى الله عليه وسلم – يهتم

كل الاهتمام بأن يأخذ كل واحد من المهاجرين فى عمل يكسب منه قوته حتى لايكون عالة على أخيه من الأنصار ، على الرغم من أن الأنصار لم يتركوا بابا من أبواب البر بإخوانهم إلا ولجوه عليهم ، وفتحوه لهم ، ليشعروا أنهم لم تنأ بهم الدار ، أو تنقطع بهم الأسباب ، أو توصد فى وجوههم السبل ، أو تقتر عليهم الأرزاق . . .

ولم يمض وقت طويل على هذه التجربة المريرة التى مر بها المهاجرون حينئذ إلا وهم لا يقلون فى ثرائهم ، وكثرة أموالهم ، وانتعاشهم الاقتصادى ، عن السكان الأصليين — فى المدينة — من المسلمين وغيرهم ، وكانت أروع صورة أعلنها رجل من المهاجرين فى هذا الوقت تلك التى أعطاها من نفسه عبد الرحمن بن عوف ، وقد أخذت المؤاخاة والامتزاج والشركة بين الفريقين ، من المكيين والمدنيين تتحكم أواصرها ، وتسود أسبابها ، إذ آخى النبى — صلى الله عليه وسلم — بينه وبين «سعد بن الربيع» الأنصارى ، وقد عرض «سعد» عليه أن يقاسمه أهله وأمواله فأبى ذلك وقال له : «بارك الله لك فى أهلك وأموالك ، دلنى على السوق» فدله على السوق وكان يتجر فى الأقط والسمن ، ثم مالبث أن

كان من الأغنياء ، وكان من أكثر المسلمين بذلاً فى سبيل الله إلى درجة أنه ساهم فى تجهيز جيش العسرة أعظم المساهمة .

وهكذا يخبر التاريخ عن المهاجرين أنهم لم يكونوا مثالاً من أمثلة البطالة والتواكل والعجز والاستجداء ولكنهم اشتغلوا بالتجارة والزراعة وفرضوا أنفسهم على المجتمع الجديد سادة لاسوقة ! ..

ومن المعروف فى هذه الآونة أن « محمداً » — صلى الله عليه وسلم — جعل بعد وصوله إلى المدينة بئراً اشتراها المسلمون من يهودى بأربعين ألف درهم ، ليكون الانتفاع بمائها لجميع المسلمين ، حتى لايتمعر المهاجرون أنهم دخلاء أو غرباء ،لكن هذا كله لايعنى أن النبىّ ومن كان معه من أهل مكة اطمأنت ضمائرهم كل الاطمئنان فى بلد ، هم وافدون عليه ، نازحون إليه ، تعاودهم مابين آونة وأخرى فكرة أنهم قد انتهت بهم المطاردة عنده ، وأن حياتهم هنالك ليس فيها من الاستقرار والاطمئنان مايحملهم على الرضا بالأمر الواقع أو ينسيهم بلداً فيه البيت الذى جعله الله للناس مثابةً وأمنا ، وهم فى المدينة لايعدو حالهم أن يكون أشبه بحال المسافر الذى ينتظر الأوبة ، ويرجو لقاء أهله وعشيرته ، حتى رسول الله — صلى الله

عليه وسلم – الذى كان يظهر حنينه ، ويبدى تشوقه ولهفه ، وإن كان بنى المسجد وبنى بيوت زوجاته لاصقةً به ، ليغرس فى فى قلوب الذين هاجروا معه الحبَّ لهذا الوطن الجديد ، والاطمئنان إليه ، وارضائه «وكل مكان ينبت العز طيب» ! . . .

وقد أخذت جذور الدعوة الإسلامية تمتد وتتمكن ، وشرع الله الأذان والصلاة والصيام والزكاة ، وبين معالم كثيرة مما يتعلق بالحلال والحرام ، وكان للمؤاخاة التى ربط بها النبى – صلى الله عليه وسلم – بين المهاجرين والأنصار ، والمعاهدة التى جمعت بين اليهود والمسلمين ، الأثر البالغ فى تكوين جماعة من شأنها أن تجعل قريشاً فى مكة تخشى بأس المسلمين ، وتخاف أن تحدثهم نفوسهم بإعلانهم الحرب عليهم ، وغزوهم فى عقر دارهم ، انتقاماً لأموالهم المسلوبة ، وأهليهم المعذبين ، ودينهم المضطهد ، وحريتهم المحاربة ، وكرامتهم المضيعة . لذلك أخذت حمى الخوف والهلع ، والجزع والفزع ، تسرى فى أفئدة طواغيت الشرك هنالك ، مما عساه أن يلحق بهم ، أو يطرأ عليهم ، فلم يكن لهم شاغل وراء الاستعداد للإجهاز على تلك الدولة التى يؤسسها «محمد» .. صلى الله عليه

وسلم — فى المدينة ، لهذا كانت لاتفتأ تتحسس أخباره ، وتحاول أن تعرف تحركاته ونواياه ، وتبذل لذلك كله ماتبذل لترى إلى أى مدى تبلغ قوته إذا هى حاربته ، أو خرجت لملاقاته وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كذلك - يتتبع أخبارهم ، ويعرف مايبيتون له ، وكان عمه «العباس» هنالك يكتب له تحركاتهم وشرورهم التى يضمرونها .

وكان التشريع السماوى ، والأدب النبوى ، يسيران جنباً إلى جنب ، فى تكوين الوحدة الإسلامية ، والمبادىء الإنسانية ، والأخلاق النبيلة ، لتتلاقى القلوب ، ويجتمع الشمل ، وتذوب الفوارق وتسود المحبة ، وينسى كل إنسان عصبيته لأهله وذويه ، أمام دينه الذى كان له منه نسب وصهر .

وليست هذه المعانى بالأمر اليسير فى نظر مشركى «مكة» الذين كانوا يشغلون أنفسهم بمحمد والمسلمين معه ، فقد كان الصراع فى أفئدتهم على أشده من جراء هذا الزحف الذى يجىء به

الغد المنتظر ، على الرغم من علمهم الذى لاشك فيه أن عناصر أخرى تشاركهم عداوة هذا الدين الذى يدعو به «محمد» وأصحابه ، لكن قريشا كانت على يقين أن هذه العناصر لاتلبث أن تصير هباء ، إذا هبت عليها الريح العاصف من غضبة أولئك الذين عاهدوا «محمدا» على أن يقفوا بجانبه ويدافعوا عنه ، ويردوا كيد المشركين إلى وجوههم إن حدثتهم نفوسهم أن ينالوا منه أو يلحقوا به شيئا من الأذى والهوان .

عنت اليهود

كان النبي – صلى الله عليه وسلم – قد طَمْأَنَ اليهود على مستقبلهم وحريتهم وكرامتهم ، وأفهمهم أنه سوف لايتعرض لعقائدهم وعباداتهم ، وأنهم سيكونون – معه – فى تقديرهم واحترام ملكيتهم وحق تنقلهم وتصرفاتهم فى أموالهم وطقوسهم كالمسلمين . والمعاهدة التى وقعها وإياهم تضمن لهم هذه المعانى كلها . لايخيس فيها ، ولا ينحرف عنها ، ولا تحدثه نفسه بنقضها أو الخروج عليها ،

لكن البوادر التى كانت تبدو فى المناسبة تلو المناسبة تدل دلالة لاتقبل الريب والشك ، على أن نفوسهم تغلى بالحقد ، وجوانحهم تتأجج بالكراهية ، وأنهم يستعدون لجوله مفضوحة ، (قدبدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر) .

ويقول أساتذة التاريخ الإسلامى : إنهم كانوا يطمعون أن يسيطروا على «محمد» – صلى الله عليه وسلم – ويسخروه للدعوة لليهودية – كما يفهمونها – لتظل لهم السيادة ، على أن يكونهو

فى دولتهم أشبه بالجندى المجهول فى صفوفهم ، لايتحرك إلابإرادتهم ، ولا يدعو إلا بمايرسمونه له من المبادىء والآداب ، والدساتير والنظم ، فلما رأوا أنه لايملك من أمر نفسه شيئا ، وأن حركته وسكونه ، وقوله وفعله ، وتوجيهه وإرشاده ، وهديه وتعاليمه ، وأوامره ونواهيه ، إنما يتلقاها من السماء ، ويأخذها عن رب « موسى » و « عيسى » والأنبياء من قبلها ، وأنه ماض فى خطة هو فيها مسخر لامُخَيَّر (وما ينطق عن الهوى) لاتحركه شهواته ، ولا يدفعه طموحه ، أخذوا ينفضون أيديهم من الآمال التى عقدوها على طيه فى أيديهم ، ووضعه فى جيوبهم ، وتملكهم لزمامه ، وحينئذ بدت الأحقاد والضغائن . . .

على أن اليهود إلى جانب ذلك كانوا فى المدينة رجال أعمال ومال ، يحتكرون الأسواق ، ويحذقون أساليب الربح ؛ ويتقنون فنون التجارة ، ويحولون التراب إلى ذهب ، والمهاجرون من مكة زاحموهم فى الأسواق ، ونافسوهم فى التجارة ، وضيقوا عليهم مجال العمل ، فلم يعدلهم من الربح والاستغلال والاحتكار مثل الذى كان لهم من قبل ، وهم الذين يجعلون المال إلههم من

دون الله ، لذلك ضاقوا ذرعا بمحمد وأصحابه لأنهم عكروا صفو حياتهم ، ونغّصوا عليهم العيش الذى كانوا يتمتعون به . . . ومن وراء هذا وهذا كان «عبدالله بن أُبَيّ بن سلول » على وشك أن يراه الناس :

يلمع التاج فوق هامته على جبين كأنه الذهب

لأن اليهود كانوا يعدون العدة لتتويجه ملكا عليهم — وإن لم يكن يهوديا — فقد كان عميلا لهم ، يعيش بعواطفهم ، ويجعل نفسه ذيلاً فى وَخْرتهم ، فلما أشرق على المدينة نور الرسالة ، وسطعت شمس الهداية ، ذهبت تلك السحب ، وزال هذا الضباب ، وخابت ظنون وأحلام أوحت بها الأمانى الكاذبة ، والأوهام الباطلة ، .

وقد حدث أنه — صلى الله عليه وسلم — كان ذاهبا لزيارة «سعد بن عبادة » الخزرجي الأنصارى لمرضه وفى طريقه إلى بيت «سعد » رأى جمعا فيهم «ابن أبى » — ويظهر أنه كان لايزال على الكفر — ورأى النبي أن يسلم عليهم وأن يتحدث إليهم ، وكان فى حديثه شىء من الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، والأمر

والنهى ، والحلال والحرام ، فما كان من « ابن أبي » إلا أن قال له : هذا كلام تبذله لمن يطلبه ، وتذيعه لمن يتشوف إليه ، وتجلس فى بيتك لتقوله لمن يفد عليك ، لأنك تؤذى به الأحاسيس ، وتثير به العواطف ، وتهيج به حفائظ الناس ، ولما انتهى الرسول إلى بيت « سعد » وسلم عليه رأى فى وجهه الألم وعدم الارتياح ، فقال له : أرى فى وجهك يارسول الله تغيرًا ينبئ عن غضب لأمر لم يصادف منك رضًا وارتياحا ، فأخبره الرسول الخبر ، فقال له سعد : اعذره يارسول الله ، لأنك جئت إلينا ونحن ننظم له الخرز لنتوجه علينا ، وكان مجيئك تبديداً لأحلامه ، وخيبة لظنونه ، وضياعا لما كان يرجوه ، ولهذا كان الدور الذى قام به « عبد الله بن أبي » — رأس المنافقين — من الكيد للإسلام ، وإشعال نيران الفتنة فى كل مناسبة ، وإقامة العقبات والعراقيل فى وجه الدعوة ، لايستهان به فى رأى المنصفين من علماء السيرة النبوية ، وربما كان هو وحده وراء التمرد الذى كان صلى الله عليه وسلم يقاومه فى صفوف المنافقين تارة ، ويقاومه فى صفوف اليهود مرة أخرى ! . . .

وفى هذه الآونة كان المسلمون يصلون إلى بيت المقدس ، وكان هذا ذريعة لأن يُعَيِّر اليهود «محمدا» وأصحابه أنهم يستقبلون قبلتهم ولا يتبعون شريعتهم ، وكان لهذا القول وقعه السيئ على نفس «محمد» وأصحابه ، فهو لذلك يترقب بفارغ الصبر أن يحول الله وجهه إلى البيت الحرام بمكة الذى تهفو إليه مشاعره ، ويرتبط به وجدانه ، وكان لشدة طمعه فى أن يحقق الله له هذا الرجاء يتطلع بوجهه إلى السماء ترقبا للوحى الذى ينزل عليه ، وهنالك نزلت الآية : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) وبذلك اطمأن خاطره ، واستراح قلبه . وانقطعت قالة اليهود ، وأصبحوا يفكرون فى أشياء أخرى جديدة يبلبلون بها الأفئدة ، ويشككون بها الناس ، وينغصون بها الصفو على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول الدكتور «هيكل» فى كتابه «حياة محمد» : «وهنا بدأت حرب جدل بين محمد واليهود أشد لددا ، وأكبر مكرا ، من حرب الجدل التى كانت بينه وبين قريش بمكة ، وفى هذه الحرب تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين ، جمعتها اليهود

صفوفها متراصة يها جمون بها محمدا ورسالته ، وأصحابه المهاجرين والأنصار ، ودسوا من أحبارهم من أظهر إسلامه ، وجلس بين المسلمين باديا فى غاية الورع والتقوى ، ثم لم يلبث الحين بعد الحين أن يعلن من الشكوك والريب ، ويلقى على محمد من الأسئلة مايحسبه يزعزع فى نفس المسلمين عقيدتهم به ، ورسالة الحق التى يدعو إليها ، وانضم إلى اليهود .- فى ذلك كله — جماعةٌ من الأوس والخزرج الذين أسلموا نفاقا ، وبلغ من تعنتهم — اليهود — أن كانوا ينكرون مافى التوراة ، ويسألون محمدا : إذا كان الله قدخلق الخلق فمن خلق الله ؟ وفطن المسلمون لأمر خصومهم ، وعرفوا غاية سعيهم » .

والنبى — صلى الله عليه وسلم — كان فى غاية الحرج مع المنافقين ، لأنهم — فى الغالب — كانوا ن أهل المدينة ولقرابتهم وأهليهم عنده حق الرعاية والاحترام ، وليس من الكياسة أن يغضبهم ، وأن يحول موقفهم معه إلى موقف العدو اللدود ، فيكثر بذلك خصومه الذين يناوئونه ، لهذا كان يعاملهم برفق ، ويكل أمرهم إلى ذويهم ، وقد أراد «عمر بن الخطاب» — رضى الله عنه — أن يفتك

بعبدالله بن أُبى بن سلول ، فمنعه الرسول وقال له : (أترضى أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه) وكان لعبد الله بن أُبى ولد من من خيار صحابة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يدعى « عبدالله » — أيضا — فاستأذن الرسول أن يقتل أباه بيده حتى لاتأخذه الغيرة على قاتله فيقتله ويرتكب حراما ، فقال له رسول الله : (لا تقتله ولا يقتله سواك) .

وكان من الحزم القضاء على أصل الداء — اليهود — الذين مكّنوا للنفاق فى المجتمع الإسلامى .

بعد الاستقرار

انتهى المطاف بالنبي — صلى الله عليه وسلم — والمسلمين معه بالمدينة ، واستقبلهم أهلها بالهشاشة والبشاشة ، والسرور والرضا ، والارتياح والاطمئنان ، واتجه كل واحد من المهاجرين إلى العمل الذى يناسبه من التجارة أو الزراعة ، ليحصل على لقمة العيش التى تمسك أوده ، وتقيم صلبه ، فلا يكون عالة على غيره ، ولا عبئا على سواه ، إلا أن الأمر لم يكن لينتهى إلى هذا الحد فيرضى كل منهم الرضا كله ، ويستريح الراحة التى لايشكو بعدها أينا ولا تعبا ، وبخاصة الرسول الكريم الذى يخطط لحياة طويلة ، وسياسة دائمة ، ودولة يستطيع بها أن يكبح جماح الظلم ، ويصد طغيان الكفر ، ويقضى على فساد الحكم ، وفوضى السلوك والأخلاق .

وفى مكة التى هاجر من وجه أهلها لايزال بها الخطر الذى يتحين له فرصة الإيلام والإيذاء ، والجبروت والتعدى — والمطاردة والقهر ، والقضاء على دعوته ، والإجهاز على من

يقفون معه ، أو يؤمنون به ، وكذلك كان الحال فى المدينة التى ظن أنه سيجد فيها جوًّا أنقى ، وحالاً أهدأ ، لكنه واجه اليهود بها يضمرون الشر ، ويكتمون العداوة ، ويُلهبون فى قلوب المنافقين نيران البغضاء ، ويرسمون لهم خطوط التمرد والعصيان ، وإشاعة التفكك فى صفوف المسلمين ، حتى لاتقوى لمحمد شوكة ، ولا تقوم للإسلام دولة ، وينتهى الحال بهجرة أخرى من المدينة . كالهجرة التى كانت من مكة ، وقد راوَدَ هذا الحلم أفكار بعض اليهود فقالوا للنبى – صلى الله عليه وسلم – لماذا لم تهاجر إلى «بيت المقدس» كما فعل الأنبياء والمرسلون من قبل ؟

ومن أجل هذا كله فالنبى صلى الله عليه وسلم – كان فى المدينة على حال لايحسد عليها وقد حمله هذا على أن يلتزم المبدأ القائل : «اطلب الموت توهب لك الحياة» وطلبه الموت كان ممثلا فى تلك الخطة التى سار عليها :

أراد أن يُفهم قريشاً أنه لايصح لها أن تستمر على موقف القوة الذى تقفه منه فتعامله معاملة الضعيف الفار من وجهها ، الهارب من عدوانها الناجى بدينه منها ، فتظل على تفكيرها فى قتله أو الظفر به ،

ولم يجد وسيلة لذلك أحسن من أن يرسل السرايا من المسلمين لتقطع عليهم طريق التجارة إلى الشام ، ولتشيع هنالك الفزع والخوف ، فلايجرؤ أحد على اقتحامه ، أو السير منه إلا بقوة مدججة بالسلاح ، وحينئذ يحسبون حساب الحركة والانتقال ، أو يتحولون بتجارتهم إلى طريق آخر أكثر مشقة ، وأبعد مدى ، وفى هذا تعطيل رحلاتهم ، وكساد لتجارتهم ، وإيلام لنفوسهم ، وإثارة لحفيظتهم ، وأكد النبى — صلى الله عليه وسلم —بالأحلاف التى ربط بها بينه وبين القبائل والأقوام المختلفة التى تستوطن هذا الطريق ، ذلك المعنى الذى قصد به حرب العصابات التى تشنها جماعاته على قوافل التجارة ، وكان الهدف الذى يرمى إليه أن تفكر قريش فى تسوية حسابها معه — كمايقولون — لتعقد معه معاهدة عدم اعتداء يستطيع المسلمون فى مكة فى ظلها أن يعيشوا فى سلامة من شرهم ، وبعد عن إيذائهم . . ويترتب على ذلك أن المنافقين واليهود فى المدينة يكفون عن نوايا السوء التى يضمرونها ، والخطط الخبيثة التى يرسمونها ، ولم تمض عامان كاملان على اغترابه فى المدينة حتى كان فى استطاعته

أن يلتقى بهم وجها لوجه ملاقاة الند للند ، وكان له جيش يستطيع به أن يتهدد بقاءهم ، ويشرد جموعهم ، ويشيع فى صفوفهم الهلع والرعب ! .

وبعد ثمانية أشهرفقط من إقامته بالمدينة بعث بعمه «حمزة بن عبد المطلب » فى ثلاثين راكبا من المهاجرين فالتقوا بأبى جهل بن هشام فى ثلاثمائة من أهل مكة ، وكان «حمزة » هو وجماعته على استعداد لقتلهم لولا أن حجز بينهم جهنى كان موادعاً للطرفين .

وسار « عبيدة بن الحارث » عقب هذه المسيرة فى ستين راكبا ليقطعوا الطريق على «أبى سفيان» ومائتين كانوا معه ، وقد انسحب أبو سفيان ومن كان معه وخرج كذلك «سعد بن أبى وقاص » فى ثمانية .

وهكذا خروج يتبعه آخر وآخر ، إلى أن أصبحت قريش تفكر تفكيرًا جادًا فى سلامة تجارتها ، وأمن طريقها ، وبخاصة وقد رأوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخرج بنفسه لملاقاة «أمية بن خلف » ، وملاقاة «أبى سفيان »

ويقول بعض كتاب السيرة : إنه كان صلى الله عليه وسلم لاينتدب لهذه العملية إلا المهاجرين ، بحجة أنهم هم المعتدى عليهم من أهـــل مكة الذين غنموا أموالهم . واغتصبوا حقوقهم ، وخربوا ديارهم ، وأوقعوا الأذى بأهاليهم وإلى جانب ذلك فربما كان فى هذه القوافل بعض من يربطهم بهم دم أوقرابة ، فيحول ذلك بين قتالهم وإزهاق أرواحهم ، ويثير فيما بينهم عاطفة النسب ، وروح الاتصال ، ووشائج الارتباط ، وعلى كل حال فقد كان هذا الموقف ضروريًا ، لأنه على الأقل منع قريشا من مواصلة عدوانها ، و حملها على أن تحسب للمسلمين بالمدينة — من المهاجرين وغيرهم — ألف حساب .

ثم تنتهى إحدى السرايا إلى نهاية تُثير بعض النفوس ، وتقف المسلمين موقف النقد ، وإن كان نقدًا لاقيمة له ويرجع ذلك إلى أن « عبدالله بن جحش الأسدى » بعثه النبيُّ — صلى الله عليه وسلم — فى رجب من السنة الثانية للهجرة ومعه جماعة من المهاجرين لينزل بنخلة بين مكة والطائف ليترصَّدَ أخبار قريش ، لكنه لم يكتف بهذا التخطيط الذى رسمه له الرسول ،

وإنما انتهى به الأمر إلى أخذ عِير بما تحمله من عروض التجارة المختلفة ، وقتل «عمرو بن الحضرمى» الذى كان يقودها هو وجماعة كانت معه ، وقد جاء إلى النبى بتلك العير وأسيرين ، وكان هذا الحدث الذى أحدثه «عبدالله بن جحش» مثار أحاديث رددها المشركون والمنافقون على السواء ، كلها كانت لمزا جارحا ، وطعناً حقيرا ، ورمياً للرسول — صلى الله عليه وسلم — بأنه لم يحترم الأشهر الحرم ، التى كانت لها قداستها عند الناس منذ الجاهلية . لم يسفكوا فيها دما ، ولم يعتدوا على على حرمة من الحرمات . . وقد أخذ بعض من تعطفهم العواطف على «عبد الله» يلتمسون له العذر ، ويصححون له الوضع ، وقال فريق منهم : إن القتل كان فى غرة شعبان حيث كانت اللحظات الأخيرة من رجب قد تصرمت .

وأثار ذلك القول الرسول نفسه — بعد أن وصل إلى أذنيه دوىّ المرجفين — فأبدى غضبه من «عبد الله بن جحش»

وقال له : (لم آمرك بقتال ، ولا بسفك دم) ، ولما حمى وطيس هذه الفتنة ، واتخذها المشركون والمنافقون ذريعة للطعن والتشويش ، نزل قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ؟ قُلْ : قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ ، وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ وإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ، وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ ، وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا) يستعرض سلوكهم السيء ، وتاريخهم الأسود ، وماضيهم الملوث ، ومواقفهم المرذولة ، وكأن هذا الخطأ الذى ارتكبه « عبدالله » لايساوى شيئاً إلى جانب صدهم عن دين الله ، ومحاربتهم للحق ، وانحرافهم عن الجادة ، والتوائهم عن الصراط السوى ، وكأنما كان ذلك المنطق الذى سمعوه ، والأسلوب الذى جوبهوا به ، بمثابة الصواعق تصيب أفئدتهم ونفوسهم ، وتنزل على رؤوسهم ، لأن من أحمق الحمق ، وأكبر الكبائر ، أن يرى الرجل القذى فى عين أخيه ، ثم لايرى الجذع فى عين نفسه ! ! .

شبهة ندفعها

ربما ظن بعض الناس من تلك السرايا التى كان يرسلها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من جماعة المهاجرين ، الواحدة تلو الأخرى مكوّنة من هذا العدد الضئيل لتقطع الطريق على المسافرين من قريش إلى الشام أو الآيبين منها من أجل تجارتهم التى كانت الوسيلة الوحيدة لجلب أرزاقهم ، ونماء أموالهم ، ووفرة أقواتهم : أن هذه حرب عدوانية لايصح للداعية أو المصلح الاجتماعى أن يلتجئ إليها ، أو يجعلها معتمده فى نشر أفكاره ، وبث تعاليمه ، والإقناع بأنها الحق الصراح ، والرأى الصواب . . وقد بالغ قوم فى هذه الشبهة فزعموا : أن دين « محمد » — صلى الله عليه وسلم — انتشر بالسيف ، وتمكن بالعنف ، وارتفعت رايته بالقوة ، وأخذ به معتنقوه حين لم يجدوا بدًّا من الدخول فيه ، والإيمان به ، والوقوف إلى جانبه ، ليردوا عن أنفسهم طغيان القوة ، وجبروت السلطان ، وبطش الكثرة الكاثرة ، ممن وضعوا أرواحهم فى قبضة « محمد » ليرمى

بهم فى أتون المطامع ، ووقود الوغى ، تحقيقاً لمطامعه ، وانتصاراً لمبادئه ، وتأكيداً لطموحه فى السيادة والملك ، وهو قول إنما يقول به من يتجرّد من المنطق ، ويجافى الحق ، ويجانب الصواب ، ويناقش مناقشة الأطفال ، ويجادل بلغة المجانين ، ويزعم أن دعوة محمد كانت تسلطاً أو ملكاً أورياسة أو قيادة لجماعة من البشر يريد أن يسخرهم لمطامعه العدوانية ، وشهواته المسفة ، وكبريائه المصنوع ، كما كان الفراعين والقياصرة والأكاسرة الذين علوا فى الأرض بغير الحق ، فى حين أن دعوته هذه كانت : (فطرة الله التى فطر الناس عليها) لاتعاند الطبع ، ولا تخالف الذوق ، ولا تعارض التقدم ، ولا تقود الإنسان إلا إلى الصلاح والفلاح ، ولا يمكن للبشرية أن تسعد السعادة التامة دون أن تلتمس منها الرشد ، وتستمد منها الهداية ، وتجعل منها طب نفوسها ، وعلاج أمراضها .

ومع أنها كذلك فما صح أنه أرغم عليها أحداً ، أو ألجأ إليها إنساناً ، وكتابه الكريم ينادى بأعلى صوته بقوله : (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) وهو فى الوقت الذى يجعل

الأخذ بهذا الدين ، والإيمان به ، قائما على الاختيار لا الاضطرار ، يشرع للمسلم القتال دفاعاً عن عرضه أو ماله أو نفسه أو دينه .

وإذا نحن حققنا النظر فى تلك الحرب التى كانت تدير رحاها السرايا التى أشاعت الخوف فى الطريق إلى الشام أو منها ، وجدنا أنها لا تخلو من أن يكون الباعث عليها واحداً من هذه الأمور الأربعة ، التى جعلناها أسبابا واضحة تبرر التحام الجيوش فى ساحات القتال . . فأموالهم فى مكة قد اغتصبت ، ودينهم يناله الإيلام والإيذاء والمطاردة والصد ، ونفوسهم مهددة بالفناء ، فهم يقفون من كفار مكة الموقف الذى لابديل عنه ، ويساقون إلى حربهم بحكم الدفاع الذى لابد منه . . . وحينما انتهى قرار المسلمين بالمدينة واتخذوها الموطن الدائم كانت بحكم هذه الإقامة الدولة التى يحمون حوزتها ، ويدافعون عن حدودها ويرون من يغير عليها ، وتلك الطريق التى كانت تسلكها قريش ، وتنتهك حرمتها ، كانت فى حدودا للدولة ، وكان عليها لتمر منها أو تستخدمها لمصلحتها ـ أن تستأذن أصحاب السيادة عليها ، كما تقضى بذلك الأعراف الدولية .

على أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — ظل يكتفى منها بهذا النفر القليل الذى يثير الرعب ، ويشيع الفزع ، فلم يجعلها حربا بمعنى الكلمة ، يتخذ لها الأهبة ، ويوفر لها الاستعداد ، من الذخيرة والسلاح والرجال ، لأن القصد الأوّل كان تعرفها أخبار قريش وتحركاتها واستعدادها لمواصلة القضاء على المسلمين ، وكبت نشاطهم ، والحد من تحركهم ، واتساع نطاق دعوتهم .

والمنصفون من المؤرخين إنما يعيبون على المصلحين أو أصحاب الدعوات التقدمية الحرب الهجومية ، إذ هى التى يشتم منها القسر والقهر ، والإكراه والإلجاء ، والإلزام الذى لااختيار معه ، ولايدع مجالا للمنطق والتفكير ، والترجيح والموازنة ، كما يفعل الذين يذعنون للحق ، ويؤمنون بالصواب ، أماالحرب الدفاعية التى ترد العدوان ، وتصد الباطل ، وتذود شرور الاستبداد وطيش الرعونة ، وسفاهة الحمق ، فإنها مسلمة بالبدائه والفطر ، لا ينكرها عقل ، ولا يأباها ذوق ، ولم تكن حروب الإسلام فى يوم من الأيام هجوما ولابطشا ، وإنما كانت

لدفع الظلم ، ورد البغى ، وكبح جماح الباطل ، ويقول الاستاذ أحمد إبراهيم الشريف فى كتابه « الدولة الإسلامية » : « إن النبى لم يقم بحرب هجومية إطلاقا حتى فى أثناء المعارك الكبيرة التى وقعت بينه وبين قريش ، فإن موقعة « بدر » التى حدثت فى السنة الثانية للهجرة ، حدثت داخل حدود إقليم المدينة ، وعلى إثر تحدّى المكيين للنبى وتسييرهم قوافلهم بأراضى المدينة ممتهنين حق السيادة اليثربية ، فأبو سفيان حين مر بقافلته فى المنطقة اليثربية كان يتحدّى أهل يثرب بقوته ، ويستضئل شأن النبى ، ولهذا خرج النبى إليه ، وأراد أن يصادر هذه القافلة ، أو أن يحاربها ، وكان أمرها يشغله منذ خرجت من الشام ، حتى رأى فى منامه قبل أن تعود رؤيا تبشره بأن إحدى الطائفتين ستكون لهم ، والطائفة الأولى هى القافلة ، والطائفة الثانية هى قوات قريش التى كان من المحتمل أن تخرج لنجدتها ، ومنع النبى من مصادرتها . .

« ووقعة » أحد « فى السنة الثالثة وقعت فى جوار المدينة مباشرةً ، وعلى نحو ميلين منها ، وكان المكيون فيها مهاجمين يطالبون بثأر بدر ، ثم إن النبى خرج فى السنة الرابعة إلى

« بدر الثانية » لوعد بالحرب كان بينه وبين المكيين يوم أحد ، فلما كان العام الخامس وهو العام الذى وقعت فيه موقعة « الخندق » كان النبى مستقراً فى يثرب ، وعدوه هو الذى جاء إليه متحدّياً منتهكا لحقه فى السيادة ، كما كان الحال فى عام أحد ، وقد حرص حين فتح مكة أن يتفادى الاصطدام بالمكيين ، وكان فتحاً خلا من القتال بوجه عام ومع ذلك فإن النبى حرض على الجهاد ، ونزل القرآن الكريم بآيات كثيرة ترفع من شأن المجاهدين إلا أن الجهاد لم يكن يقصد به إلا الدفاع ، وإعزاز الدولة الإسلامية بحيث تعيش فى أمن عام وإتاحة الفرصة للمبادىء أن تسير حجة بحجة وبرهانا ببرهان ، دون أن تقف القوى المسلحة المادية فى طريقها فتصدها وتعطل من سيرها . . .

ومن هنا يتبين أن المسلمين لم يحملوا السيف ليرغموا غيرهم على الإسلام ، ولكن ليدافعوا عنه عدوان الكفر ، وجبروت الظلم ، وتسلط الجبّارين ، وتشويش المرجفين ، وعناد الحمقى ، وسفه المحرومين ، على أن دعوى الإكراه

والإرغام والإلجاء إذا صح فى هذه الآونة أن يرددها مدّع مغرض فهل يمكن أن يرددها الآن عاقل بعد أن أثبت التقدم الحضارى ، والنضوج الذهنى ، والازدهار العلمى ، أنه يغزو العقول والأفئدة ، وبعد أن اعترف فلاسفة الدنيا أنه الذى يجب أن تأخذ الإنسانية بتعالمه لأنه الدين الذى لاتنهض بسواه ، ولا يصلح حالها إلا به .

ويقول الدكتور هيكل : « ومادامت الحرب فى فطرة الناس ، فتهذيب فكرتها فى النفوس ، وحصرها فى أدق الحدود ، هى غاية ماتحتمل نظرة البشر ، ومايحقق الإنسان اتصال تطورنا فى سبيل الخير والكمال ، وخير تهذيب لفكرة الحرب ألاتكون إلا للدفاع عن النفس ، وعن العقيدة ، وعن حرية الرأى والدعوة إليه ، وهذا ماقرره الإسلام ، ونزل به القرآن » ومن غريب أمرهؤلاء الذين يخوضون فى حديث هذا الإكراه المزعوم أو الموهوم ، ممن يتهمون الإسلام بالعنف ، وإراقة الدماء ، وإشعال نيران الحروب ، فى سبيل إعلاء كلمته وانضواء الناس تحت رايته ، إنهم ينسون ماجاء به من إرشاد ، وما أعلنه من هداية ، وما تضمنه من آداب ، ومارسمه من خطوط ، ومادعا إليه

من خير ، لم يتخلف به عن تقدم وعمران ، ومدنية وحضارة ، وإصلاح ونفع ، وكنا نود فى هذا الوقت الذى يرمونه بالقسر والقهر ، والعنف والتسلط ، والإرغام والضغط ، وإراقة الدماء ، وإزهاق النفوس ، أن يغمزوا جانبه ، أو يلمزوا تكاليفه ، أو يتهموا أساليبه فى الأخذ بيد الإنسانية إلى البر والمعروف ، لتنطلى دعوى اتهامه والاختلاق عليه ، لكن شيئا من ذلك لم يكن ولا يمكن أن يكون . . . ولو كان عندهم قليل من الإنصاف لقارنوا تلك الدماء التى أراقها محمد — صلى الله عليه وسلم — للتمكين لدينه ، ونشر دعوته ، بما أراقوه هم باسم «عيسى» و «موسى» ، وبما لوثوا به وجه الأرض وظهرها ، وتلك الأموال الطائلة التى كانوا يزودون بها الحملات التبشيرية للصد عن الإسلام ، وتحويل القلوب والأنظار عنه : (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الويلات التى تعانيها البشرية هنا وهنالك لاتحتمى إلا باليهودية والمسيحية وهما منهم براء ما فى ذلك شك ! ! أما الإسلام فهو لايزال سلاما على الإنسانية والناس.

اليهود فى الطريق

كان النبى — صلى الله عليه وسلم — لا يعانى شدة فى طريق دعوته إلى الله ، وإبلاغ رسالته إلى الناس ، أفدح ولاأعظم من تلك الشدة التى كان يعانيها من المنافقين واليهود ، غير أن حال المنافقين كان شائكاً لأنهم يعلنون الإسلام وليس من حقه أن يدخل إلى قلوبهم ، ولا أن يهتك سرائرهم ، ولا أن يعاملهم إلا بظاهر مايبدو منهم ، لكن اليهود كانوا يزعمون فى أنفسهم أنهم أصحاب دعوة سماوية أخرى لاتقل فى تقاسيرها واحترامها عن دعوة «محمد» ، وهم لهذا يجب أن يجعلوه مطية طيعة لأهوائهم وأغراضهم ، أو يزيلوه من الطريق ليكونوا وحدهم فى الميدان ، لاترتفع عليهم صيحة ، ولايزاحمهم منافس .

وسياستهم التى يسلكونها — فى كل زمان ومكان — تقوم على اللين المشوب بالذلة ، والخنوع المختلط بالضعف ، والتواضع الذى يصل إلى حد الهوان ، فى سبيل الوصول إلى أغراضهم ، فإن أمكنتهم الفرصة من عدوهم أخذوه بالعنف ، وعاملوه

بالقسوة ، وأرغموه على أن يركب حد السيف ، يقول الدكتور هيكل : « فقد كان بيثرب يومئذ المسلمون من مهاجرين وأنصار ، وكان بها المشركون من سائر الأوس والخزرج ، وكان بين هؤلاء وأولئك ماعلمت ، ثم كان بها اليهود يقيم منهم « بنو قينقاع » داخلها ؛ ويقيم « بنو قريظة » فى « فدك » ، « وبنو النضير » على مقربة منها ، وإلى هؤلاء يهود خيبر . . أما المهاجرون والأنصار فقد ألّفَ الدين الجديد بينهم بأوثق رباط ، وإن بقيت فى نفس « محمد » بعض المخاوف أن تثور البغضاء القديمة بينهم يوما ما ، مما جعله يفكر فى وسيلة للقضاء على كل شبهة من هذا النوع تفكيرا كان له أثره بعد ، وأما المشركون من سائر الأوس والخزرج ، فقد ألْفَوْا أنفسهم بين المسلمين واليهود ضعافاً نهكتهم الحروب الماضية فاتجه همهم للوقيعة بين هؤلاء وأولئك . . وأما اليهود فبادروا بادىء الرأى إلى حسن استقبال « محمد » ظنًّا منهم أن فى مقدورهم استمالته إليهم ، وإدخاله فى دينهم ، والاستعانة به على تهويد جزيرة العرب ، حتى تقف فى وجه النصرانية التى أجلت اليهود — شعب الله

المختار كما يزعمون – عن فلسطين أرض الميعاد ، وانطلق كل على أساس تفكيره يمهد لأسباب النجاح لبلوغ غايته » .

ويقول الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف : « كان المسلمون إلى يوم بدر يخشون مواطنيهم من أهل المدينة ، فلا يستطيعون ردّ الاعتداء على من يعتدى عليه منهم ، فلما عادوا منتصرين امتلأت نفوسهم بالجرأة ووجدوا أن مصلحتهم تقتضيهم رد العدوان وتأديب المعتدين ، وإلقاء الرعب فى قلوب من تحدثهم أنفسهم بإفساد أمور الدولة الإسلامية الناشئة فى يثرب . .

« وكان « أبو عفك » – وهو يهودى من بنى عمرو بن عوف – يرسل الأشعار يطعن بها على « محمد » وعلى المسلمين ، ويحرض قومه على الخروج عليهم ، وظل كذلك إلى مابعد بدر يغرى بهم الناس ، فأخذ « سالم بن عمير » نفسه بالقضاء عليه ، فذهب إليه فى داره ليلاً وقتله ، وكذلك قتل « عمير بن عوف » امرأة من بنى أمية بن زيد تسمى « عصماء بنت مروان » وكانت تعيب الإسلام ، وتؤذى النبى ، وتحرض عليه ، ولم يكتف « عمير » بقتلها بل تحدّى قومها حين سألوه فى هذا ، فكان

لجرأته أثر كبير إذ ظهر الإسلام فى بنى خطمة – وهم قوم زوج عصماء هذه – وأظهر منهم من كان يخفى إسلامه .

كذلك كان كعب بن الأشرف اليهودى شاعراً شيطاناً أخذ نفسه بالكيد للمسلمين وإرسال الأشعار فى التحريض عليهم ، ولقد ساءته نتيجة « بدر » وآلمت نفسه حتى لقد قال حين علم بها : « هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس – يعنى قريشا – والله لئن كان « محمد » أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها » ثم ذهب إلى مكة يرثى أصحاب « القليب » ، ويحرض قريشاً على الثأر وينشد فى ذلك الأشعار ، وعاد إلى المدينة فأخذ يُشَبِّب بنساء المسلمين حتى امتلأت النفوس بالغيظ منه ، وحتى أجمع المسلمون على قتله ، فذهب إليه جماعة استدرجوه حتى خلوا به وقتلوه ، وزاد هذا الحادث من مخاوف اليهود ، لكنه لم يسكتهم عن « محمد » ولا عن المسلمين حتى فاضت النفوس أى فيض » –

وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقظاً لختلهم ، بصيراً بكيدهم ، عالما بما تمتلئ به قلوبهم العفنة ، وضمائرهم

الخبيثة ، وطواياهم الفاسدة ، ونواياهم الشريرة ، ولقد رأيناه يأخذهم بحذق ، ويقلم أظافرهم بحكمة ، ويقص أجنحتهم ببراعة ، ويستريح من كيدهم بمهارة ، وينتهى بهم إلى الإذلال الذى كتبه الله عليهم ، ولم تكن مانعتهم حصونهم التى أحكموا بناءها ، وقد كان «بنو قينقاع» بداخل المدينة يعملون فى صياغة الذهب والحلى ، وكان المال الذى فى أيديهم يملأ نفوسهم بالخيلاء ، ورءوسهم بالكبر وظنوا أنهم يستطيعون أن يسيروا على جماجم المسلمين ، ويطئوا بأرجلهم أشلاءهم ، لأن اقتصاد المدينة وتجارتها وأسواقها بأيديهم هم لايزاحمهم فى ذلك كله أحد . . وفى ذات يوم قدمت إلى بعض أسواقهم امرأة من المسلمين لتشترى شيئًا من الذهب ، فتطاول أحدهم عليها ، وعبث بحيائها ، وعرى ثوبها عن جسدها ، فأخذت الغيرة رجلاً من المسلمين فقتل ذلك اليهودى الذى تطاول على المرأة المسلمة ، وكانت هذه هى الشرارة الأولى فى إشعال نار حرب بين يهود بنى قينقاع والمسلمين ، على الرغم من المعاهدة القائمة بين المسلمين وسائر اليهود ، وقد أعلنوا عدم التزامهم بهذه المعاهدة ، وتحديهم للنبى — صلى الله عليه وسلم — والمسلمين معه ، وقالوا للنبى :

«لايغرنك أنك لقيت قوماً لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس » ولم يكن هنالك بدٌّ من أن يضرب «محمد» — صلى الله عليه وسلم — ضربته الأولى ليزيل عن المدينة شبح الفوضى التى تهددها ، والرعب الذى يسيطر عليْها ، وحينئذ حاصر «بنى قينقاع» خمسة عشر يوما لا يخرجون من بيوتهم ، ولايدخل إليهم أحد فى بيوتهم ، وكان هذا الشلل الاقتصادى الذى نالهم ، والفزع الشديد الذى أصابهم ، داعياً إلى أن يظهر « عبدالله بن أُبى ابن سلول » — رأس المنافقين — على شاشة المسرح ، ويقول للنبى صلى الله عليه وسلم — : «إنهم حلفائى ، وأنا لا أُحب أن تؤْذينى فى حلفائى » وقد أعرض عنه النبى مراراً ، فلم يصغ إليه ، ولم يأْبه به ، إلا أن « عبادة بن الصامت » رجاه أن يضيق الخرق على الراقع ويستجيب لرجاء « ابن أُبى » ليصبح هو والمشركون الموالون لبنى قينقاع مدينين لإحسانه ، ورحمته ، وكان الرأْى الذى انتهى إليه النبى هو استئصال شأْفتهم ، وإبادتهم جميعا ، إلا أن الرأْى الذى استقر عليه بعد ذلك كان خروجهم من المدينة تاركين أموالهم وأقواتهم وديارهم ،

وكان هذا الخروج إلى «وادى القرى» ثم إلى «أذرعات» على حدود الشام ، وبهذا الخروج أصبحت المدينة فى مأمن من الفتن الداخلية ، والدسائس التى تحاك هنالك ، وإن كان يهود بنى النضير وبنى قريظة على حدودها القريبة ! .

وكان طبيعيا بعدهذا الذى حل ببنى قينقاع أن ينكمش غير المسلمين ، وأن يصيبهم الرعب ، لكن «أبا سفيان» جمع مائتى رجل ، وأغاروا فى خارج المدينة على رجلين فقتلوهما وحرقوا بعض البيوت والنخيل ، يقصدون بذلك إلى إشاعة الفزع فى قلوب الناس وقد ندب الرسول بعض أصحابه ليلحقوا بهم فوجدوهم يلوذون بالفرار ويرمون فى الطريق بما كان معهم من المتاع والطعام وكان أكثر الطعام سويقا ، لذلك سميت هذه المطاردة بغزوة السويق ، وبعد ذلك بقليل قتل «كعب ابن الأشرف» فكان ذلك نهاية إذلال اليهود . .

أما ما كان من أمر «بنى النضير» فهو لا يعدو أن يكون صورة — كذلك — من صور الخداع واللؤم ، والمكيدة والغدر ، والذلة والضعف ، فان النبى — صلى الله عليه وسلم — ذهب إليهم

يستعين بهم على دفع دية قتيلين قتلهما أحد المسلمين بطريق الخطأ ، وكان القتيلان من حلفائهما وحلفائه — بنى عامر — وقد أظهروا الاستعداد كل الاستعداد لتحقيق طلبه فى دفع دية القتيلين ، لكنهم أخذوا يسوفون ويروحون ويجيئون ، ليدبروا أمر قتله بحجر يلقيه أحدهم فوق رأسه من سطح المنزل الذى كان يستند إلى جداره ، إلا أن الله أخبره بما يدبرون له ، فتسلل من مكانه دون أن يحس به أحد ثم أخذ سمته إلى المدينة ، ولما طال غيابه لحق به أصحابه وهم لا يعرفون من أمر تسلله شيئًا ، وكان هذا التصرف منه محل دهش واستغراب ، حملهم على الإيمان بنفاذ بصيرته — صلى الله عليه وسلم — وهنالك أرسل النبي « محمد بن مسلمة » يحمل إنذاره إليهم ، أن اخرجوا من بلادى لأنكم نقضتم عهدى ، وهممتم أن تغدروا بى ، وفى هذه الآونة أخذتهم الحيرة والارتباك ، وبيناهم يتهيأون للرحيل جاء إليهم رسول من « ابن أبى » يأمرهم بعدم الخروج ، لأنه سيقف إلى جانبهم ومعه ألفان من قومه ، يدخلون معهم حصونهم ليموتوا عن آخرهم قبل أن يصل إليهم أحد من المسلمين ، وقد أخذوا يقلبون هذا العرض الذى يعرضه ابن أبى على وجوهه

وانتهوا إلى عدم الثقة فيه ، لأنه قال مثل هذا القول لبنى قينقاع ولم يُغن عنهم شيئًا ، «وبنو قريظة» الذين هم على مقربة منهم لايستطيعون أن يقدموا لهم صنيعا لأنهم يرتبطون مع «محمد» بمعاهدة تجعلهم يقفون إلى جانبه لا إلى جانبهم . . وقال كبيرهم «حيي بن أخطب» : سأرسل إلى «محمد» أنا لانخرج من ديارنا وأموالنا وليصنع بنا مايريد ، وسنحتمى بحصوننا وأموالنا وأقواتنا وأسلحتنا ، فلما حاصرهم المسلمون عشرين يوما أذاقوهم فيها الويل والدمار سألوا «محمداً» أن يؤمنهم على دمائهم وأموالهم ليخرجوا من غير أذى يلحق بهم ، رضى النبى أن يخرجوا ولكل ثلاثة منهم حمل بعير من مال وطعام وشراب ليس لهم غيره ، فخرجوا ومعهم «حيي بن أخطب» الذى كان يغريهم بالعصيان ، ونزل منهم من نزل بخيبر وذهب الباقون إلى أذرعات ، وأسدل الستار على قوتين ضاربتين من قوى الشر التى كانت تناوىء الدعوة ، وتكيد للإسلام ، وتصد عن سبيل الله ، وتبغى فى الأرض الفساد .

ولم يجد اليهود بعد ذلك – وعلى رأسهم حيي بن أخطب – طريقاً يسلكونه للانتقام لأنفسهم من «محمد» ومن حوله المسلمون معه إلا أن يؤلبوا عليه قريشا والمشركين جميعا لتتلاقى وإياه فى حرب تكون قضاء عليه وعلى دعوته ، ولهذا خرج «حيي بن أخطب» و «سلام بن أبى الحقيق» ومعهم من بنى وائل «هوذة بن أبى قيس» و «أبو عمار» حتى قدموا على قريش بمكة ، فسأل أهلها حُيَيًّا عن قومه فقال : تركتهم بين خيبر والمدينة ينتظرون مجيئكم إليهم لتسيروا إلى «محمد» وأصحابه ، وسألوه عن بنى قريظة فقال : أقاموا بالمدينة مكرا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم عليه ، ولم تصدق قريش شيئًا من ذلك فسألته : أدِيننا خيرأم دينه ؟ فقال : لابل دينكم أنتم ، وإلى هذا تشير الآية : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا .أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) . . ولم يزل «حيي بن أخطب» يسعى سعيه ويعمل عمله ، حتى مد إلى «كعب بن أسد» ليغريه أن يحمل بنى قريظة على الغدر بمحمد ، والتخلى عنه إذا ماجاءت

الأحزاب إلى المدينة ، وكان «بنو قريظة» قد عاهدوا المسلمين أن يقفوا إلى جانبهم بكل أنواع المعونة والمساعدة ، وقد تردّد كعب أن يستجيب لحيي لكن حييا لم يزل به حتى استماله واتصل نبأ هذا الغدر بالنبي — صلى الله عليه وسلم — فبعث «سعد بن معاذ» سيد الأوس «وسعد بن عبادة» سيد الخزرج ومعهما «عبد الله بن رواحة» و«خوات بن جبير» ليقفوا على جلية الأمر ، فلما رأوا منهم روح الشر ، وقال «كعب بن أسد : «من رسول الله ؟ لاعهد بيننا وبينه» ووجد المسلمون أنهم قطعوا عنهم المدد والمعونة ، وفتحوا الطريق إلى الأحزاب ليدخلوا المدينة ، لم يجدوا بدا من أن يتجهموا لهم ، فحاصروهم خمسا وعشرين ليلة ، طالبوا بعدها بالخروج إلى أذرعات تاركين مايملكون ولم يرض النبي ولا المسلمون هذا العرض ، وعرض عليهم الرسول أن يختاروا رجلا يحكمونه بينه وبينهم فاختاروا «سعد بن معاذ» فحكم بقتل المقاتلة وسبي النساء والذرية .

ويقول الدكتور هيكل تعليقاً على هذا الحكم : «ولعل «سعدا» ذكر أن الأحزاب لو انتصرت بخيانة بني قريظة لما كان أمام المسلمين إلا أن يستأصلوا وأن يقتلوا وأن يمثّل

بهم فجزاهم بمثل ماعرّضوا المسلمين له » وقد كان للقضاء على بنى قريظة أثر بالغ فى قوة المسلمين ، وخوف المشركين منهم والاهتمام كل الاهتمام بوجود جبهة متينة تصدعدوانهم . . وعندئذ اتجهت الأنظار إلى يهود خيبر الذين وفد عليهم فلول اليهود الأخرى من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة وإلى جانبهم على القرب يهود تيماء ووادى القرى ، وكانوا يترقبون مابين وقت وآخر أن يغزوهم المسلمون ، لذلك كان الاستعداد بينهم دائماً على قدم وساق ، فتارة يفكرون فى الدخول فى حلف مع النبى — صلى الله عليه وسلم — ليزيلوا من نفوس المسلمين وبخاصة الأنصار ما علق بها من العداوة التى غرسها «حيى بن أخطب» من جراء تأليبه العرب لاقتحام المدينة ، وتارة أخرى يفكرون فى تكتل يهودى عام يضمهم ومعهم وادى القرى وتيماء . .

وقد كان المسلمون سبقوا من قبل بقتل زعيمين من زعمائهم هما «سلام بن أبى الحُقيق » و «اليسير بن رزّام » ، وبهذا القتل حصلت خلخلة فى صفوف اليهود ، إلا أن كثيرين من قريش — مع ذلك كله — كانوا يتوقعون أن تدور الدائرة على المسلمين ، وذلك لمناعة حصون خيبر وقيامها فوق جبال صخرية ، وكان

أبرز زعماء أهل خيبر فى هذا الوقت « سلام بن مِشْكَم » الذى أشار عليهم أن يوزعوا أنفسهم على الحصون فيجعلوا الأموال والعيال فى حصن ، والذخائر فى حصن ، والمقاتلة فى ثالث وهكذا ، وضيق المسلمون الحصار عليهم وهم يستميتون فى الدفاع عن أنفسهم ، وقتل «سلام بن مشكم » فتولى قيادتهم « الحارث بن أبى زينب » ومازالوا صامدين مستبسلين ، والأيام يتابع بعضها بعضا ، وقد أرسل النبى إليهم «أبا بكر» ثم رجع من غير جدوى ، وأرسل بعده « عمر » فرجع كذلك ، فأرسل «عليا » ودعا له بالنصر ، وقد خرج إليه رجل من اليهود فضربه فسقط ترسه ، فتناول بابا كان عند الحصن فتترس به ولم يزل يقاتل حتى اقتحم الحصن واقتحم المسلمون بعده ، وهكذا توالى اقتحام الحصون كلها حتى سقطت «خيبر » وصالحهم النبى — صلى الله عليه وسلم — على البقاء فى أرضهم يزرعونها بالنصف لأن المسلمين لم يكن فيهم من يحسن القيام على فلاحة الأرض وزراعتها ، وقد قبل يهود فدك ووادى القرى

هذا المبدإ فقد صالحوه — صلى الله عليه وسلم — على مثل ماحصل ليهود خيبر من غير حرب ، ولكن يهود تيماء قبلوا دفع الجزية وسنرى من متابعة الحوادث أن أمرها بعد الفتح سيئول إلى الإذعان والخضوع . . .

غزوة بدر الكبرى

يرى المؤرخون ممن تصدوا للكتابة عن حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومواقفه التى وقفها فى وجه الشرك ، أن هذه الغزوة كانت حداً فاصلاً بين عهدين مختلفين كل الاختلاف ، عهد الاستكانة والرضا ، والمصانعة والإغضاء ، والالتجاء إلى أساليب السياسة ، وعهد القوة الرادعة ، والبطش المزعج ، والبأس المخيف ، والموقف الذى يحس صاحبه معه بالتمكن والاعتزاز والثقة ، فإن المسلمين لم تنته بهم الجولة – ولم يفرغوا من تفريق شمل الكافرين الذين لاذوا أمامهم بالفرار والهلع ، والخوف والجزع ، حتى أخذت نشوة الانتصار تدب فى مفاصلهم ، ثم صارت بعد ذلك تشعرهم بأن هذا الرصيد من الإيمان الذى يملأ جوانحهم لا يمكن أن تقف له قوى الغدر ، ولا جيوش البغى ، ولا محافل الكفر ، ولا وسائل الدمار والموت ، وأن هذه الحرارة التى تصنعها العقيدة لا تستطيع حرارة البخار ولا الكهرباء أن تتغلب عليها ، أو تسقط حسابها من الاعتبار ، فلقد كان عدد المقاتلين الذين خرجوا لملاقاة

أبي سفيان — أولا — ولملاقاة هذا الجيش الذى دفعت به مكة كلها — ثانيا — لايتجاوز ثلث خصومهم ، ومع ذلك كان النصر إلى جانبهم ، والفوز من نصيبهم ، وقضى الله بهذه الجولة أن يملأ الخوف نفوس الصناديد الأبطال ممن أرادوا أن يخفت صوت الحق ، وتنتكس الراية القرآن . وينفض « محمد » يده من كل بارقة أمل تحدثه نفسه بها ..

ونحن نعلم أن أسلوب حرب العصابات التى آلت على نفسها أن تعكر الصفو على أهل مكة ، فلا تطمئن بعض الاطمئنان أبدا على تجارتها إلى الشام ظلت حدته تتزايد ، وأمره يتضاعف ، ثم كان ما كان من سرية « عبد الله بن جحش » التى أثارت قالة السوء عن النبي — صلى الله عليه وسلم — والمسلمين معه أنهم لايقدسون حرمات الأشهر التى لايحل فيها القتال ، وأن الرسول بعد هذا أغرى أصحابه بالعير التى خرج بها « أبو سفيان » إلى الشام بتجارة كان معظم أصحاب الأموال فى مكة يساهمون فيها ، ولم يكتف من جانبه بهذا الإغراء حتى خرج معهم يترقب فى الطريق أبا سفيان ومن معه وهم ذاهبون إلى الشام لكن الفرصة كانت قد تفلتت منه

إذ أن أبا سفيان مرقبل أن يأخذ النبي وأصحابه مكانهم من الطريق، ولم يكن لهم بد بعد ذلك كله إلا ترقب أوبة العير عند رجوعها من الشام ، وكانت أنباء هذا التآمر على أبي سفيان وعيره تطايرت إليه ، فكان عليه أن يغير طريقه حتى لايظفر به خصومه وفي الوقت نفسه كان استأجر من يسبقه إلى مكة ليستنفر الناس جميعا لحماية تجارتهم التي توشك أن تقع في قبضة « محمد » وأصحابه ، وعلى الرغم من أن كثيراً من رجالات مكة لم يطاوعهم وجدانهم أن يخرجوا لقتال « محمد » وأصحابه لاقناعهم بالظلم الذى لحق به ، والمطاردة التي وقعت عليه ، وروابط النسب التي لاتخلو من أن تكون قائمة بينهم وبين الذين كانوا معه من المسلمين ، وبخاصة بعد أن تبين لهم أن السبب الذى من أجله كانت الدعوة إلى الحرب والخروج لملاقاة المسلمين قد زال ، فإن أبا سفيان كان قد وصل إلى مكة بالتجارة لم يصبها — أو يصيبه — أذى ، إلا أن الدعوة إلى الخروج ، ولقاء « محمد » وأصحابه وإشعال نار الحرب ، والقضاء على هؤلاء الذين يحاولون أن يستعملوا مع ركب المسافرين بالتجارة إلى الشام أسلوب العصابات ، قد لقيت استجابةً عند بعض الذين يحبون الاصطياد في الماء العكر

أمثال « أبى الجهل » الذى سفّه رأى « أبى سفيان » وهو يدعو إلى عدم الخروج مادام السبب غير قائم ، « وعتبة بن ربيعة الذى قال : « إنكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه لما لاتريدون » .

وعلى كل حال فقد رجحت كفة أبى جهل فى الدعوة إلى الخروج ، وذهب الفريقان إلى « جبهة القتال » وفى نفوسهما من الحماسة والحمية ، والاستبسال والشجاعة الشىء الكثير ، إلا أن الفرق مابينهما بعيد كل البعد ، فمحمد وأصحابه تثور بهما عقيدة تحارب ، وإيمان يطارد ، ومبدأ يريد أن ينطلق إلى غايته ، لكن قريشا وكفار مكة معها يثور بها طيش جاهلى ، ووثنية هوجاء ، وحقد ظالم ، وشتان مابين اليزيدين فى الندى ، ولما نزل المسلمون للتجمع الذى يسبق الهجوم كانوا – بادىء ذى بدء – بعيدًا عن الماء الذى يسمى بدرا ، فناقش بعض المسلمين النبى

ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أهذا النزول بعيدًا عن الماء وحى أوحى به الله إليك لاننحرف عنه ، ولاتستطيع أن تخالفه ، أم هى المكيدة والخدعة والسياسة والحنكة والحزم التى تتطلبها الحرب ؟ فقال الرسول : لم يكن ذلك وحيًا ولكنه الاجتهاد والرأى ، فقال له « الحباب بن المنذر » : السياسة والحزم أن نضع أيدينا على ناصية بدر نستقى منها وتشرب دوابُّنا ونحول بينها وبين المشركين ويكون ذلك تضييقًا عليهم ،وحربًا لهم . وهنالك استراح النبى لهذا الرأى ، واستراح له المسلمون ، وبنوا حوضًا على فم البئر لتسعفهم بالماء حتى لايعوقهم الامتياح منها ، وبينما هم يمرحون ويقصفون ابتهاجًا بهذا الموقع « الاستراتيجى » الذى اتخذوه إذ اندفع « الأسود بن عبد الأسد المخزومى » من بين صفوف قريش يريد هدم الحوض الذى بناه المسلمون وهنالك يضربه « حمزة بن عبد المطلب » ضربة فى ساقه فيسقط ودمه يشخب ، ويدعو ذلك « عتبة بن ربيعة » أن يخرج من بين الصفوف ليطلب مبارزة المسلمين ، ولما تقدم له بعض الشبان الذى

كانت الحمية تغلى فى عروقهم امتنع أن ينازله ، ونادى بأعلى صوته : « يامحمد ، أخرج لنا أكفاءنا من المقاتلين » ، وكان « عتبة » يحيط به أخوه شيبة وابنه الوليد ، فتصدى « حمزة » لشيبة فقتله ، وتصدى « على » للوليد فقتله ، وتصدى « عبيدة ابن الحارث » لعتبة وانتهى بالإجهاز عليه ، وبذلك كانت قريش قد خسرت ثلاثة من أعز أبطالها ، وخيرة فرسانها ، فلم تجد بدا ن أن تلقى بكل ثقلها فى المعركة ، وتعطى للحرب حظها من الاهتمام ، فتزاحف الناس ، والتقى الجيشان ، صبيحة الجمعة السبعة عشر من رمضان ، والنبى — صلى الله عليه وسلم — على رأس المسلمين ينظم صفوفهم ، ويحدد مواقفهم ، ويملأ نفوسهم ، إيمانًا بالله ، وثقةً بنصره ، وتمكينًا لدينه ، ورفعًا لرايته ، وإعزازًا لمن يقفون إلى جانب نبيه ، قائلا : (اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها ، تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد) ، ومازال يهتف بهذا الدعاء حتى أشفق عليه « أبو بكر » أن يناله

مكروه من هذا الجهد الذى يبذله ، والإعياء الذى يعانيه ، فقال له : « هوِّن عليك يارسول الله . فإن الله منجز لك ما وعدك » ، وكان الرسول — من هذا التعب — قد أخذته سنة من النعاس رأى فيها مصارع الصناديد من قريش واطمأن كل الاطمئنان إلى نصر الله ، فتقدم إلى صفوف المسلمين — من جديد — ليقول لهم : (والله لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة) وكان لهذا القول فى نفوس المسلمين أثره البالغ . وكان « سعد بن معاذ » قد رأى أن يُبنى للرسول — صلى الله عليه وسلم — عريش ليقوم فيه بعيدًا عن مخاطر الحرب وعدوانها ، حتى إذا ما كان النصر فى جانب قريش استطاع أن يعود إلى المدينة ليواصل كفاحه وجهاده ، والاستمرار فى نشر دعوته إلى الناس ، وقد لقيت هذه الفكرة استحسانا وقبولا ، ومن هذا العريش كان يخرج إلى صفوف المسلمين المرة تلو الأخرى ليطمئن كل الاطمئنان على سير القتال ، وكان من اغتباطه لسير المعركة ، وارتياحه لاستبسال أصحابه ، واعتقاده

أن النصر فى النهاية سيكون فى جانبه ، ربما جرى على لسانه قول القائل .

نُفَلِّق هاما من رجالٍ أعزَّةٍ علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

أو قرأ قوله سبحانه : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) .

ويقول الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف : « وسمت روح المسلمين المعنوية بتحريض الرسول ، ونزول القرآن يبشرهم بأن الملائكة تشد أزرهم ، فاندفعوا يقاتلون وقد جعلوا همهم سادة قريش ، يريدون استئصال شأفتهم ، جزاء ما عذَّبوهم وأخرجوهم ، ولأنهم رأس الكفر ، لو قتلوا لضعف غيرهم ، ولوجد الاسلام طريق الدعوة ممهدًا لاتقف فى طريقها مطامع الزعماء وكبرياء الرؤساء .. ومالبثت قريش حين رأت كثيرًا من سادتها يسقطون قتلى بأيدى المسلمين أن ولَّت الأدبار لاتلوى على شىء . والمسلمون يضربون فى أعناقها وأدبارها ، ويأسرون من رجالها من لم يسعفه حسن فراره بالنجاة ، وبلغ عدد القتلى من قريش سبعين قتيلا ، فيهم معظم سادة قريش ، وعلى رأسهم أبو جهل ، كما استأسر سبعون .. وهكذا كانت هزيمة قريش تامة ساحقة

أما المسلمون فقد اندفعت منهم فرقة تطارد الفارين ، وقامت أخرى بجمع الغنائم ، والتفت الثالثة بالعريش تحمى النبى مخافة أن يرتد إليه العدو » .

ومن الحديث فى « بدر » أو عن بدر لانسمع إلا بطولة نادرة امتلأت بها نفوس المسلمين الذين طوحوا بالكفر ، وأذلوا أهله ، وأطاحوا بدولته .

طرف كانت فى بدر

كان فى صفوف المشركين فى بدر « أمية بن خلف » وقد وقع فى أيدى المسلمين أسيرًا هو وابنه وأراد « عبد الرحمن بن عوف » أن يحميهما من عدوان من تحدثه نفسه بالنيل منهما ، أو التطاول عليهما ، وكان « بلال » رقيقًا مملوكًا لأمية ، ولقى دنه من صنوف العنت ، وألوان التعذيب ، بسبب اعتناقه الإسلام ، ودخوله فى دين « محمد » ، مالم يلقه أحد فى سبيل عقيدة اعتنقها ، أو مبدأ التزمه ، أو شريعة انضوى تحت رايتها ، وكم تركه فى الرمضاء المحرقة متجردًا من ثيابه لتلفحه نارها ، ويؤذيه لهبها . ثم لا يكتفى بذلك دون أن يلقى بالحجر الثقيل على بطنه ، رجاء أن يحمله ذلك التعذيب والإيلام على المروق عن الإسلام ، والبقاء على وثنيّة الكفر ، وضلالة الشرك ، والسجود للأصنام التى لاتضر ولا تنفع ، ولا تحس ولاتدرك. ، وما إن وقعت عينا « بلال » على طلبته التى يرجوها ، وضالته التى كان يترقب فرصة الظفر بها ، حتى هجم عليها ليشفى غليله

منها ، ويروى ظمأة إليها ، ويقتص لهذا الذى لقيه من جبروت المالك ، وعسف المتسلط ، وجهل الضال ، وكبرياء الأحمق ، فلما زجره « عبد الرحمن بن عوف » المرّة بعد المرة نادى بأعلى صوته قائلاً رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا . فلما ألح بلال فى الهجوم عليه وألح عبد الرحمن فى الزجر له قال عبد الرحمن لبلال : « يابن السوداء هو أسيرى ومالى » ، ولكن بلالاً كرّر الإلحاح وقال يا أنصار الله : « رأس الكفر أمية ابن خلف لا نجوت إن نجا » وأحاط الناس بأمية وابنه فى يدى ابن عوف وسبقت ضربة إلى ابن أمية وأخرى إلى أمية نفسه فكانا فى خبر كان ...

وكان من هؤلاء الأسرى كثيرون كانت لهم سوابق سيئة فى معاملة المسلمين بمكة لم يقبل منهم المسلمون الفداء وأبوا إلا أن تجزّ رؤوسهم ، وتباح دماؤهم ، وتكون نهايتهم على أيديهم ، مثل « عقبة بن أبى معيط » . و « النضر بن الحارث » ، وذلك ، للإيلام والأذى الذى كان منهم ، وبخاصة « النضر » الذى كان يشترى كتب الأسمار والخرافات ويحكى منها للسذّج وضعاف

العقول ثم يقول : أليست هذه خيرا مما يزعم محمد أنه يوحى به إليه ؟ . وتشير إلى قصته الآية من سورة لقمان : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين) .

وكان من طريف أمر الأسرى أن جاء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – شاعر هو « أبو عزّة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحى » ، وقال : لى خمس بنات ليس لهن شىء فتصدق بى عليهن ، ولك علىّ ألا أقاتلك أو أعين عليك ، فلما أطلق سراحه نكث عهده ، وأخلف وعده ، وخرج لحربه وحرب المسلمين فى « أحد » فوقع فى أيدى المسلمين وانتهى أمره بالقتل .

وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – قد أبدى رغبة شديدة فى الترفّق بمن كانت لهم مواقف نبيلة سابقا مع المسلمين قبل الهجرة وبخاصة إن كانوا من « بنى هاشم » الذين ساعدوه ووقفوا إلى جانبه مدى ثلاثة عشر عاما بمكة قبل الهجرة . وكان فى هؤلاء الذين أوصى الرسول – صلى الله عليه وسلم – بهم ولم يرغب فى قتلهم عمه « العباس » إلا أن حذيفة – أو أبا حذيفة – لما بلغه أن النبى – صلى

الله عليه وسلم — يؤكد الوصية بعمه — وكان فى القتلى أبوه « عتبة ابن ربيعة » وعمه « شيبة » وأخوه « الوليد » قال : أيقتل أهلونا وينجو العباس ؟ وهنالك تغير وجه النبى لهذا القول ولم يسعه إلا أن يشكو لعمر قولة حذيفة ، فقال عمر : « لقد نافق حذيفة دعنى أقتله » ، وكان حذيفة يقول : شككت فى نفسى ، ورجوت أن أستشهد فى سبيل الله لأكفر عن هذه الكلمة ، ومات — رضى الله عنه — فى حرب اليمامة فى خلافة « أبى بكر » . وحذيفة هذا هو الذى بدا عليه الغضب حين بلغه مقتل أبيه عتبة فقال له النبى : (هل آلمك مقتل أبيك ؟) فقال : « لا . ولكنى كنت أرجو فيه رجاحة عقل وبعد نظر ، وحسن تفكير ، أن يكون له ميل إلى رسول الله ، وحب فى دينه ، واستجابة لدعوته ، ووقوف إلى جانبه ، وذودٌ عن شريعته ، لكنه آثر سبيل الكفر ، وطريق الغواية ، ودخل جهنم من أوسع أبوابها .

ومن الصور العاطفية التى تفيض بالحنين والحب فى هؤلاء الأسرى الذين ضاقت عليهم شباك الأرض تلك الصورة التى كانت بين « زينب » ابنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وبين زوجها ، فإن زوجها « العاصى بن الربيع » وقع أسيرًا فى أيدى المسلمين ولم يكن هنالك بدٌّ من أن يلاقى الذى يلقاه أمثاله من معسكر

الكفر الذى كان كل هم الرجل منهم أن ينكّل بالرسول وبالمسلمين وبدعوة الحق ، حتى إذا ماانتهى به المصير إلى تلك النهاية بدت عليه الكآبة ، وأحاطت به الذلّة ، وشعر بأنه أحقر من لاشىء فى العدد ، فلما رأت « زينب » مالحق به دفعت بقلادة كانت أمها « خديجة » قد نحلتها إياها حين بنى بها « العاصى » وذلك فداء لزوجها وكان هذا الصنيع الرقيق مثيرًا لوجدان الرسول – صلى الله عليه وسلم – فلم يسعه إلاّ أن يقول للمسلمين : (هل لكم أن تردوا عليها قلادتها وتخلّوا لها أسيرها ؟) وقد خلّى المسلمون سبيله وعاد إلى مكة وخرج على رأس عير فى تجارة لبعض أرباب الأموال من قريش وفى عودته من الشام التقى به جماعة من المسلمين فأخذوا ما معه ، وهنالك التجأ إلى « زينب » ليرد المسلمون إليه ما أخذوه منه ، وعملت « زينب » على ردّ أمواله إليه ، فقد كان أجيرًا على العمل لا يملك من الأموال شيئا – على الرغم من أن صلة الزوجية بينهما قد انقطعت لأن الرسول فرق بينهما بحكم اختلاف الدين ، و « مضى العاصى بن الربيع » إلى مكة ولما أبرأ ذمته من الأموال التى كانت فى يده عاد إلى النبىّ – صلى الله عليه وسلم – فى المدينة وأعلن إسلامه ، وعادت إليه « زينب » واستأنف معها فى ظلال الإسلام عيشًا

أرغد ، وحياة أهنأ ، وصلةً أقوى مما كانت . ولعل السبب فى تمسكه بها ، وحدبه عليها ، وتراى عاطفته نحوها إلى هذا الحد ، لاترجع إلى رابطة الزوجية وكفى ، ولكن إلى أنها ابنة رسول الله ، وأنها — كذلك — ابنة خالته لأن أمه « هالة بنت خويلد الأسديَّة » أخت « خديجة » — أم المؤمنين — وكان « العاصى » هذا ممن عرفوا فى مكة بالأمانة والاستقامة وحسن الخلق ، وكان النبى يثنى عليه فى صهره ، وكثيرًا ماحاول المشركون أن يحملوه على ترك «زينب» فلم يتركها وازداد تعلقا بها .

وكان من الصور التى تفيض بالإنسانية المهذَّبة ، والمروءة النادرة ، أن قتلى المشركين الذين لم يجدوا من قومهم وذويهم من يدفن جثثهم ، ويوارى فى التراب أجسامهم ، صنع المسلمون بهم صنيع الانسانية والمروءة ، إذ جمعوا أشلاءهم وأجسامهم وجعلوهم فى قليب — بئر — ثم هالوا عليهم التراب ، وقد ظلَّ المسلمون بعد أن انتهت المعركة يومًا كاملا وليلة كاملة لايغادرون مكان المعركة وبينما المسلمون بالليل يسودهم الهدوء والسكون ، يستغرق فى نومه منهم من أتعبه العمل ، وأنهكته الحركة ، وأعياه الكر والفرّ فى ميدان القتال ، كان

الرسول – صلى الله عليه وسلم – واقفًا على القليب الذى يضم جثث الموتى مناجيًا تلك الجثث قائلا : (يا أهل القليب ، ياعتبة بن ربيعة ، وياشيبة بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام ، يافلان يا فلان – يذكر من فى القليب واحدًا واحدًا – : هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقًّا ، فإنى وجدت ماوعدنى ربى حقا ؟) قال المسلمون : « يارسول الله ، أتنادى قومًا جيَّفوا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى) .

ولقد كانت هذه الجولة بين المشركين والمسلمين – على الجملة – من الأيام الحالكة السواد على دولة الكفر ، والجماعة المناوئة لمحمد – صلى الله عليه وسلم – ولأصحابه معه ، ولقد كان « أبولهب » الذى فضحه القرآن الكريم فى السورة التى تلعنه وتهتك عرضه :

(تبت يدا أبى لهب وتب : ما أغنى عنه ماله وما كسب) .

من الذين استأجروا من ينوب عنه فى الخروج إلى قتال المسلمين فلما انتهى إليه نبأ هزيمة دولة الباطل ، وجيش الشرك ، وأصحاب دعوة الشيطان ، دارت به الأرض الفضاء ، وأصابه دوارٌ حاد ، مرض

بعلته أياما ثم مات ، ولم يكن هو وحده الذى تلقى كالصاعقة وقع انتصار المسلمين فى غروة بدر ، فإن كثيرًا منهم من كان يقول تعقيبًا أوتعليقًا على هذا الانتصار : « بطن الأرض أحسن من ظهرها » .

ويقول الدكتور هيكل : « ناحت من بعد قريش على قتلاها شهرا كاملا ، وجززن شعر رؤوسهن ، وكان يؤتى براحلة الرجل أو بفرسه فينحن حولها ، ولم يخالفهن فى هذا إلا « هند بنت عتبة » زوج أبى سفيان ، ولقد مشى نساءٌ منهن يوما إليها فقلن لها : « ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟ فقالت : أنا أبكيهم فيبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بنا ويشمت بنا نساءُ بنى الخزرج . لا والله ، حتى أثأر من محمد وأصحابه . والدهن عَلَىَّ حرامٌ حتى نغزو محمدا .. والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبى لبكيت ، ولكن لايذهب إلاَّ أن أرى ثأرى بعينى من قتلة الأحبة ، ومكثت لاتقرب الدهن ولاتقرب فراش « أبى سفيان » ، وتُحَرض الناس حتى كانت موقعة « أُحد » ، أما « أبو سفيان » فنذر بعد بدر ألا يمس رأسه ماءٌ من جنابة حتى يغزو محمدا » وقد فعل وفعلت زوجته هند بنت عتبة .

بعد بدر

ترك انتصار المسلمين ببدر أثره السيء فى نفوس المشركين والمنافقين واليهود على السواء : (قد بدت البغضاءُ من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر) لكن هذا الانتصار من ناحية أخرى كان عنوانًا على طور جديد من القوة والبأس ، والمهابة والسلطان ، والعنفوان والشدة ، إلى درجة أن الشعراء الذين كان يهجون « محمدا » — صلى الله عليه وسلم — ويحرّضون عليه أعداءه ، خرست ألسنتهم ، وخفتت أصواتهم ، وأصبحوا يسرون فى أنفسهم ماكانوا يباهون بالجهر به ، والإعلان له ، وقد أصبح « محمد » وأصحابه يطاولون بأعناقهم ، ويجاهرون بدينهم ، وينادون بأعلى صوتهم أنهم على الحق وكلمتهم هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وأن أحدًا من الناس لايستطيع أن يحجب النور الذى يحملونه بأيمانهم ، مهما غلت مراجل الحقد فيهم ، وازداد لهيب الكراهية فى أفئدتهم ، وكان « كعب بن الأشرف » . الشاعر اليهودى . قد وقف بمكة ليرثى قتلى القليب ، ليثير فى نفوس أهليهم وقرابتهم الغيظ الدفين ،

والألم المكبوت ، والضغن المتمكن ، وهو الذى قال الكلمة المشهورة : هؤلاء أشراف الناس ، وملوك العرب ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها . . . ، لكن هذا كله من المشركين والمنافقين وخصوم « محمد » جميعا يشبه مايسمونه حركة المذبوح ، وليس من الممكن لمحمد ولأصحابه أن يرجعوا إلى الوراء ، أو تقف بهم عجلة المضى فى الطريق إلى النهاية « جلس عمير بن وهب مع صفوان بن أمية فى الحجر - بالبيت الحرام - بعد مصاب أهل بدر بيسير وكان « عمير » شيطانا من شياطين قريش وكان يؤذى رسول الله وأصحابه ،ويلقون منه العناء ، وكان ابنه « وهب » فى أسارى بدر ، فقال صفوان : « والله مافى العيش بعدهم خير . » فقال عمير : « والله صدقت . ولولا دَيْنى وعيالى لركبت إلى « محمد » حتى أقتله ، فقال صفوان : عَلَىَّ كل ذلك ، قال عمير : فاكتم عَلَىَّ شأنى وشأنك » . ثم انطلق عمير إلى المدينة من غير علم صفوان ، فرآه « عمر » فأخبر به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال (أدخله علىَّ) فأقبل « عمر » حتى أخذ بحمالة سيفه فَلَبَّبَه بها ، فلما دخل على النبى قال : (أرسله يا عمر ، أدن يا عمير ، ما الذى جاء بك ؟

قال : جئت من أجل الذى فى أيديكم – يعنى ابنه وهبا – فأحسنوا إليه ، قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ قال : قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت عنا شيئا ؟ ! قال : اصدقنى ما الذى جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك . قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية بالحجر ، ثم قص عليه ما دار بينهما من حديث . . فقال عمير : أشهد أنك رسول الله . فقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – فقّهوا أخاكم وعلموه القرآن وأطلقوا له أسيره ، ففعلوا ، وقال عمير : يا رسول الله ، إنى كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، وأنا أحب أن تأذن لى فى القدوم إلى مكة لأدعوهم إلى الله ورسوله وإلى الإسلام ، فلعل الله أن يهديهم ، وإلا آذيتهم فى دينهم ، فأذن له فلحق بمكة ، وأسلم على يديه ناس كثيرون » .

وتدل كتب السيرة من غير استثناء على أن هذا الأثر العميق الذى تركته « غزوة بدر » فى النفوس لم يكن فى مكة وحدها وإنما كان فى مكة والمدينة ، ولذلك فإن معسكر الكفر قد تحول كله إلى جبهة حامية الوطيس لا حديث لها إلا عن الثأر والقتال

وتأديب « محمد » وأصحابه ، ولهذا فقد اجتمعوا فى دار الندوة ليقرروا ما يمكن أن يواجهوا به هذا الموقف الجديد ، وكانت الخطوة الأولى هى التنازل عن أرباح القافلة التى كان يقودها « أبو سفيان » بالتجارة من الشام ، والتى كانت هدف «محمد» وأصحابه فى أول الأمر ، وهو مبلغ كبير فى هذا الوقت ، ثم أخذوا يتصلون بحلفائهم من الأحابيش وغيرهم ، وباليهود الذين امتلأت نفوسهم بالحقد والكراهية لمحمد والذين آمنوا معه ، وانتهى ذلك كله باللقاء المعروف فى « أحد » .

أما « محمد » وأصحابه فإنهم لا يزالون فى نشوة الظفر والنصر ، لم يدر بخلدهم شبح المعارك ، ولا معنى الكرة الأخرى التى تنتظرهم من وراء السحب والحجب ، وفى الطريق إلى المدينة — وهم منصرفون من ميدان المعركة — كان الذى يعنيهم ويشغل تفكيرهم هو توزيع الغنائم ، وقسمة هذه الأسلاب التى أخذوها من عدوهم ، ولم يكن هنالك مبدأ مقرر ، ولا تشريع متبع ، ولا عرف معمول به ، وكان المسلمون فى هذه الحرب طوائف ثلاث : جماعة المطاردة التى كانت تلاحق العدو وحده

وهو لائذ بالفرار ؛ وجماعة المقاتلين التى كانت تصارع الموت ، وتتلقى الضربات ، والذين كانوا فى حراسة الرسول — صلى الله عليه وسلم — حتى لا يداهمه العدو ، أو يلحق به السوء ، فأى هذه الطوائف يأخذ الغنائم أو يظفر منها بنصيب الأسد ؟ وحسم الله — سبحانه وتعالى — هذا الخلاف ونزل قوله جل جلاله : (يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) ليفهم المسلمون أن القصد الأول والأخير هو إعلاء صوت الحق ، وتمكين راية الإسلام ، ثم تبع ذلك فيما بعد البيان لتوزيعها على أربابها . المستحقين لها : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير) فكان عليهم أن يجعلوا الخمس لهذه الجهات التى حددتها الآية الكريمة ، ثم يوزع الباقى بعد هذا الخمس كما يرى القائد العام للجيش ، وقد كان التوزيع على هذا النحو للراجل نصف ما يأخذه الفارس ، وللورثة حصة من

استشهد ، وكذلك لاحظ التوزيع من أسهم فى المعركة دون أن يحضرها ، ومن كُلِّفَ بأمر خاص بعيداً عن ميدانها .

أما الأسرى فإن حالهم كان موزعاً بين الفداء الذى كان يتراوح بين الألف إلى عشرة آلاف أو الترك كل الترك إذا كان الأسير لا يملك ما يفدى به : (فإمَّا منا بعد وإمَّا فداءً) ،وربما كان فداؤه أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ، ولم يكن هذا الرأى فى الأسرى هو الفكرة الأولى ، فإن النبى — صلى الله عليه وسلم — حينما عرض الرأى — بادئ ذى بدء — على أصحابه كان رأى « عمر » القتل والإبادة ، ليكون فى هذا الصنيع الردع والزجر ، وكان من رأى « أبى بكر » الفداءُ لما بينهم وبين المسلمين من الرحم والقرابة ، وقد كان الرأى الذى انتهى إليه الرسول — صلى الله عليه وسلم — هو الحد الوسط ، وقد أخذ المسلمون الفداء ممن استطاعه ، وتركوا من لم يقدر عليه ولم يستطعه ، وفى بعض الأحايين كانوا — شفاءً لغليلهم ، وذهاباً لغيظهم ، وثأراً لإحن

قديمة بينهم وبين الأسير - يرون أنه لا بديل من قتله ، فيقرهم النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - على ذلك ولا يعارض فيه ، وقد أخذ « عمر بن الخطاب » بوثاق « العباس بن عبد المطلب » فشَدَّهُ عليه ، فظل « العباس » يئن ليلةً كاملة فتألم الرسول له أشد الألم ، فبلغ ذلك الأنصار فعملوا على حل وثاقه وإطلاقه من غير فدية ، فأبى الرسول إلا أن يسوِّى بينه وبين الأسرى ، وقال له : (افد نفسك وابنى أخيك . . عقيل ونوفل) فاشتكى له أنه لا يجد ما يدفعه ، فقال له : (ادفع من الذى تركته لأم الفضل عند خروجك من مكة) فقال له : ومن أخبرك به ؟ قال : (أخبرنى الله) قال : أشهد أنك رسول الله ، ودفع عن نفسه مائة أوقية ، وعن كلٍّ واحدٍ من ولدى أخيه ثمانين ، وجرى فى خاطر « العباس » أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أرهقه بهذا المال الذى ألزمه بدفعه ، فنزل فى ذلك قوله تعالى : (يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أُخذ منكم) فسر بذلك « العباس » ولم يعد بعد

ذلك إلا جنديًّا مخلصا من جنود الإسلام ، يدافع عنه ، وينادى به ، ويرغّب فيه ، ويبذل له ، ويقف إلى جانب رسوله وقوف المؤمن المخلص الذى جرى الدين فى لحمه ودمه ، وخالط روحه مخالطة امتزاج ، فلم يكن منه إلا ما يكون من المؤمن الصادق . . .

حديث أحد

كان ما أصاب المشركين فى بدر حافزاً قوياً لأن تتجمع قلوبهم ، وتتلاقى أهواؤهم ، ويبذلوا كلَّ ما يملكونه لتعادل ميزان القوى ، وردِّ الاعتبار الذى كان لهم من قبل ، وكان أول شئ تناولوه بالتفكير أن تباع العير التى كان يسوقها « أبو سفيان » بالتجارة من الشام ، والتى كانت الشرارة الأولى فى بدر ثم يُجعل ثمنها فى تجهيز جيش جرار للقضاء على شوكة المسلمين ، ووقف زحفهم على طريق التجارة ، والحدِّ من محاولاتهم النيل من أهل مكة ، أو العدوان عليهم ، وبخاصة بعد هذا الذى حصل لسادتهم ، وكبار القادة منهم ، الذين عرفوا فيما بعد بأهل القليب ، والذين يمكن أن يكون قتلهم إغراء لمحمد وأصحابه بغزو مكة نفسها وتطهيرها من أشرافها وأرباب البيوتات فيها .

ولم يمض شهر واحد حتى كان « أبو سفيان » قد اتصل بحلفاء قريش — فى كل جهة — ليعدوا أنفسهم للقاء « محمد » والقضاء عليه ، وعلى من يقفون إلى جانبه من المؤمنين بدعوته ، المتفانين

فى السير على دربه ، وساعده على الاستبسال والمضى الجاد فيما يدعو إليه من تكوين جبهة قوية للخروج إلى القتال أن ظهر على المسرح العنصر النسائى من أمثال « هند بنت عتبة » وغيرها من زوجات وأخوات كبار الرؤوس فيهم ، وكانت « هند » بالذات من العوامل القوية فى إذكاء الحماسة ، وإشعال نيران الحمية والغيرة ، وكان من ضحاياها فى « بدر » أبوها وأخوها وعمها ، وكذلك كان « جبير بن مطعم بن عدى » قد فقد عمه « طعيمة بن عدى » ، وكان الغلام الحبشى « وحشى » قد اشتهر بمهارة فائقة ، وفروسية نادرة ، وإقدام لا تراجع فيه ، وأنه لا يخطئ مقاتل فريسته ، فوعده بالعتق مولاه جبير بن مطعم بن عدى وكذلك استأجرته « هند » واتفق معه الطرفان على أن تكون فريسته أو هدفه « حمزة بن عبد المطلب » ، لأنه كان حبيباً عزيزاً للرسول — صلى الله عليه وسلم — وقتله فى الميدان إيلام بالغ ! !

وكان « العباس بن عبد المطلب » عم النبى — صلى الله عليه وسلم — بمكة يرسل إلى ابن أخيه أخبار تلك التحركات ، التى

تتحركها ، قريش خطوةً خطوةً حتى لا يُؤْخذ على غرة ، أو يفاجأ مفاجأة بما لم يكن فى خلده وحسبانه ، وقد عرض الرسول الأمر على أصحابه ولم يشأ أن ينفرد بالرأى دونهم ، ولكنه أراد أن يشركهم فى الخطة التى يأخذ بها ، والأسلوب الذى يسلكه ، ويسير عليه ، ويقف به الموقف الذى يواجهه به هذا التآمر الذى يَبِيّ له « أبو سفيان » وغيره من رؤساء الكفر ، وطواغيت الشرك ، للنيل من الدعوة التى يحمل رايتها « محمد » وأصحابه ، وكان كثير من كبار الرجال من أصحابه قد رأوا أن الخطة المثلى التى يواجهون بها هذا الغزو المترقب ، أو الزحف المنتظر ، هى التحصن بالمنازل والبيوت فى المدينة ، حتى إذا ما جاء الجيش المكى بقيادة أبى سفيان وغيره ووُجِه فى المدينة من الصبيان والنساء والرجال من داخل المنازل وأسطح البيوت ومن الشوارع بما يشبه حرب العصابات ، وتزعم هذا الرأى « عبد الله بن أبى بن سلول » ولاقى ارتياحًا وقبولا عند المحنكين من ذوى الأسنان الذين لم يكن فى عقيدتهم ريب ولا شك ، إلا أن جماعة ممن فاتهم شرف الاشتراك فى « بدر » من الشبان والمتطلعين إلى الاستشهاد ألحّوا فى الخروج وملاقاة العدو خارج المدينة ، حتى جاء بعضهم

إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال له : « يا رسول الله ، إن ابنى أصابته القرعة فخرج فى بدر وكان من الشهداء فى جوار الأنبياء والصديقين ، وقد رأيته فى النوم ينعم فى الجنة وكان مما أوصانى به أن أسارع فى اللحاق به لأكون معه فى الجنة ، وأنا أرجو يا رسول الله أن أموت فى سبيل الله لألحق بابنى فى الجنة » ، وكانت فكرة الخروج وملاقاة العدو فى الميدان هى الفكرة التى انتهى إليها رأى الأغلبية ، فلم يسع الرسول — صلى الله عليه وسلم إلاّ أن ينزل على هذا الرأى الذى هو رأى السواد الأعظم ، وما هو إلاّ أن دخل بيته ولبس لامته استعداداً لخوض المعمعة وخرج إلى قومه ليعلن إليهم أنه جادٌّ فى أمره ، حتى استقبله بعض أصحاب هذا الرأى بما يفيد الرجوع عنه ، قائلين : اخلع لامتك يا رسول الله ، فإننا سنتحصن بالمنازل والبيوت ، ونرميهم من داخل حصوننا ، وسطوح دورنا ، وقد ظنوا أنهم يرضونه بهذا الرأى الذى كان يميل إليه فى بادئ الأمر ، ولكنه قال لهم : (ما ينبغى لِنَبِىٍّ لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، أنظروا ما آمركم به فاتبعوه ، والنصر لكم ما صبرتم) !

ويقول صاحب كتاب الدولة الإسلامية الأولى : « تقدم النبى بالمسلمين متجها إلى « أحد » حيث عسكرت قريش ببعض سفوحه ، ورفض أن تنضم إليه كتيبة من اليهود ، كانوا حلفاء لعبد الله بن أبى ، حذر أن توقع الاضطراب فى نفوس الجيش ، وموقف اليهود مشكوك فيه بعد الذى ظهر من خيانتهم ؛ وبعد ما امتلأت به النفوس من حقد ، وفى الطريق انخذل عنه « عبد الله بن أبى » بثلث الناس وعاد إلى المدينة ، محتجا بأنه خالف رأيه ، واتبع رأى الغلمان ممن لم يحسنوا استعمال الرأى ، وكذلك همت طائفتان أخريان من الأنصار أن تتراجعا ، متأثرة برأى «ابن أبى » لولا أن ذكرتا إيمانهما فصبرتا ، وبقى الرسول ومعه سبعمائة من المسلمين المؤمنين ليقاتلوا ثلاثة آلاف من أهل مكة كلهم موتور ، وكلهم على ثأره حريص !

وقد جعل الرسول ظهره إلى جبل « أحد » ، وصف أصحابه فى مواجهة العدو ، ووضع خمسين من الرماة على مرتفع ، وقال لهم : (احموا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئونا من ورائنا ، والزموا مكانكم لا تبرحوه ، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل

عسكرهم فلا تُفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ، ولا تدفعوا عنّا ، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل ، والزموا أماكنكم حتى يأتيكم أمرى) .

وفى تشديد النبي على الرماة ، وفى تراجع بعض الناس عنه ، وفى المناقشة التى دارت قبل الخروج ، ما يثير التفكير والتأمل فى أمر الجبهة اليثربية قبل بدء القتال ، فقد بدأت الجبهة اليثربية فى المعركة مفككة ، ورأينا كيف أن المسلمين لم يكونوا موحدى الكلمة فى الاستعداد لمقابلة العدو ، لقد كانت كلمتهم موحدة فى بدر ، وكان أمرهم جميعا ، وكانوا مثال الطاعة والنظام ، والحرص على تنفيذ أمر القيادة ، كما كانوا يقدرون قوة العدو ، ويدركون تفوقه عليهم ، ويعدون أنفسهم للصبر على الشدة ، وتمتلئ نفوسهم مع ذلك باليقين بالنصر ، وهاهم أولاء اليوم تختلف كلمتهم ، فمنهم من يرى البقاء بالمدينة والتحصن بها ، ومنهم من يرى الخروج ومناجزة العدو حيث هو بظاهر المدينة ، وقد أنستهم حماستهم أن يقدروا قيمة العدو ، ويعملوا حسابه لتفوقه فى العدد ، وأن يدركوا ما تضطرب به نفسه من الحقد والحرص على الثأر ليوم « بدر » ، وعلى كل حال فقد ابتدأت المعمعة حامية الوطيس على الرغم من عدم تعادل

القوتين ، وتكافؤ الطرفين ، وكان « أبو دجانة » قد أخذ سيف الرسول – صلى الله عليه وسلم – وجعل يحصد به الرؤوس وهو رجل قد اشتهر بالشجاعة والإقدام والفروسية ، وكان هو وحمزة « يمثلان فى جيش المسلمين القوة التى لا تقهر ، ولا تستطيع أحد أن يردهما أو يقف فى طريقهما ، وإذا كانت الانتصارات والهزائم فى الحروب تتوقف على النظام والطاعة والإيمان والعقيدة ، وأن شيئاً واحداً من هذه كلها قد يكون سَبَباً قويا فى نهاية محمودة أو غير محمودة ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم – وهو الذى لا ينطق عن الهوى – قد رسم للمسلمين – وهو لا يشك فى صدق إيمانهم – الدستور الصحيح للنظام والطاعة ، التى يحتاجها النصر ، وهو يعلم مدى الفائدة التى تعود منهما ، وفى هذه الكلمات البسيطة التى يخاطب بها الرماة الخمسين ما يدل على مقدار بصره الدقيق بالتكتيك الحربى الذى لا يعرفه إلا كبار القواد والساسة ، فإن الهزيمة لم تحل بالمسلمين فى أحد إلا بسبب هذه المخالفة ، حيث بدرت بوادر النصر فترك هؤلاء أمكنتهم وسارعوا إلى انتهاب الغنائم ، وكان كشف هذه الثغرة تمهيداً لالتفاف جناح جيش العدو بقيادة « خالد بن الوليد » حول المسلمين وإعمال السيف فيهم بعد أن انضم إليهم الفارون من أهل مكة ، وبذلك أصبح

جيش « محمد » – صلى الله عليه وسلم – هدفاً ميسوراً للمشركين ينالون منه ، ويقبضون على ناصيته ، وبفرار المسلمين ، وانطلاق الصوت المغرض : « إن محمدا قد مات » ! كان جيش « محمد » – صلى الله عليه وسلم – على الحال التى تستحق الرثاء والأسف ، إذ كان كبار المسلمين من أمثال « أبى بكر » و « عمر » و «على » قد نفضوا أيديهم من نصر الله لهم ، ولم يكن لهم تفكير إلا فى النجاة من الموت أو الأسر . . ومن خلال تلك السحابة الدكناء التى اشتبه فيها الحق والباطل تبين « كعب بن مالك » وجه « محمد » – صلى الله عليه وسلم – فنادى بأعلى صوته : « يامعشر المسلمين ، أبشروا ! هذا رسول الله بيننا ، فأشار إليه الرسول أن يسكت ، لكن المسلمين لم يلبثوا أن تبينوا حقيقة الأمر ففرحوا به ، والتفوا حوله ، ووقفوا إلى جانبه يدافعون عنه ، ومن حوله أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، والزبير بن العوام ، ورهطٌ كثير غيرهم ، وكان أبو دجانة الترس الواقى الذى وقف إلى جانبه يتلقى الرميات المصوبة إليه ، ويردها عنه ، وقد تقدم أمية بن خلف يريد قتله – صلى الله عليه وسلم – قائلا : « لا نجوت إن نجا محمد » فطعنه الرسول بحربة « الحارث ابن الصمة » طعنةً ولّى بعدها ثم مات !

وانجلت هذه المعركة عن شدائد شديدة عاناها الرسول ، وإصابات بالغة لقيها ، وطارت قريش بنصرها سروراً وفرحا حتى قال أبو سفيان : « يوم بيوم بدر وموعدنا العام القابل » . وكان قد وقر فى ذهن « أبى سفيان » أن النبى فى القتلى هو وأبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وكبار الصحابة ، فلما تبين له أنهم لا يزالون على قيد الحياة حزن حزنا شديدا .

ولما خلا الميدان من المشركين وأخذوا طريقهم إلى مكة خرج النبى — صلى الله عليه وسلم — إلى ساحة المعركة ليتفقد موتاه ليأمر بدفنهم وإهالة التراب عليهم فراعه عمه « الحمزة » فى القتلى قد مثل به — وكانت هند بنت عتبة زوج أبى سفيان قد بقرت بطنه وأخذت كبده لتلوكها — فلما رآه على تلك الحال غضب غضبا شديدا وقال : (لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلا منهم . .) فأنزل الله عليه قوله : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون) فهدأ — صلى الله عليه وسلم — وقال : (أصبر واحتسب) ونهى عن المثلة . .

وكان من طريف أخبار أحد أن النبى – صلى الله عليه وسلم – لما التقى ببعض هؤلاء الذين فروا من الميدان ، وعاتبهم فى ذلك الفرار ، كان ردهم عليه أنهم قد انتهى إلى مسامعهم خبر موته ، فلم يجدوا بعد ذلك سبباً لصمودهم واستمرارهم فى المعركة الدائرة بينهم وبين العدو ، وهنالك نزلت الآيات : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين ، وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) .

ولم يشأ النبى إلا أن يترك لهم المدارسة للحالة وأخذ العظة والعبرة رجاء ألا تتكرر المأساة فيما بعد أمام هذا العدو ، الذى يتربص بهم الدوائر فى كل موقف وكل مبارزة يتاح لهم أن يلتقوا به فيها ، ولذلك فإنه لم يعرف عن المسلمين أن تكررت

هذه المأساة فيما بعد ، مأساة الخروج على أوامر القائد ، ومخالفة تخطيطه الذى يرسمه للمعركة مع العدو ، وربما كان الذى استفاده المسلمون من هذه الهزيمة ، وبخاصة بعد شماتة المنافقين واليهود بهم ، من أحسن الدروس فى تعليمهم الجرأة على عدوهم وكيفية الاستعداد للوقوف فى وجهه وقوفا يشيع فى نفسه الرعب .

قاتل حمزة

كان خروج المشركين إلى « أحد » مسبوقا بحوافز كثيرة ، وتصميم أكيد ، واستعداد تام لغسل العار الذى لحق بهم من جراء الهزيمة التى حلت بهم ببدر ، ولذلك فإنهم تأهبوا لها بكل ما يمكن أن يتأهبوا به من عتاد ومال ورجال ، ولم يكن ذلك قاصرا على الرجال وحدهم ، وإنما شاركت الرجل المرأة ، وكان الصراع بينها وبينه قويا على هذا الخروج ، فالرجال يرون أن الميدان لهم ، والحرب تبعة يتحملونها ، ومن العيب أن تحمل المرأة السلاح إلا إذا فنى الرجال ولم يبق من يزود عن العرض ، ويأخذ بالثأر ، ويذب عن الحمى ، ويدافع عن الحريم ، والمرأة تريد أن تشفى غليلها ، وتثأر لقتلاها ، وترى مصارع أعدائها .

وبعد صراع فى الرأى ، ومحاولة استعملت المرأة فيها أسلوبها الخداع ، وعواطفها المشبوبة ، وفؤادها الملتاع ، خرجت « هند بنت عتبة » ومعها عدد من النسوة لا يقل عن خمسة عشرة ، وحملن معهن صنماً على جمل ليبارك نواياهن ، ويقرن بهنّ

التوفيق فى سعيهن ، ويجعل النصر لهن على العدو ، وكان هؤلاء النسوة ومعهن هند يرددن الأناشيد الحماسية التى تلهب فى قلوب الرجال نيرانَ الاستبسال والشجاعة ، حتى لا يتردد أحد فى إقدامه وكره على الخصوم الكرة القاضية .

وإذا كان لكل واحدة منهن ثأر تطلبه ، فإن هند بنت عتبة » كان لها أكثر من ثأر ، لأنها كانت تندب أباها وأخاها وعمها ، ولهذا كانت أكثر النساء إلحاحاً فى الخروج إلى المعركة مع العلم بأنها لم تكن من السوقة ، ولا النساء اللائى ينطلى عليهن التبذل ، والاختلاط بالرجال فى ميدان كروفر ، إلا أن المصائب لا قانون لها ، ولا يمكن لدستور أن يتحكم فيها ، أو يوجّه خطّ سيرها ، لذلك كان خروج من خرجن إلى ميدان المعركة فى « أحد » خارجا عن القانون ، مغايراً للمألوف .

وقد ساعد « هند » إلى جانب مصابها الفادح أن تيسّر لها أن تضع يدها على فتًى مفتولَ الذراعين ، حديد النظر ، جرىء القلب ، غير هياب ولا وجل ، طمعت أن تُغريه بالمال ليأخذ لها بالثأر الذى يشفى غليلها ، ويُروى ظمأها ، ويمسح دموعَها ، ويريح

نفسها ، وكان ذلك الفتى هو الغلام الحبشى « وحشى » عبد « جبير بن مطعم بن عدى » ، وهو فارس لا تخطئ ضربته ، ولا يخيب قصده ، ولا ينبو سيفه ، ولا ينجو منه منازله ، وقد اطمأنت كل الاطمئنان لأنه وعدها أن يقتل عدوها اللدود « حمزة بن عبد المطلب » ، وكان وحشى هذا قد وعده كذلك سيده « جبير بن مطعم » أن يعتقه إن هو قتل « حمزة بن عبد المطلب » لأنه قاتل عمه « طعيمة بن عدىّ » ، وعلى هذا فإن وحشيًّا الحبشى يهزه إلى الحرب ، ويغريه بقتل « حمزة » عاملان قويان المال الذى وعدت به « هند » ، والعتق الذى وعد به سيده « جبير بن مطعم » .

لكننا قبل أن يأخذ حديثنا عن وحشى نهايته يجدر بنا أن نقف وقوفا قصيراً عند « حمزة » الذى تحاك له هذه المؤامرات كلها لنرى هل كان يستحق كلُّ هذا الاهتمام من خصومه ؟

فى الحق أن « حمزة بن عبد المطلب » لم يكن مجرد إنسان فى صفوف « محمد » يغار على دينه ، ويدافع عن عقيدته ، ويحارب خصومه ، ويخيف عدوه ، ويرد عنه كيد الكائدين ،

وإنما هو عمه — أولا — وإلى جانب هذا فهو من القلوب النقية التى تحيطه بالحب ، وتخصه بالرعاية ، وتمحضه الود الصادق ، والإخلاص النادر ، وكان منذ نشأته ملازما للرسول لا يفارقه إلا على الكره منه ، وكان مع هذا كله من الفرسان المغاوير الذين تهتز لوتهم الجبهة الإسلامية كلها ، ويحدث موته فيها اهتزازاً يتصدع له جدار دعوة « محمد » — صلى الله عليه وسلم — والتركيز على اختفاء وجهه من الميدان — إلى جانب كونه إيلاماً بالغاً لمحمد — ثغرة واسعة ، وفجوة فسيحة فى الصف اليثربى ، وبخاصة بعدما تبين بلاؤه فى « بدر » ، وقتله لرجالات قريش الذين كان قتلهم الجرح الذى لا يندمل ، وقد صدق ذلك كله فجيعة الرسول عليه ، وتهديده إذا نصره الله على قريش ، وأمكنه منهم ، أن يمثل بثلاثين رجلاً فى مقابل المثلة بحمزة وحده ، وكذلك ا جاء فى قصة إسلام « وحشى » من قول الرسول له : هل تستطيع أن توارى وجهك عنى فإنى لا أحب أن أراك ؟ فى حين أنه قد جاء إليه ليعلن إسلامه ، أو أنه كان أعلنه حينئذ .

وقد اتفقت كتب السيرة والتاريخ على هذا الحديث الذى يحكيه عن قتله لحمزة إذ سأله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسأله غيره كذلك : « قال عبيد الله بن عدى سألت أنا وآخر وحشيا ، قلت جئناك لتحدثنا عن قتلك « حمزة » كيف قتلته ؟ قال وحشى : أما إنى سأحدثكما كما حدثت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين سألنى عن ذلك . . كنت غلاماً لجبير ابن مطعم وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم بدر ، فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير ، إن قتلت حمزة عم « محمد » بعمى فأنت عتيق ، فخرجت مع الناس وكنت رجلاً حبشيًّا أقذف بالحربة قذف الحبشة ، فلما أخطىء بها شيئا ، فلما التقى الناس خرجت أنظر « حمزة » وأتبصره ، حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأورق يهد الناس بسيفه هدًّا ما يقوم له شىء ، فوالله إنى لأتهيأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى ، إذ تقدمنى إليه « سباع بن عبد العُزَّى » ، فلما رآه « حمزة » قال : له هلمّ إلىّ يابن مقطعة البظور ، فضربه

ضربة كأنما أخطأ رأسه ، وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه ، وذهب لينوء نحوى فَغُلِبَ ، وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتى ، ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه ، ولم يكن لى بغيره حاجة ، وإنما قتلته لأعتق ، فلما قدمت مكة أُعتقت ، ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ مكة هربت إلى الطائف فمكثت بها ، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليسلموا تعيّت علىّ المذاهب ، فقلت : ألحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد ، فوالله إنى لفى ذاك من همى إذ قال لى رجل : ويحك ! إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل فى دينه ، وتشهد شهادة الحق ، فلما قال لى ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالمدينة ، فلم يرعه إلّا بى قائماً على رأسه أتشهد بشهادة الحق ، فلما رآنى قال : أوحشى ؟ قلت : نعم . يا رسول الله ، قال : أُقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة ؟ فحدثته كما حدثتكما ، فلما فرغت من حديثى قال : ويحك ! غيب عنى وجهك فلا

أَرَيْنَّكَ ! ! فكنت أتنكب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حيث كان لئلا يرانى ، حتى قبضه الله ، فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم وأخذت حربتى التى قتلت بها حمزة . فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذّاب قائماً فى يده السيف وما أعرفه ، فتهيأت له وتهيأ له رجل من الأنصار فضربه بالسيف ، فربك أعلم أينا قتله ، فإذا كنت قتلته ، فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، وقد قتلت شر الناس » .

ومن هذه القصة يظهر لنا أن الرجل الذى يتمكن الشر من نفسه ، ويغلب الانحراف على طبعه ، لا يلبث إذا خالطت الهداية قلبه ، أن يكون صلبا فى الحق ، مستميتاً فيه ، مدافعا عنه ، لا يتزحزح ولا يشك ولا يرتاب ، وفى حرص « وحشى » على أن يرضى عنه النبى — صلى الله عليه وسلم — وشغله نفسه زمناً طويلاً بهذا الرضا ، دلالة على أن عقيدته راسخة ، وإيمانه ثابت ، وربما كان أول المؤمنين بأن النبى — صلى الله عليه

وسلم - حينما قال له غيب وجهك عنى لم يقلها كرها لأن يراه في صفوف المسلمين يعلن إيمانه الذى ملأ قلبه ، وأخذ عليه هواجسه وأحلامه ، ولكن قالها تعبيراً عن كامن اللوعة المكبوتة في نفسه على عمه ، الذى كان يحبه ويقف بجانبه ، ويساعده في التمكين لكلمة السماء ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وكان قتله خسارة ما بعدها خسارة للإسلام والمسلمين من غير شك ! !

بين أحد والأحزاب

على الرغم من صمود النبي – صلى الله عليه وسلم – فى نهاية معركة أحد والمسلمون قد انفضوا من حوله بعد شعورهم بأن مقاومتهم للعدو، ووقوفهم فى وجهه ضرب من العبث ولون من ألوان الانتحار، حتى لقد كاد صموده هو نفسه يكون عبثاً وانتحاراً ، لأنه بعد انفضاض المسلمين من الميدان كان يعرض نفسه للموت بغير ثمن ، وللهزيمة بدون جدوى، وقد كان الأجدر به والهزيمة تحل بالجيش لا محالة أن يهيئ لنفسه طريقا للفرار كما فعل كثير من أصحابه حرصا على حياته من الهلاك ، وإبقاء على روحه التى لم يكن ليملكها وحده ، ولكنها كانت ملكا للبشرية التى يعمل لها ، ويكدح لإنقاذها ، ويعيش ليأخذ بيدها ، ويكافح للنهوض بها ، وتوجيهها إلى مستقبل أفضل ، وحياة أحسن ، وسلوك أمثل ، إلا أنه أراد أن يضرب المثل للناس على أنه وهو يحمل أعباء الرسالة ، ومسئولية الدعوة إلى الله ، لا يعنيه أن يكون إلى جانبه قوة من الناس تسانده ، وجيش من المحاربين يعاضده ، لأنه لا يود أن ينتصر بالسيف ، ولا أن يغلب بالقوة ، ولا أن يظهر بالبطش ، ولا أن يعلو بالعدد والعدة ، وهو الذى

يعتمد على المنطق ، ويدعو إلى الحق ، ويقود الإنسانية إلى التى هى أقوم ، ومثله لا يثقل ميزانه أن ينتصر فى معركة ، أو يغلب فى جولة ، أو يضطر خصمه معه إلى أن ينزل على حكم القوة ، أو إرادة التسلط والنفوذ ، لأن هذا هو أسلوب المفلسين من الحجة والبرهان ، أو الصواب والحق .

على أن انصراف خصومه عنه مع هذا النصر الساحق الذى أصابوه كان من المعجزات التى أيده الله بها ، والخوارق التى سخَّرها له ، فلقد وقفت له قلة قليلة تناوشه ، ونفر ضئيل يحاربه ، فنال منه بعض الذى يحب لا كل الذى يحب أمّا بقية الجيش فإنها كانت على يقين أنه قتل ، وليس هنالك بعد الذى كان ما يدعو إلى حرب شاملة . أو معركة حامية ، فلما تبين لهم بعد الانصراف من الميدان أن « محمدا » لا يزال على قيد الحياة ندموا أشد الندم أنهم لم يتخلصوا منه ، ولم يقضوا عليه القضاء الأخير ، ولذلك كثرت دراستهم لهذا الموقف وحطوا رحالهم وهم فى طريقهم إلى مكة دون أن يتريثوا وأجمعوا الرأى على أن يأخذوا طريقهم إلى « يثرب » لتأديب « محمد » ومن معه بعمل حاسم يحملهم على ألا يفكروا فى الوقوف فى وجه أهل مكة أثناء مرورهم بالتجارة من الشام أو إليها .

ولم يكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يشك فى أن خمر الانتصار الذى حصلت عليه قريش – وبخاصة بعد قول « أبى سفيان » فى نهاية المعركة : « يوم بيوم بدر والموعد فى بدر مرة أخرى فى العام المقبل » – سيحملها على التمرد والطغيان والغرور وأن ذلك سيسوقها لا محالة إلى الطمع فى الدخول إلى يثرب ، التى يتحصن بها محمد والمسلمين معه لقطع الطريق على المارة من مكة أو إلى مكة بالتجارة ، ولهذا فإنه – صلى الله عليه وسلم – لم يرد أن يظهر بمظهر المقهور الذى خرج من المعركة مُثْخَنًا بالجراح حتى لا يزداد طمع عدوه فيه ، ولكنه أقام فى الطريق من غير أن يواصل السير إلى المدينة ، وظل بحمراء الأسد ، على بعد ثمانية أميال من المدينة ، وكان أبو سفيان هو وأصحابه بالروحاء ، على بعد سبعة وثلاثين ميلا بعد أن لامته قريش على انصرافه دون أن يقضى على « محمد » وأصحابه ، وقد أراد – صلى الله عليه وسلم – ببقائه على الطريق أياما أن تفهم قريش أنه لا يزال على أتم الاستعداد للقائهم ، ودفع عدوانهم ، وإشاعة الرهب فى قلوبهم ، وقد حاولت جماعات متفرقة من المشركين الالتقاء ببعض جماعات من المسلمين كان نصيبها من تلك اللقاءات الفرار والهزيمة ،

وكان ذلك كله مضافاً إليه تنكيل « محمد » باليهود وإشاعته الخوف والفزع فى نفوس المنافقين ، عاملا قويًّا حادًّا فى أن تعاود قريش واليهود والمنافقون تأليب خصوم الإسلام واستعراض عضلاتهم جميعاً فى مبارزة جديدة عرفت فيما بعد ذلك بغزوة الأحزاب أو غزوة الخندق .

ويقول الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » : « فلما كان الغد من يوم أحد لست عشرة ليلة مضت من شوال ، أذَّن مؤذن النبى فى المسلمين بطلب العدو ، واستنفرهم لمطاردته ، على ألا يخرج إلاَّ من حضر الغزوة ، وخرج المسلمون فوقع فى روع أبى سفيان أن أعداءه جاءوا من المدينة بمدد جديد فخاف لقاءهم ، وبلغ محمد حمراء الأسد وكان أبو سفيان وأصحابه بالروحاء ، فمر به « معبد الخزاعى » ، وكان قد مر بمحمد ومن معه ، فسأله عن شأنهم ، فأجابه معبد — وكان لا يزال على الشرك — : « إن محمدا قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط . وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه ، وكلهم أشد ما يكونون عليكم حنقا ، ومنكم للثأر طلبا » » .

على أن « أبا سفيان » فكر من جانبه فيما يكون لفراره من « محمد » ، ومن عدم مواجهته إياه بعد انتصاره عليه من الأثر ، أفلا تقول العرب فى قريش ما كان يود أن تقوله فى محمد وأصحابه ؟ ولكن هبه رجع إلى « محمد » فهزمه المسلمون إذاً ليكونن ذلك القضاء الأخير على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبداً ! ! فلجأ إلى الحيلة ، فبعث مع ركب من « بنى عبد القيس » يقصدون المدينة يبلغون « محمداً » أنه قد أجمع السير إليه وإلى أصحابه ليستأصل بقيتهم ، فلما أبلغ الركب الرسالة إلى « محمد » بحمراء الأسد لم يتضعضع عزمه ، ولم تهن قوته ، بل ظل فى مكانه يوقد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابعة ، ليدل قريشا أنه على عزمه ، وأنه منتظر رجعتهم ، وأخيراً فترت همة أبى سفيان وقريش وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأحد ، وعادوا أدراجهم ميممين مكه . ورجع « محمد » إلى المدينه وقد استرد كثيرا من مكانته التى تزعزعت على أثر الهزيمة فى أحد » .

وفى هذا الموقف الذى وقفه المسلمون مع النبى بحمراء الأسد وغيرها لإرهاب العدو وتخويفه نزل قوله سبحانه ثناءً عليهم : (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو الفضل عظيم) ولم يمض عام واحد على « أُحد » حتى كان الموعد الذى هدّد « أبو سفيان » بلقاء المسلمين فيه « ببدر » قد حان ، فخرج أبو سفيان إلى بدر وخرج الرسول — صلى الله عليه وسلم — بعد أن هدّد أنه لا يتخلف عن الخروج ولو أدى ذلك إلى أن يخرج وحده ، وكان لهذا التهديد أثره فى حماسة المسلمين وإقدامهم البالغ بعد أن كان فيهم فتور وتردد ، وقد أقام ثمان ليال ينتظر أبا سفيان ، لكن أبا سفيان بدا له أن يرجع معتمدًا على أن العام لم يكن خصبا ، وقال : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ، ترعون فيه الشجر وتشربون اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب فارجعوا ، فرجع الناس .

أما المسلمون فإنهم اتجروا فى سوق بدر وعادوا بربح عظيم لعله هو المقصود فى آخر الآيات السابقة بقوله جل شأنه : (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل) ويقول المؤرخون : إن النبى — صلى الله عليه وسلم — لم يرجع إلى المدينة بعد هذه الرحلة الميمونة ، التى كانت إلى بدر الثانية والتى انقلب المسلمون بعدها بنعمة من الله وفضل إلا وقد صنع من التطهير العام فى الطريق ، وإشاعة الرعب فى نفوس المتمردين ، ما لم يكن له أن يصنعه فى سنوات ، وكان أبرز ما صنع هو جلاء بنى النضير الذى كان بعد جلاء بنى قينقاع الضربة القاصمة التى وجهت إلى اليهود جبهة المعارضة للرسول وأصحابه ، ثم كانت بعد ذلك غزوة الخندق أو الأحزاب التى لم تجن من ورائها بعد التجمع ومحاصرة المدينة والفشل الذى منيت به إلا القضاء على بنى قريظة وبذلك كله صار المركز القوى للإسلام والمسلمين .

حديث الإفك

كانت غزوة «المريسيع» – أو بنى المصطلق – إحدى العمليات الحربية التى أراد بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يثبت لأعدائه من المشركين والمنافقين أن هزيمة «أحد» لم تفت فى عضد ، ولم تضعف شوكته ، لكن المنافقين الذين أصبحوا يخافون قوته ، ويرهبون بأسه ، لايزالون يعملون من طريق حرب الإشاعات على تشويه سمعته ، وتلفيق الأكاذيب له ، وامتلاء الجو من حوله بالضباب والدخان ، لتكون هذه الحرب النفسية تقويضا لبنائه الضخم ، وتلويثا لتاريخه الناصع ، وقد أمكنتهم الفرصة المتاحة من أن يصلوا إلى غرضهم هذا من أيسر الطرق وأقربها ، إذ انقطعت «عائشة» – رضى الله عنها – عن الركب لداع ضرورى وقد أركبها راحلته رجل كان – أيضا – تأخر كما تأخرت ،وكان هذا ذريعة الإفاضة فى حديث غير كريم ، القصد منه تعكير الصفو ، وإثارة الفتنة ! .

والقصة – كما ترويها صاحبتها – «عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : كان – صلى الله عليه وسلم – إذا أراد أن يخرج

سفرا أقرع بين أزواجه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فأقرع بيننا فى غزاة غزاها ، فخرج سهمى فخرجت معه بعدما أنزل الحجاب ، فأنا أحمل فى هودج وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من غزوته تلك وقفل ، ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل فقمن حين آذنوا ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى ، أقبلت إلى الرحْل فلمست صدرى فإذا عقدلى من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه فأقبل الذين يرحلون لى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم ، وإنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه ، وكنت جاريةً حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجئت منزلهم وليس فيه أحد ، فأممت منزلى الذى كنت فيه وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلىّ فبينا أنا جالسة غلبتنى عيناى فنمت ، وكان « صفوان بن المعطل السلمى » ثم الذكوانى من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلى فرأى سواد

إنسان نائم فأتانى وكان يرانى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته ، فوطئ يدها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرسين فى نحر الظهيرة ، فهلك من هلك ! وكان الذى تولى الإفك « عبد الله بن أبى بن سلول » ، فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك ، ويريبنى فى وجعى أنى لا أرى من النبى — صلى الله عليه وسلم — اللطف الذى كنت أرى منه حين أمرض ، إنما يدخل فيسلم فيقول : كيف تيكم ؟ لا أشعر بشىء من ذلك حتى نقهت ، فخرجت أنا و « أم مسطح » قبل « المناصع » — متبرزنا — لا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى البرية . أو فى التنزه ، فأقبلت أنا و « أم مسطح بنت أبى رهم » نمشى فعثرت فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ! فقلت لها : بئسما قلت ! أتسبين رجلا شهد بدرا ؟ ! فقالت : ياهنتاه ! ألم تسمعى ماقالوا ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، فازددت مرضا على مرضى ، فلما رجعت إلى بيتى دخل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : كيف تيكم ؟ فقلت : إئذن لى إلى أبوىَّ .

قالت : وأنا أريد حينئذ أن أستيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأتيت أبوىّ فقلت لأمى مايتحدث الناس به ؟ فقالت : يابنية هوّنى على نفسك الشأن ! فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ! فقلت : سبحان الله : ولقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبت تلك الليلة ، حتى أصبحت لايرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- « على بن أبى طالب » و «أسامة بن زيد » حين استلبث الوحى يستشيرهما فى فراق أهله ، فأما «أسامة» فأشار عليه بالذى يعلم فى نفسه من الود لهم ، فقال أسامة : أهلك يارسول الله ! ولا نعلم إلاّ خيرا ، وأما «على» فقال : يارسول الله ، لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك ! فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «بريرة » فقال : يابريرة ، هل رأيت فيها شيئا يريبك ؟ فقالت . بريرة : لا والذى بعثك بالحق ! ما رأيت منها أمرا أغمصه عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتى الداجن فتأكله . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

من يعذرنى من رجل بلغنى أذاه فى أهلى ؟ فو الله ماعلمت على أهلى إلاخيرًا ، وقد ذكروا رجلا ماعلمت عليه الاخيرا ، وماكان يدخل على أهلى إلا معى . فقام « سعد بن معاذ » فقال : يارسول الله ، أنا والله أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك . فقام « سعدبن عبادة » — وهو سيد الخزرج — وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا ، ولكن احتملته الحمية ، فقال : كذبت والله لاتقتله ولا تقدر على ذلك ، فقام «أسيد بن الحضير» فقال : كذبت لعمر الله . لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — على المنبر ، فنزل فخفضهم حتى سكنوا وسكت ، وبكيت يومى لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، فأصبح عندى أبواى وقد بكيت ليلتين ويوما حتى أظن أن البكاء فالق كبدى ، قالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى ، إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى ، فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجلس ، ولم يجلس عندى من يوم قيل لى اقيل بلها ، وقد

مكث شهرًا لايوحى إليه فى شأنى بشئ . قالت ، فتشهد ثم قال : ياعائشة ، لقد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ! وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله ، وتوبى إليه ! فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه ! فلما قضى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ! وقلت لأبى : أجب عنى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : والله ، ما أدرى ما أقول لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ؟ فقلت لأمى : أجيبى عنى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيما قال . قالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ؟ قالت : وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن ، فقلت : والله ، لقد علمت أنكم سمعتم مايتحدث به الناس ، ووقر فى أنفسكم وصدقتم به ، ولئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم إنى لبريئة لاتصدقونى بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم إنى لبرئية لاتصدّقونى ، والله ما أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف إذقال : فصبرٌ جميل والله المستعان على ماتصفون ! ثم تحولت على فراشى ، وأنا أرجو أن يبرئنى الله ولكن والله ماظننت أن الله يُنزل فى شأنى وحيًا يتلى ، ولأنا أحقر فى نفسى

من أن يُتَكَلَّمَ بالقرآن فى أمرى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها ، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحى فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى يوم شات ، فلما سُرّى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لى : ياعائشة ، احمدى الله فقد برأك الله ! فقالت لى أمى : قومى إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقلت : لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلاَّ الله ! فأنزل الله — عز وجل — (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم . . . الآيات) فلما أنزل الله — عز وجل — هذا فى براءتى ، قال أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — وكان ينفق على «مسطح بن أثاثه» لقرابته منه — : «والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعدما قال لعائشة ! فأنزل الله — عز وجل : (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى . . . إلى قوله والله غفور رحيم) فقال أبو بكر : بلى ، والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى «مسطح» الذى كان يجرى عليه .

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأل «زينب بنت جحش» عن أمرى ، فقال : يازينب ماعلمت ؟ مارأيت ؟ فقالت : يارسول الله ، أحمى سمعى وبصرى ، والله ماعلمت عليها إلا خيرًا ! قالت : وهى التى كانت تسامينى ، فعصمها الله بالورع » .

وفى هذه القصة عظات وعبر :

منها أن الشدائد كانت تلاحقه - صلى الله عليه وسلم - فى كل خطوة من خطوات دعوته ، إلى الله سبحانه وتعالى ، فى نفسه ، وفى أهله ، وفى سبيل إعلان هذه الدعوة وإبلاغها إلى الناس ، ومع ذلك كله فإنها لم تستطع أن تصرف جهده ، أو تثنى عزمه ، أو أن تشيع اليأس فى نفسه ، أو تعوق خطوه ، أو تنال من ثقته بربه ، أو تشوه تاريخه ، أو تقف فى وجهه ليتحول عن السنن الذى هو ماض فيه . .

ومنها - كذلك - أن مع العسر يسرا - كما يقول الله سبحانه وتعالى - فإن «عائشة» - رضى الله عنها - لما شهدت لها السماء ، وبرأها الوحى ، ونوهت بها الآيات البينات ، صنا

الإيمان بطهرها عقيدةً ، ورميها بالزنا كفرا ـ والعياذ بالله : ـ (ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدًا إن كنتم مؤمنين) . !

ومنها أن المولى جل وعلا لا يتخلى عن أوليائه فى أحرج الأوقات ، وأحلك الظروف ، مهما كانت قوى العدوان تلاحقهم ، وعناصر الشر تحاربهم ، والخصوم يكيدون لهم ، ويتفقون عليهم ، وقد كان مسطح الذى أذاع هذا الفحش ، وعبدالله بن أبى الذى تولى كبره ، ومن أخذوا عنهما هذه الفرية يظنون أنهم أصابوا من محمد صلى الله عليه وسلم مقتلاً ، أو كشفوا له هناة ، ولكن الله قد رد كيدهم فى نحرهم : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرًّا لكم بل هو خير لكم » ولو علم هؤلاء الذين رموا عائشة رضى الله عنها بهذا الإفك أنها ستحصل على هذه الشهادة من رب الأرباب ، بنزاهة العرض ، وطهارة الجانب ، وشرف القدر ، وسمو المنزلة ، لما كان منهم إلا الخرس ،

ولكنه الحمق الذى جعلهم يسعون إلى حتفهم بظلفهم ، ويقدمون على سلوك يكون من ورائه لهم الويل والخزى ، والأسى والأسف ، والحسرة والخيبة ، والصغار والهوان .

ومنها — وهى أهم من ذلك كله وأعظم — أن الذى يهتم بكشف الأستار ، وافتضاح الأعراض ، يتخبط فى منطقه ، ويلتوى فى سيره ، ولا يبالى أن تمشى به رجله إلى حتفه ، وتنتهى به إلى خاتمة لايرضاها ، وغاية لايحمدها ، أم إنها ستصل به إلى شاطئ الأمان ، ومواطن السلامة والعافية ، فإن هذا الرجل الذى اهتم به مروّجوا هذه القالة ، وجعلوا منه بطلا لتلك الأسطورة ، ظهر من مجريات الحوادث والأمور — فيما بعد — أن إسناد دور البطولة إليه فى هذه الخرافة الملفقة ، والفرية المصنوعة ، لم يصادفه التوفيق ، ولم يقترن به الصواب والسداد ، لأنه رجل « غرهاة » كما تقول كتب المعاجم ، وقواميس اللغة ، ويفسرونه بأنه لايرغب فى النساء ، ولا يتوق اليهن ، ولا يخشى عليهن منه ، لأنه يفقد الفحولة ، ولا يوجد عنده الميل الجنسى ، ولايمكن أن يشتاق إلى المرأة ، أو يحن إليها ، أو يطلبها ،

أويرى أنها تُرضى فيه نزوعًا ، أو تشفى غليلا . . ولذلك فإن عبد الله بن أبي وهو المقصود بقوله سبحانه : « والذى تولّى كبره منهم له عذاب عظيم » لم يؤمن بأنه شفى غيظ نفسه من محمد وأصحابه بهذا الإفك حتى راح يؤلب النفوس ، ويثير القلوب ، ويقدم للفتنة وقودًا آخر وآخر مصورا ذلك كله فيما سجله القرآن الكريم بن حزازاته «هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون ؛ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزمنها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون » وكأنما كان يعتقد أنه «كقابض على الماء خانته فروج الأصابع »

الخندق أو الأحزاب

مع تلك المجابهات الكثيرة التي كانت بين المشركين والمسلمين والزعر الذي بدأ يدب في قلوب خصوم محمد صلى الله عليه وسلم من مواقف البطولة التي كانوا يرونها غير مرة من أصحابه رضوان الله عليهم ، فإن العداوة التي كانت بادية في سلوكهم معه ، ونواياهم نحوه ، لم تكن لتنقطع بوادرها ، أو تخفى ظواهرها ، أو تنتهي نتائجها المتكررة في كل يوم وكل مناسبة وكانت غزوة الخندق أو الأحزاب هذه هي أبرز تلك المسرحيات التي تجلى فيها بشكل واضح تيقظ مؤامراتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ووضح وضعهم الشاذ بالنسبة له ، حين تيقظت خصومتهم الحقيرة المتمثلة في تحركاتهم المريبة هنا وهنالك لحشد الجيوش ، واتخاذ العدة ، وإشعال نار الحرب ، وإعلان التغير العام ، على هذا الذي جعل الآلهة إلها واحداً ، ويقول المرحوم الشيخ محمد الخضري : « لم يقر لعظماء بني النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم ، وإرث المسلمين لها بل كان في نفوسهم دائما أن يأخذوا ثأرهم ، ويستردوا بلادهم ، فذهب

جمع منهم إلى مكة ، وقابلوا رؤساء قريش وحرضوهم على حرب رسول الله ، ومنوهم المساعدة ، فوجدوا منهم قبولاً لما طلبوه ، ثم جاءوا إلى قبيلة غطفان وحرضوا رجالها كذلك ، وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب ، فوجدوا منهم ارتياحا ، فتجهزت قريش وأتباعها يرأسهم أبو سفيان ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة العبدرى ، وعددهم أربعة آلاف ، وتجهزت غطفان يرأسهم عيينة بن حصن الذى جازى إحسان الرسول إليه كفراً فإنه أقطعه أرضا يرعى فيها سوائمه حتى إذا سمن خفه وحافره قام يقود الجيوش لحرب من أنعم عليه ، وكان معه ألف فارس ، وتجهزت بنو مرة يرأسهم الحارث بن عوف المرى وهم أربعمائة ، وتجهزت بنو أشجع يرأسهم أبو مسعود بن رخيلة ، وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس وهم سبعمائة ، وتجهزت بنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدى وعدة الجميع عشرة آلاف محارب قائدهم العام أبوسفيان ، ولما بلغه عليه السلام أخبار هاته التجهيزات استشار أصحابه فيما يصنع أيمكث فى المدينة أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار؟ فأشار عليه سلمان الفارسى بعمل الخندق وهو عمل لم تكن العرب

تعرفه ، فأمر عليه السلام المسلمين بعمله وشرعوا فى حفرة شمالى المدينة من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية وهذه هى الجهة التى كانت عورة تُؤْتى المدينة من قبلها ، أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل لايتمكن العدو من الحرب جهتها ، وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة فى حفر الخندق لأنهم لم يكونوا فى سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل ، وعمل معهم عليه الصلاة والسلام ، ويقول الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف فى الإعداد الذى سبق غزوة الأحزاب هذه «اختمرت فكرة تأليب العرب على المسلمين فى يثرب فى نفوس اليهود من بنى النضير الذين لجأوا إلى خيبر بعد إجلائهم عن المدينة، وأرادوا لها أن تكون محاولة نهائية ، ومعركة حاسمة يخوضونها ضد محمد ، وفى سبيل ذلك لم يدّخروا جهداً من حيلة أو مكر أو مال .. وتنفيذاً لهذه الفكرة خرج نفر منهم من بينهم حيي ابن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق، وأخوه كنانة ، ومعهم جماعة من يهود خيبر حتى قدموا على قريش مكة ، وقد بدأوا بقريش لأنها التى تحمل لواء المعارضة ، ولأنها القوة المعادية للمدينة ، وهى التى بينها وبين المسلمين حربٌ معلنة لم تنته ،

لكن قريشا كانت قد بدأت تمل الحرب ، وبدأت جبهتها الداخلية تتضعضع ، وأخذ الحصار الاقتصادى يؤثر فيها تأثيرا كبيرا جعلها تفكر فى إعادة النظر فى موقفها تجاه هذه الدولة الجديدة التى نشأت فى يثرب ، وأخذت عليها طرق تجارتها ، وأثبتت حتى الآن أنها قادرة على الثبات والنمو ، لذلك بدت مترددة غير واثقة ، فليس بينها وبين محمد خلاف إلا على الدعوة التى يدعو بها ، وليس بعيداً أن يكون على حق مادامت كلمته تزداد كل يوم رفعة وسموا . . . وأرادت قريش أن تستوثق من خطة اليهود فسألت حييا عن قومه من بنى النضير ، فقال تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه ، وسألوه عن بنى قريظة ، فقال أقاموا بالمدينة مكرًا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم عليه ، ومازال بقريش يسهل لهم الأمر ويرغبهم ، حتى أخذ معهم موعداً بعد أشهر يكون قد جمع لهم فيها الأحزاب من كل قبائل العرب . . . بلغت أنباء هذا المسير محمدا والمسلمين معه فى المدينة ففزعوا وقد رمتهم العرب كلها عن قوس واحدة ، وإذا كانت قريش قد انتصرت فى أحد ولم تكن فى أكثر من

ثلاثة آلاف فماذا يصنع المسلمون لمقابلة هذه القوة التى تبلغ أكثر من ثلاثة أمثال قوة قريش حينئذ ؟ لم يكن من سبيل سوى التحصن بالمدينة ، ولكن أيكفى التحصن أمام هذه القوة الساحقة ، ثم إن النبى لايريد المغامرة ، وليست البطولة هى التى يحرص عليها ، فالحرب عنده وسيلة لاغاية ، وهو — وإن كان سريع النهضة لضرب العدو — دقيق التنظيم ، ماهراً فى القيادة ، فإنه ليس على مثال قواد الحرب وأربابها يسعى وراء تحقيق مجد حربى ، وإنما هو نبىٌّ يريد سيادة مبدأ ، وتحقيق رسالة ويحرص على السلم مادام له عن القتال مندوحة ، وقد أقبلت قريش وأحزابها وهى ترجو يوما كيوم أحد ، ولكنها لم تجد جيش المسلمين ينتظرها فى ساحة مكشوفة مثل يوم أحد ، وإنما ووجهت بتنظيم جديد ، وفاجأها الخندق ، فأخذها العجب إذ لم تكن تتوقع هذا النوع من الدفاع المجهول ، وكان الوقت شتاء ، والجو باردا ، والرياح شديدة ، وأدركت قريش وأحزابها أنهم دقيمون أمام الخندق طويلاً ، يتعرضون لهذا الجو القاسى الذى تعجز خيامهم عن حمايتهم منه ، ومحمد وأصحابه مجتمون بخندقهم ولديهم الميرة ، ومساكنهم وراءهم ، فهم يستطيعون الصبر طويلاً ، أفليس الخير للأحزاب

أن يعودوا أدراجهم ، لكن جمع هؤلاء العرب لحرب محمد مرة أخرى ليس بالأمر الهين ، قدر اليهود هذا كله ، وخاف حيي ابن أخطب مغيته ، فقال لزعماء الأحزاب إنه سيقنع بنى قريظة بنقض عهدهم مع محمد والانضمام إليهم ، ومتى منعت معونتها عن محمد انقطعت عنه الميرة ، وفتح الطريق أمام جيش الأحزاب ، وسرت قريش بما تعهد به حيى ، وسارع هو إلى تنفيذ خطته ، فأقنع زعيم بنى قريظة كعب بن أسد بذلك ، ومازال حتى ثارت يهوديته ، وأعلن نقضه للعهد ، وعاد حيي يبشر الأحزاب لتستعد للهجوم ، وعلم الرسول بذلك فبعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج وعبدالله بن رواحة وخَوَّاتًا بن جبير ، ليقفوا على جلية الأمر ، وليحاولوا ردَّ اليهود إن كانوا قد فكروا فى الخيانة ، وهنالك طلب زعيمهم كعب بن أسد أن يردُّوا إخوانهم من بنى النضير إلى ديارهم إن كانوا يريدون منهم أن يلزموا موقفهم الأول ، وأراد سعد بن معاذ أن يقنعهم بالعدول عن هذا الموقف مخافة أن يحل بهم ماحل ببنى النضير ، لكنهم لم يقتنعوا وقال كعب من رسول الله لاعهد بيننا وبين محمد ؟ واشتدت المناقشة ، وكاد الفريقان يتشاتمان . . ورجع رسل محمد إليه ، واشتد البلاء ، وعظم الخوف ، ورأى المسلمون

طريق قريظة وقد فتح للأحزاب ، ولما لم يكن من الحكمة مواجهة هذا العدو ، فإن الحيلة إذن خير ما يلجأ إليه القائد البصير فى مثل هذا الموقف ، لذلك بعث النبي إلى غطفان يعدها بثلث ثمار المدينة إن هى ارتحلت ، ولما لم يكن لغطفان هدف إلا المال فقد بدأت تميل إلى هذا العرض ، ثم إنه أرسل نعيم بن مسعود : وكان قد أسلم حديثا ولم يعلم الناس بإسلامه وكان صديقا لقريش كما كان صديقاً لليهود ، ليصل بالحيلة إلى تفكيك وحدة الأحزاب ، وكان داهيةً ذكيا ، فأفهم اليهود أن غطفان وقريش لاتطيقان البقاء وربما انسحبا وظلوا هم وحدهم يواجهون محمدا وأصحابه فلا يستطيعون ، ونصح لهم أن يطلبوا من قريش رهناً من رجالهم يكونون بأيديهم ضماناً لهم ألاتتركهم الأحزاب لهذا المصير ، وقال لقريش إن بنى قريظة ندموا على نقض عهد محمد وسيأخذون رجالا باسم رهائن يقدمونها لمحمد ليضرب أعناقها ، فلما طلبت قريش والأحزاب من بنى قريظة خوض المعركة طلبوا منهم الرهائن ، وعندئذ تأكد لأبى سفيان أنهم سيغدرون ، وعرض أمر الهجوم — السريع — على غطفان فترددت ، فلما كان الليل عصفت ريح شديدة ، وهطل المطر غزيرا ، وقصف الرعد ، وشتدت العاصفة بما لم ير له مثيل من

قبل ، حتى امتلأت نفوس الأحزاب بالرعب وخُيّل إليهم أن محمدا سوف يستغل هذه الفرصة فيهاجمهم ويوقع بهم ، فقام طليحة بن خويلد الأسدى وصاح إن محمدا قد بدأكم بشر فالنجاء النجاء ، وكان أبوسفيان أول من أجاب النداء وأبى داعى الفرار وصاح بقريش إنى مرتحل أيها الناس فارتحلوا فقد نقضت قريظة عهدها ، وبدأكم محمد بشر ماتكرهون وهكذا هزم الله الأحزاب ، « وكفى المسلمين القتال » .

وفى هذه الغزوة — كما رأينا — لم يكن عدد المسلمين مشجعا على الوقوف فى وجه الأحزاب الذين جاءوا للإجهاز عليهم ؛ وإسكات صوتهم ، وتفريق شملهم ، وتنكيس رايتهم إلى الأبد ، حتى لاتزحم طريقهم هذه الدولة الجديدة — فى يثرب — وهنالك تمرأ قوافلهم التجارية ، وهم يخشون الخشية كلها من تعرضها لها ، وعدوا بها عليها . إلا أن المسلمين مع هذه القلة كان فى قلوبهم إيمان ، وبين جوانحهم عقيدة ، نماها لديهم ، وأكدها فى نفوسهم ، تلك الثقة التى لاحد لها فى نصر الله لهم ؛ والتى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلنها إليهم ، ويبشرهم

بها ، ويؤكد لهم أن الله سبحانه وتعالى قد وعده بها ، ولا يخلف الله وعده ، ونحن نستطيع أن ندرك ـ من غيرشك ـ أن الرسول صلى الله عليه وسلم أثبت بما لا ريب فيه أنه قائد حربى محنك استطاع بدهائه وذكائه وعقله الكبير أن يعصف بهذا العدد الضخم الذى حشده عدوه ، وواجهه به خصومه ، وتبين ذلك واضحًا كلَّ الوضوح فى أمرين اثنين ، كان أولهما استخدام هذا الرجل الحصيف نعيم بن مسعود الذى استطاع أن يجعل الثقة مفقودة بين الأحزاب وبنى قريظة إلى درجة أن فكرت قريش ممثلة فى القائد العام أبى سفيان أن تعدل عن الحرب ثم تنجو بنفسها مكتفيةً بهذا النصر الذى أحرزته فى أُحد ، وقد حصل ذلك بعد حرب الاستنزاف التى صادفتها من البقاء الطويل ، وقيام العواصف التى اقتلعت الخيام ، وأشاعت الرعب ، على أن الخندق كان ضمانا إلى حدٍّ ما فى صيانة جيش المسلمين من هجوم عدوهم ، وتطاول خصومهم ، وإن كان بعض الفرسان اقتحمه وأراد بهذا الاقتحام أن يمهد لغيره أن يقتحمه غير أنها عملية لم تكن من اليسر بحيث يستطيعها كل أحد . .

وثانى هذين الأمرين تلك المبارزة التى أراد مقتحموا الخندق أن يشيعوا بها الرعب والفزع فى نفوس أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إلا أنها لم تحقق غرضها ، ولم تصل بأصحابها إلى النتيجة المطلوبة ، وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه صاحب الفضل فى أنها خيبت ظنونهم ، وأحبطت أعمالهم ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا ، إذ تقدم عمرو بن ودفى صلف للمبارزة وتقدم له على فقتله وكان بعد ذلك فرار المشركين ، وكانت هذه هى الضربة الأولى ، والفضل فى الحروب دائما أبدا للضربة الأولى ، وأظن أنه قد كان من الطبيعى جدًا بعد هذه الغزوة أن يفهم خصوم محمد صلى الله عليه وسلم أنهم سوف لاتقوم لهم قائمة بعد . وأنه لم يبق إلا أن يقول قائلهم فى صوت عال أو خافت إن الإسلام قد أصبح قوة ضاربة لايمكن قهرها ولا القضاء عليها . .

قصـــة زينب

لم تقتصر مؤامرات المشركين ، ولا دسائس المنافقين فى الكيد للرسول صلى الله عليه وسلم على الحروب الميدانية التى أثاروا عجاجها ، ورسموا منهاجها ، وأشعلوا نيرانها ، وأراقوا فيها دماء كريمة عزيزة ، ولكن هذا الكيد كان يمتد بهم إلى أقصى الغايات ، وأبعد المسافات ، فيتناول العرض والشرف ، والسلوك والطباع ، والأخلاق والعادات ، وأمهات المؤمنين اللائى كُنَّ أطهر من ماء السماء ، وأنقى عرضًا من حبّات الندى ، وكأنما هو مخطط إجرامى قد رسمت له الحدود والأبعاد ، وأعدت لتنفيذه الأوقات والمناسبات ، والظروف الملائمة ، وتتناول الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه إذا دعت الضرورة إلى ذلك فينهم بالسحر والكهانة والشعر وأن ماينزل به جبريل الأمين أساطير الأولين اكتتبها فهى تُملى عليه ، حتى إذا ماتبين لهم تفاهة مابين لهم تفاهة مايقولون ، وخرافة مايّدعون ، وكذب مايزعمون ، حاولوا أن يتخذوا لهم ميداناً آخر للهجوم ، ومناسبة أخرى للطعن واللمز ، والتشويه والتجريح ، وقد كان زواجه صلى الله

عليه وسلم بأكثر من واحدة مادة خصبة للحديث العفن ، والتشنيع المفضوح والانتهاش الساقط ، وفى كل مناسبة من المناسبات التى تأخذ فيها هذه الأحاديث طريقها إلى الأفواه والأسماع يكون وراءها منافق أو يهودى ، والمستشرقون فى العصر الحديث ورثوا عن المنافقين واليهود ما كانوا يقومون به ، وأتقنوا التنقيص والطعن ، واختلاق العيوب والمساوىء . .
وقصة زينب بنت جحش واحدة من هذه القضايا التى أخذوا على عاتقهم استخدامها فى الطعن على الرسول وإبرازه فى صور الشخص الأنانى الذى لا يعنيه إلا نفسه هو فقط ، يشبع شهواتها ، ويلبى رغباتها ، ويستجيب لنزوعها وميولها ، أو الرجل الشهوانى الذى ينسى عقله ورشده ، وتفكيره وخلقه ، ومنطقه وأدبه ، وعرضه ودينه ، لينزل على إرادة الغريزة والطبع ، والهوى والميل متناسيا الأعراف والتقاليد ، والدساتير والنظم ، والقصة هكذا — كما يرويها الشيخ محمد الخضرى — « وفى هذا العام — يقصد السادس الهجرى الذى كانت فيه غزوة الأحزاب وبنى قريظة والمصطلق — تزوج عليه السلام زينب بنت جحش بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة ، وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول

صلى الله عليه وسلم خطبها له فتأفف أهلها من ذلك لمكانتها من الشرف العظيم ، فإن العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالى ، ويعتقدون ألاكفء من سواهم لبناتهم ، وزيد وإن كان الرسول تبناه ولكن هذا لايلحقه بالأشراف ، فلما نزل قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » لم يروابدا من القبول ، فلما دخل عليها زيد أرته من كبريائها وعظمتها مالم يتحمله ، فاشتكاها لرسول الله فأمره باحتمالها والصبر عليها إلى أن ضاقت نفسه ، فأخبره بالعزم على طلاقها وكرر ذلك . . ولما كانت العشرة بين مثل هذين الزوجين ضرباً من العبث ، أمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها حسماً للنزاع من جهة ، وحفظاً لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى من جهة أخرى ، ولكن رسول الله خشى من لوم اليهود والعرب عليه فى زواجه بزوج ابنه ، فقال لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى فى نفسه ما أبداه الله ، فبتّ الله حكمه بإبطال هذه القاعدة وهى تحريم الزواج من زوجة المتبنى «لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا

منهن وطرا » ومن هذا الحين صار اسم زيد «زيد بن حارثة » بدل زيد بن محمد . . ويقول جهال المؤرخين وذووالمقاصد السافلة منهم فى هذه القصة أقوالا لاتجوز إلا على من ضاع رشده ، ولم يفقه حقيقة مايقول ، فإنهم يذكرون أن الرسول توجّه يوما لزيارة زيد فرأى زوجته مصادفة لأن الريح رفعت الستر عنها فوقعت فى قلبه فقال سبحان الله ، فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك فرأى من الواجب عليه فراقها ، فتوجّه وأخبر الرسول بعزمه فنهاه عن ذلك ، ويكذب هذا أن نساء العرب لم تكن تعرف ستر الوجوه ، وزينب بنت عمته ، وقد أسلمت قديما ورسول الله بمكة فكيف لم يرها وقد مضى على إسلامها نحو عشر سنوات ورسول الله هو الذى زوّجها زيدًا ، فلو كان له فيها رغبة — عن حب أو عشق — لتزوجها هو ، ولا مانع يمنعه من ذلك ، ومن منا يتصور أن السيد الأكرم يقول لقومه إنه مرسل من ربه ، ويتلو عليهم صباح مساء « ولا تمدن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا » ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من متبعيه وينظر إلى زوجته ثم يشتهى زواجها ، ولو حدث أمر مثله من أقل الناس لعيب عليه ، فكيف بمن أجمعت كلمة

المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقا ، وأبعدهم عن الدنايا ؛ حتى مدحه الله بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم » . أما الدكتور هيكل فى كتابه — حياة محمد — فإنه يقول «يكفى لهدم كل هذه القصة التى قرأت عنها من أساسها أن تعلم أن زيْنب بنت جحش هذه هى ابنة أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله عليه السلام ، وأنها رُبيتْ بعينه وعنايته ، وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى ، وأنه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مفاتن أم لا قبل أن تتزوج زيدًا ، وأنه شهدها فى نموها تحبو من الطفولة إلى الشباب ، وأنه هو الذى خطبها لزيد مولاه ، إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص من أنه مَرَّ ببيت زيد ولم يكن هو فيه ، رأى زينب فبهره حسنها وقال سبحان مقلب القلوب ، أوأنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار الذى على غرفة زينب فألفاها فى قميصها ممتده فانقلب قلبه فجأة ، ولوأن شيئا من حبها علق بقلبه لخطبها لنفسه لا لزيد.. ويثبت التاريخ —أيضاً— أن محمدًا خطب ابنة عمته لمولاه زيد فأبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون قرشية هاشمية ، وهى مع ذلك ابنة عمة الرسول

وأن تكون تحت عبد رقيق اشترته خديجة ثم أعتقه محمد ، ورأى فى ذلك على زينب عارًا كبيرًا — وكان ذلك عارًا كبيرا عند العرب فلم تكن بنات الأشراف ليتزوجن من موال وإن أعتقوا — لكن محمدا يريد أن تزول مثل هذه الاعتبارات القائمة فى النفوس على العصبية وحدها ، وأن يدرك الناس جميعا أنه لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، فلتكن زينب بنت جحش بنت عمته هى التى تحتمل هذا الخروج على تقاليد العرب ، وهذا الهدم لعاداتها مضحية فى ذلك بما يقول الناس عنها ، مما تخشى سماعه ، وليكن زيد مولاه والذى أصبح بحكم عادات العرب وتقاليدها صاحب حق فى أن يرثه كسائر أبنائه هو الذى يتزوجها ، فيكون مستعدا للتضحية التى أعد الشارع الحكيم للأدعياء الذين اتخذوا أبناء ، فلما سارت زينب إلى زوجها لم يسلس قيادها ، ولالان إباؤها ، واشتكى زيد إلى النبي ذلك وطلب طلاقها ، وقال له النبي أمسك عليك زوجك ، إلا أن زيدًا لم يطق فطلقها . . وكان الشارع الحكيم قدأراد أن يبطل ماكانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها ومن إعطاء الدعى جميع حقوق الابن . .

ولكن كيف السبيل إلى تنفيذ هذا ، وَمَنْ مِنَ العرب يستطيعه وينقض به تقاليد الأجيال السابقة ، إن محمدًا نفسه على قوة عزيمته ، وعميق إدراكه لحكمة الله فى أمره قد وجد على نفسه الغضاضة فى تنفيذ هذا الحكم . بأن يتزوج زينب بعد تطليق زيد إياها ، ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس فى خرقه هذه العادة القديمة المتأصلة فى نفوس العرب ، لكن محمدًا كان القدوة فى كل ما أمر الله به ، وماطلب منه أن يبلغ رسالته ، فليخش ما يقول الناس ، فذلك لاشىء إلى جانب خشية الله بتنفيذ أمره ، وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبنى والادعاء ، هذه رواية التاريخ الصحيح » .

وربما كان من المستحسن أن ننقل لك صورة من تفكير بعض المستشرقين ، وتصورهم لهذه القصة ، عن كتاب حياة محمد للمستشرق « إميل درمنغم » الذى ترجمه إلى العربية « محمد عادل زعيتر » لترى إلى أى حد كان هذا الإسفاف ، وتلك الخرافات « شعر محمد فى العقد الأخير من عمره بكبير ميل

إلى النساء ، فقد أثارت عائشة الفتاة التى تزوجت به فى السنة التاسعة من عمرها عوامل الميل إلى النعيم الجنسى فى زوج خديجة الطاهرة الذى ظل وفيا لها مدة عشرين سنة مع زيادة سنها عن سنه كثيرا ، فلما بلغ محمد المدينة وصار رئيس دولة ، وقائد حرب ، أقام لنفسه بيتا كبيوت سادات العرب ، فأبرم كهؤلاء السادات عقود نكاح كثيرة عن ميل جنسى أو عن سياسة ، وكان له بضع سرارى جميلات ، عرضت عليه هدية ، أونالها سبيا ، وقدزاد لذلك الميل الجنسى القوى الذى كان محصورا قبل زمن ، أبواب بيته النافذة إلى فناء المسجد بالتدريج ، فكان كل باب منها خاصا بسكن إحدى زوجاته .... وقد دخل محمد ذات يوم بيت زيد بن حارثة بعد الفراغ من غزوة بنى النضير ، وكان محمد يحب مولاه العتيق زيد بن حارثة كثيرا ، وكان قد تبناه فكان زيد بن محمد ، وكان يستشيره فى كل أمر ، وكان زيد فى ذلك اليوم غائبا عن بيته ، فوجد محمد نفسه تجاه زينب بنت جحش التى كانت أجمل فتيات قومها ، والتى كانت زوجة لزيد ، وكانت زينب هذه سافرة وشبه عارية ، وعاملة على زينتها وإدارة بيتها ، فأثر هذا الجمال الغض الفياض

فى نفس النَّبى فقال سبحان مقلب القلوب ، ولم ينطق بغير هذه الكلمة ثم انصرف ، وقد قصت زينب على زوجها زيد مارأت فحار فى الأمر ، وكان زيد المخلص لمولاه النبى مزاجه المتقد ، فرأى ألا يمسك عليه زوجه ، فأعرب عن عزمه على طلاق زينب وذكر له أنه لايستطيع العيش معها ، فقال له محمد : أمسك عليك زوجك ، بيدأن زيدا أدرك أن ذلك لا يعبر عما يخفيه محمد فى نفسه ، فأصر على حل عقدةالنكاح متعللا بأنه أضحى كارها لزينب ، فطلقها بعد بضعة أيام ، فلما انقضت عدة زينب أرسلت إلى محمد من يقول لهإن زيداً طلقها إرضاءً له ، وكان محمد راغبا فى الزواج من زينب على استحياء .

ونحن نرى من هذا الرأى الذى يمثله « درمنغم » يتجافى مع الحقيقة كل المجافاة ، ويتجرد من الذوق إلى أبعد حد ، لأنه لايجعل الرسول فى مصاف النخبة الممتازة من البشرية التى ارتفعت بها عناية الله عن هذا المستوى البشرى السافل إلى أفق يجعل منهم القدوة الصالحة للإنسانية ، ولكنه ينزل بهم إلى المستوى الترابى الحقير الذى يعيش الناس فيه لحيوانيتهم الطائشة ، وآدميتهم الرعناء ،

فلا يعنيهم شيء وراء شهوة البطن والفرج ، على أن محمدًا صلى الله عليه وسلم الذى مرت به فترة الشباب وهو أكمل مايكون قوة ، وأنضج مايكون حيوية ، وأقصى مايكون جنسا ، وأعظم مايكون فراغا ، لم يعرف عنه الميل الذى يجعله أسير شهوته يجرى وراءها ، ويبحث عنها ، وينسى فى سبيلها كرامته وخلقه ، شأن أولئك الذين كانت المرأة تقودهم ، وتتحكم فى سلوكهم ، وتملك عليهم كلَّ شعورهم ، ولقد طلبته خديجة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وهى فى الأربعين ، وسعت إليه دون أن يسعى إليها . . وفى الوقت الذى جرت حوادث قصة زينب لم يكن فى فراغ جنسى حتى يتصور العقل أن يكون عنده هذا الشبق الأحمق ، والميل العارم ، فقد كان فى حريمه حفصة الشابة الجميلة فى الثمانى عشرة من عمرها ، وعائشة الصغيرة العزيزة التى كانت تملأ جوانب قلبه كلها ، فأى شيء كانت تزيده زينب التى كانت ميسورة له منذ الطفولة حتى هذه اللحظة المزعومة ، وهى — مع ذلك كله — ابنة عمته ، اللهم لاشيء . . .

فلم يبق بعد ذلك كله إلاَّ أن المسألة لا تعدو أن يكون هذا منهجا سماويا خاصا أراد به صاحبه أن ينفذ على شكل لايحمل على التردد ، ولا يكون شاقا على الناس ، ولا يمثل قصته على خشبة المسرح إلا أشخاص لايدخل فى روع المجتمع أنهم من السوقة ، أو ممن لايصح أن تكون لهم قيادة للجماعة الإنسانية التى يعيشون معها ، ولو أن أصحاب هذا الدور التشريعى الذى أريد به أن يكون انتقالاً بالمجتمع من سلوك إلى سلوك غير الرسول صلى الله عليه وسلم وزيد بن حارثة مولاه وصفية وموضع ثقته وزينب عمته لكان لهذه الثورة على هذا الوضع البغيض شأنٌ آخر فى تقبل الناس إياها ، وتركهم لها ، وإقلاعهم عنها ، وعدم ارتياحهم إليها ، ولكن القضاء عليها بهذه الصورة كان حزماً فى الأسلوب ، وحكمة فى التشريع ، وصوابا لا يعدله صواب ، ولهذا فإنه لم يثبت أن أحدًا غضب من أجل أن تنحل منه هذه البنوّة المزورة ، أو هذا النسب اللصيق أو هذه الوشيجة التى لاتعتمد على شىء ، وإنما قابلوا هذا الصنيع بالارتياح كل

الارتياح : «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » إلا أن الخصومة لامنطق لها ، والحقد يتجاوز معايير السداد والحكمة ، والذوق والأدب .

صلح الحديبية وبيعة الرضوان

إلى هذا التاريخ كانت سنوات ست قد مضت على المناوشات الحادة بين قريش ومعها حلفاؤها من العرب والمنافقين واليهود ، وبين النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وكانت قريش إلى هذه الفترة نهكتها الحرب ، وقلمت أظافيرها الهزائم التى لحقت بها ، فلم يعد لديها من سلاح تواجه به محمدًا إلا الحقد الذى تغلى به جوانحها ، ونوايا الشر التى تخفيها فى ضمائرها ، حتى لقد جلس أبو سفيان يوما من الأيام فى نادى قومه يكاد الغيظ يفيض منه ، فقال : ألا رجل يأخذ محمدا على غرة فى مسيره إلى السوق ، أو إلى دار بعض أصحابه ، أو إلى المسجد ، فيضربه ضربة تقضى عليه ، ليريحنا منه ، ومن خطره علينا ، بعد تلك الدماء التى أريقت من قومنا وأهلينا وذوى المكانة فينا ، فتقدم إليه رجل وقال له أنا ذلك الذى تنشده ، وهنالك أعطاه أبو سفيان الأموال والزاد والراحلة ليقوم له بتلك المهمة ، وفى صباح اليوم السادس من هذه الرحلة كان ينحنى على النبى

صلى الله عليه وسلم ليضربه بخنجره الذى سقط منه، فلم يستطع أن ينال من الرسول مكروها ، ولما وجد أن قدرته قد ذهبت ، وأن خنجره قد هوى ، وأن قلبه قد امتلأ بالخوف ، وأن رجليه لاتحملانه ، وأن الأرض موشكة أن تنشق لتبتلعه ، وأن أسيد بن حضير يجذبه جذبة تنخلع لها نفسه ، أعلن ندمه وأسفه على ما أقدم عليه ، فقال له النبي أصدقنى حديثك ، وخبرنى خبرك ، فلم يخف عنه شيئا ، وأنبأه أنه موفد من قبل أبى سفيان لقتله ، وأنه يعترف منذ هذه اللحظة أن أبا سفيان وقومه على الباطل ، وأن الرسول على الحق ، وقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم رجلين من أصحابه ليقتلا أبا سفيان هما عمرو بن أمية الضمرى — وكان من فتاك العرب فى الجاهلية — وسلمة بن أسلم ، وقد عرف أبو سفيان عمرا وهو يطوف بالبيت ، فاستعدى عليه أهل مكة ، فهرب هو وصاحبه ، وقتل فى طريقه وهو فار رجلا من تيم ، ورجلا من بنى الديل ، ولقى آخرين من قريش بعثتهما يتجسسان على محمد وأصحابه فقتل أحدهما وعاد بالاخر أسيرًا إلى المدينة ، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبقى أبوسفيان على قيد الحياة يسلم حتى بيديه مفاتيح مكة فيما بعد .

ولم تكن هذه السنوات الست بالأمر الهين اليسير على نفوس المسلمين الذين فارقوا البيت الحرام ومكة التى تضم أهليهم وذوى قرابتهم وإخوانهم وأخواتهم ، بل لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم أكثر منهم جلدا ، ولا أشد منهم احتمالا ، أو أقل شوقا ولهفة إلى أن يجد نفسه وقد مكنّه الله من الأرض العزيزة عليه ، ومن البيت الحبيب إليه ، حتى لقد بلغ من حنينه هذا ومن شدة تعلقه بهذا المكان الذى بزغت شمسه قبل أن تطلع الشمس ، وتنشر ضياءها على هذه الدنيا ، أن رأى فى منامه صلى الله عليه وسلم ، أنه دخل مكة ، ولم يكن يذيع فيهم ذلك النبأ ، ويبشرهم أنه سبحانه سوف يحقق لهم هذا الحلم « لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين » حتى وثبت أفئدتهم من بين أضالعها تطوف بالبيت ، وتتملّى من نوره ، وتتيمم بغباره ، وتملأ خياشيمها برياه ، ثم ظلوا يتحينون الفرصة ، ويترقبون أن يحقق الله لها مايرجون أن يكون ، إلا أنهم كانوا على يقين أن قريشا لاتفتح لهم أبواب مكة يطوفون بالبيت الحرام عن رضا نفس ، وطيب خاطر ، وسوف تصدهم صدًّا عنيفًا ، إذا علمت أنهم سيدخلونها عليهم بحكم السيف ، وسلطان الحرب ، وقد كانت قريش لاتفكر

فى حرب محمد صلى الله عليه وسلم لأنها تعانى من حروبها الماضية وتقاسى مما خسرته فيها من عتاد ورجال ، وكذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم لايرغب فى حربها ، ولايميل إلى مناوشتها ، ولا يهيء نفسه لمواجهتها ، إلا أنه مع ذلك كله كان ينتظر أن يحقق الله له ما وعده به ، ولايشك بعض الشك فى أنه منجزه إياه ، وكان يرجو أن يصل إلى غرضه باللين والسياسة ، والحزم والكياسة ، ويقول الدكتور هيكل : « إنهم لمجتمعون بالمسجد ذات صباح إذ أنبأهم النبي بما أُلهم فى رؤياه الصادقة ، ذلك أنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسهم ومقصرين لايخافون فما كاد القوم يستمعون إلى رؤيا رسول الله حتى علا بحمد الله صوتهم ، وحتى انتقل نبأ هذه الرؤيا إلى سائر أنحاء المدينة فى سرعة البرق الخاطف ، ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام ، أيحاربون فى سبيله ، أيحلون قريشا عنه عنوة ، أم تفتح قريش لهم طريقه صاغرةً مذعنة ...

أذّن محمد فى الناس بالحج ، وطلب إلى القبائل من غير المسلمين الخروج معه ، فأبطأ عليه كثير من الأعراب ، وخرج فى أول

ذى القعدة أحد الأشهر الحرم بمن معه من المهاجرين ، والأنصار ومن لحق به من العرب ، يتقدمهم على ناقته القصوى ، وكان عدد الذين خرجوا ألفا ونصفا ، وساق معه الهدى وسبعين بدنة ، وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه لايريد قتالاً ، فلما بلغ ذا الحليفة عقص الناس الرؤوس ، ولبوا بالحج ، وعزاوا الهدى ، ومن بينها بعير أبى جهل الذى أخذوه فى بدر ، ولم يحمل أحد سلاحا إلا مايحمله المسافرين من سيف مغمد ، وبلغ قريشا أمر محمد فامتلأت بالمخاوف ، وجعلوا يقلبون هذا الأمر على وجوهه ، حتى لقد حسبوه حيلةً أراد بها محمد أن يحتال لدخول مكة ، ولم يثنهم ما علموا من إحرام خضوعهم بالعمرة وإذاعتهم فى أنحاء الجزيرة أنهم لا تحركهم إلا العاصفة الدينية ، عن أن يقرروا الحيلولة دون محمد ودخول مكة بالغًا ما بلغ الثمن الذى يدفعونه ، لذلك عقدوا لخالد ابن الوليد وعكرمة بن أبى جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه مائتين ، وعسكر بذى طوى ليحول بين محمد وأم القرى . . . . أما محمد فإنه تابع مسيرته حتى إذا كان بعسفان لقيه رجل فسأله عن قريش فقال له : « لقد سمعت بمسيرتك فخرجوا وقد لبسوا جلد النمور يعاهدون الله لاتدخلها عليهم أبدا » فقال صلى الله عليه

وسلم « ياويح قريش لقد أهلكتهم الحرب ، ماذا عليهم لوخلّوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ، فو الله لاأزال أجاهد على الذى بعثني الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة ، ثم وقف يفكر ماذا عساه يصنع ، إنه لم يخرج من المدينة غايرنا ، وإنما خرج محرما يريد بيت الله ، يؤدى عنده إلى لله فرضه ، وهو لم يتخذ للحرب عدتها ، فلعله إن حارب فلم ينتصر جعلت قريش مكة تبدو على مرمى النظر ، فنادى فى الناس قائلاً من يخرج بنا على غير طريقهم التى هم بها ، وخرج رجل يسلك بهم طريقًا وعرا بين شعاب مضنية ، حتى أفضت بهم إلى سهل عند منقطع الوادى سلكوا فيه ذات اليمين حتى خرجوا على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة فلما رأت خيل قريش ماصنع محمد وأصحابه ركضوا راجعين أدراجهم مدا فعين عن مكة إذا داهمها المسلمون .. ولمابلغ المسلمون الحديبية بركت ناقة النبى ، فقال قائل خلات القصواء فقال ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل ، لاتدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ، ثم دعا

الناس إلى النزول ، فقالوا له يارسول الله مابالوادى ماء ننزل عليه ، فأخرج سهما من كنانته وأعطاه رجلاً فنزل به إلى بئر من الآبار المنثورة فى تلك الأنحاء فغرزه فى الرمال فى قاع البئر فجاش الماء فاطمأن الناس ونزلوا . . ولكن قريشا كانت لهم بالمرصاد ، فهل يعدون لها عدة النزال .

وقف المعسكران يفكران فى الخطة التى تتبع . . أما محمد فظل على خطته فى السلم والجنوح إليه إلا أن تهاجمه قريش أوتغدر به ، وهنالك لايبقى من انتصار السيف مفر .. وأما قريش فترددت ثم فكرت فى أن توفد إليه من رجالها من يتعرف قوته ويصده عن دخول مكة ، وجاءه بديل بن ورقاء فى رجال من خزاعة يسألونه ماالذى جاء به ، فلما اقتنعوا أنه لم يأت محاربا رجعوا إلى قومهم ليبلغوهم ذلك لكنهم لم يصدقوا ، وبعثوا رجلاً من بنى عامر فعاد بمثل ماعاد به بديل فلم يصدقوه ، فبعثوا سيد الأحابيش الحليس بن علقمة ، فلما رآه النبى مقبلا أمر بالهدى أن تطلق أمامه ، لتكون تحت نظره دليلاً على أن هؤلاء الذين تريد قريش حربهم إنما جاءوا حاجّين معظمين للبيت ، فأيقن الحليس

أن قريشا ظالمة وعاد إليهم ليقول لهم سبحان الله ماينبغى لهؤلاء أن يُصَدّوا ، أتحج لخم وخدام وحمير ، ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب ، هلكت قريش ورب الكعبة ، فاسترضوه وطلبوا إليه أن ينظرهم .. وأرسلوا عروة بن مسعود الثقفى فاعتذر لهم بما رأى من تعنيفهم وسوء معاملتهم لمن سبقه من رسلهم ، فأكّدوا له أنه عندهم غير متهم ، وقد خرج إلى محمد وذكر له أن مكة بيضته ، وأنه إن نالها بهؤلاء الأوشاب كان ذلك العار الخالد ، وكان عروة يتناول — أثناء الحديث — لحية الرسول وكان المغيرة ابن شعبة يضرب يد عروة كلما تناول لحية النبى ، ورجع عروة إلى قريش فقال لهم : « يامعشر قريش إنى والله مارأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد وأصحابه ، وإنهم لم يسلموه لشئ أبدا ، فروا رأيكم » . . . .

وطالت المحادثات على النحو الذى قدمناه ، ففكر محمد فى أن رسل قريش قد لايكون لديهم من الإقدام مايقنعون به قريشا بالرأى الذى يرى ، فبعث من جانبه رسولاً يبلغهم رأيه ، لكنهم عقروا جمل هذا الرسول وأرادوا قتله لولا أن منعته الأحابيش فخلوا

سبيله ، وخرج جماعة من سفهاء مكة — أربعون أو خمسون — يريدون العبث بمعسكر المسلمين فأخذوا أخذًا وجيء بهم إلى النبي فأطلق وثاقهم وعفا عنهم . . . .

وقد أراد عليه السلام أن يمتحن صبر قريش مرة أخرى فدعا عمر ابن الخطاب ليذهب إليهم فاعتذر بأنه ليس له هنالك من ينصره ويحميه من عدواتهم إذا أرادوا الاعتداء عليه ، وقال للنبي إن عثمان أعز بها مني ، فخرج عثمان ولقيه أبان بن سعيد فأجاره ، وأبلغهم رسالته ، فلم يأبهوا بها ، ولكنهم أذنوا له في دخول البيت والطواف به فأبى إلا أن يكون مع محمد ، وأجابت قريش بأنها أقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوة ، وطال احتباس عثمان هنالك وترامى إلى المسلمين أنه قتل غيلةً وغدرًا ، ودخل في روع النبي أن قريشا قتلت عثمان ، فقال لانبرح حتى نناجز القوم ، ودعا أصحابه ووقف تحت شجرة في هذا الوادي فبايعوه جميعا على ألا يفروا حتى الموت ، وكلهم حماسة للإنتقام ممن غدر وقتل ، وهي بيعة الرضوان التي نزل فيها قوله تعالى في سورة الفتح « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم

فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » .. وبهذه البيعة اهتزت السيوف فى أغمادها ، وتبدى للمسلمين جميعا أن الحرب آتية لاريب فيها ، وجعل كل ينتظر يوم الظفر أو يوم الاستشهاد .

ثم لم يطل بهم الوقت حتى جاء عثمان بنفسه إليهم ، وأبلغ محمدا ماقالت قريش ، واتصل الحديث وعادت المفاوضات بين الفريقين مرة أخرى وأوفدت قريش سهيل بن عمرو ، وقالوا له ائت محمدا وصالحه على أن يرجع ليعود فى العام المقبل » وإلى هنا ينتهى جانب من قصة هذا الصراع الذى تسميه كتب التاريخ والسيرة بغزوة الحديبية ، والجانب الآخر منها يتمثل فى الموقف الذى وقفه سهيل بن عمرو المفوض الرسمى من قبل قريش فى إبرام المعاهدة بينها وبين محمد ، وقد كان فيه من الطرافة الكثير ، إذ يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم كاتبه على بن أبى طالب أن يفتتح بالبسملة — بسم الله الرحمن الرحيم — فيأبى سهيل إلا أن يكون ذلك باسمك اللهم على ماتعود الناس قبل الإسلام ، ويملى عليه « هذا ماعاهد عليه محمد رسول الله » فلايرضى بذلك سهيل ثم يقول لو آمنا بأنك رسول الله ماكان بيننا وبينك خلاف ، وإنما أنت

محمد بن عبد الله ، ويستجيب الرسول لذلك ويأمر عليا أن يكتبه ، وتنتهى المعاهدة بعد لأى وأخذ ورد إلى نصوص أربعة ..

الأول— أن يرجع محمد وأصحابه عن دخول مكة هذا العام على أن يعود فى العام المقبل ليطوف بالبيت ويبقى بمكة ثلاثة أيام .

الثانى — أن تعقد هدنة عدم الاعتداء بين الطرفين إلى مدى عشر سنوات — أو أربع فى بعض الروايات — يأمن فيها كل من الطرفين صاحبه .

الثالث— أنه من أراد أن يدخل فى حلف جانب من الجانبين دخل ، ويجرى على الحليف مايجرى على حليفه من صون حرماته ، وعدم الاعتداء عليه . .

الرابع— أن من جاء إلى محمد من أهل مكة رده — ولو كان مسلما — ومن جاء إليهم لا يردونه ..

ويقول الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف « والشرط الأخير هو الذى أغضب المسلمين وأثار اعتراضهم ، لكن محمدا أمضى العقد ، واعتبر الوصول إلى السلم هدفا يصغر إلى جانبه كل شىء ،وعدَّ هذا

فتحا مبينًا ، وقد كان محمد أبعد نظرا من رجاله ومن خصومه على السواء ، وإن بدا لأول وهلة أن قريشا ذهبت فى الصلح بالكفّة الراجحة ، إلا أن الأيام أثبتت غير هذا ، فقد أتاح هذا العقد لمحمد ورجاله أن يدخلوا مكة فى العام المقبل ، واضطرت قريش إلى إخلاء مكة لهم ثلاثة أيام ، فأثّر هذا تأثيرا كبيرا فى موقفها الداخلى والخارجى ، كما أن العقد أتاح لبعض القبائل فرصة الدخول فى عقد محمد صراحة ، وبخاصة خزاعة التى كان جزءا كبيرا من الأحابيش فى بطونها ، وبذلك جذب محمد إليه جزءا كبيرًا من هذه القوة ، فأضعف ذلك مركز قريش الحربى ، ثم إن محمدا قد أتيحت له فرصة للعمل بحرية على أن يقضى نهائيًّا على اليهود ببلاد العرب ، وبذلك يأمن شرهم ودسائسهم ، وبدأت القبائل التى كانت تناوئه من غطفان وسليم ومزينة وغيرها تسعى للانضمام إليه » .

والحق أن هذا الشرط الأخير فى تلك المعاهدة كان مشكلة المشاكل لأن كثيرًا من المسلمين الذين كانوا يُعَذَّبون بمكة جاؤا إلى النبى هربا من ذلك الجحيم الذى يعيشون فيه ، فردهم بحكم الوفاء «وأوفوا

بعهد الله إذا عاهدتم ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » ولم يجف مداد هذه المعاهدة وسهيل لايزال فى موقفه بجوار النبي صلى الله عليه وسلم حتى جاء – يرسف فى قيده – أبو جندل بن سهيل بن عمرو هذا فضربه سهيل وجعل يرده ليرجع معه وجعل أبو جندل يصرخ ويقول يامعشر المسلمين أأرد إلى المشركين وأفتن فى دينى ، والنبي يقول له اصبر يا أبا جندل واحتسب فإنا لانغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجًا ..

ووفد – كذلك – من مكة إلى المدينة أبو بصير فأرسل إليه سيده رجلين ليأخذاه من النبي فلما سلمه إليهما قال له يارسول الله أتردنى إلى المشركين فقال له نحن لانغدر . . وفى الطريق قتل أبو بصير أحد الرجلين وفرّ الآخر ، وذهب أبو بصير حتى نزلت العيص على ساحل البحر وهو طريق قريش التجارى ، وكان عهد محمد وقريش أن يظل هذا الطريق آمنا ، فلما ذهب أبو بصير إلى هنالك وسمع إخوانه بمكة هربوا إليه ، وجعلوا وإياه يقطعون الطريق على قريش ويظفرون بكل ما يمر بهم من قوافل ، وبذلك أحَسَّت قريش

بالخطر الذى يتهددها من جرّاء وجود هذا الشرط فى معاهدة الصلح التى أبرمها مع محمد مبعوثهم سهيل بن عمرو ، فذهبوا إلى محمد يرجون منه أن يعتبر هذا الشرط لاغيا وأن يقبل كل من يفر إليه من أهل مكة حتى لايزداد خطر أبى بصير وعصابته على قوافل تجارتهم التى تمر إلى الشام .. وهكذا أثبتت الأيام بعد نظر النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه لم يكن ليأخذ بهذا الشرط الأخير الذى كان مثار اعتراض وسخط ، عن ضعف منه ، أو عدم بصر بالأمور وإدراك لعواقبها ، وإنما كانت سياسة رشيدة ، ونظرا بعيدا ، وكياسة حازمة ، مهدت له أن يوجه سياسته من مركز القوة ، وأن يبعث برسائله إلى الملوك والرؤساء وهو مطمئن إلى أنه لايواجه تكتل خصوم ، ولااحتشاد أعداء ، ولا كيد جماعات لها نفوذ أو سلطان ، وقد كانت هذه الفترة بالذات فترة تمكّن الدولة الإسلامية ، وصلابة عودها ، وارتفاع رايتها ، لأن المعاهدات إنما تكون بين قوتين متكافئتين ، وهذا يعنى أن قريشا قد أصبحت تحسب — من جديد — لمحمد حسابا جديدا كالحساب

(١٠)

الذى يكون بين الند والند ، وبهذا يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد اطمأن إلى وضعه اطمئنانًا يساعده على ألاّ يتهيب قوة ، أو يخشى جبروتا ، أو يرهب طغيانا ، ولذلك فإن الخطوة التى تحرك بها بعد صلح الحديبية فى القضاء على فلول اليهود التى كانت فى خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى دلت على أنه ما كان ليقدم على هذا الصنيع الذى صنعه لو لم تكن الأرض من تحت قدميه مطمئنة ثابتة . . .

بَعْدَ الحُدَيْبِيَة

كان صلح الحديبية بمثابة علامة النصر فى الطريق أمام محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بهذا الصلح قد صار بمأمن من المؤامرات والخيانات والغدر والتحرش به من هنا وهنالك ، لأن عداوته كانت متمثلة فى معسكرين قويين يخشى بأسهما ، ويخاف مايعدانه له من كيا وخصومة ، هذان المعسكران هما قريش واليهود .. أما قريش فإنها أصبحت قريرة العين ، مطمئنة كل الاطمئنان بهذه المعاهدة التى حقنت دماءها ، وأبقت على شبابها وكبار القادة منها ، وجعلتها آمنة على تجارتها التى هى شريان حياتها ... وأما اليهود فإننا نعلم كيف إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخذهم بالشدة ، وعاملهم بالعنف ، وأشعرهم بالذلة التى تليق بهم ، والتى تخالط دماءهم ، وتكوّن الجزء المهم فى حقيقتهم ؛ ولم تكن لهم قوة يعتمدون عليها بعد ذلك كله إلاّ فى خيبر والفلول الأخرى التى فرت إليها ، واختارت البقاء إلى جوارها ، وقد مر بنا الحديث عنهم هم أيضا تحت عنوان « اليهود فى الطريق » ولسنا بحاجة

إلى تكرار ذلك مرةً أخرى ... إلاَّ أن لكل شيء إذا ماتم نقصانا – كما يقول الشاعر الأندلسي – فإن المنافقين لايزالون على المسرح يمثلون دورهم الحقير فى خذلان الدعوة ، وإشاعة عوامل الهزيمة ، ويقول الشيخ عبد المتعال الصعيدى « فلما عقد ذلك الصلح بين المسلمين وقريش هدأ المنافقون ، لأن قريشا انصرفت عن الحرب إلى السلم ، وأخذت تشتغل بأمور تجارتها التى عطّلتها الحرب ، لتستعيد ما فقدته من أموال ، وتخرج من الضائقة المالية الشديدة التى وقعت فيها باستمرارها فى الحرب تلك السنين الخمس ، وانقطاع تجارتها فيها إلى الشام ، وهى أهم مواردها المالية ، فانقطعت بهذا صلتها بالمنافقين ، ولم تعد محتاجةً إلى تَجَسُّسِهم لها ، ولا إلى مايدبّرونه من فتن ومؤامرات ، فسكتوا عما كانوا يدبّرونه من قبل ، لأنهم كانوا آلاتٍ فى يد قريش أيضا ، فلايتحركون إلا إذا حركتهم ، ولايمكنهم أن يقدموا على شىء من أنفسهم » ويقول الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف « لقد كان يعادى محمدا قوتان كبيرتان تلتف حولهما كل القوى فى شبه جزيرة العرب ، فأما القوة الأولى فهى قوة قريش فى مكة ، بما لها من نفوذ أدبى ومادى ، وأما القوة الثانية فهى قوة

اليهود بمالها من علم وذكاء وقدرة على الدس والوقيعة ، وقد اتحدت مصالح القوتين على حربه والقضاء عليه ، وقد استطاع محمد أن يَثْبُتَ أمام القوتين ، وأن يخرج من حربه معهما مجتمعين قويا ، حتى لقد أصبح زمام المبادأة فى يده ، وقد استطاع ببعد نظره ، وحسن سياسته ، وما أظهره من مرونة وكياسة أن يعقد مع قريش عهد الحديبية فأمن به قريشا وأمن الجنوب كله ، لكنه لم يأمن ناحية الشمال ، حيث تجمعت فلول اليهود فى خيبر ، وأخذت تسعى لتأليف كتلة يهودية منهم ومن يهود وادى القرى وتيماء لغزو يثرب ، وإذا كانوا قد استطاعوا تأليف الأحزاب حتى ساقوا لحرب المدينة عشرة آلاف مقاتل فى غزوة الخندق فليس ببعيد عليهم ولا ممتنع أن يستعينوا بقبائل الشمال ، أو أن يستعينوا بقوى خارجية فارسية أو رومية لضرب المسلمين ضربةً ساحقةً نهائية ، واليهود أشد من قريش عداوة لمحمد ، لأنهم أحرص لى دينهم من قريش ، ولأن فيهم علما ومكرا أكثر مما فى قريش وليس من اليسير أن يوادعهم بصلح كصلح الحديبية ، ولأن يطمئن إليهم ، وقد سبقت بينهم وبينه خصومات لم ينتصروا

فى إحداها ، فما أجدرهم أن يثأروا لأنفسهم إذا وجدوا فرصة مناسبة ، أو استطاعوا أن يجدوا لهم مددا من قوى خارجية ، وإذن فلابد من القضاء على قوة هؤلاء اليهود قضاء أخيرًا ، حتى لاتقوم لهم من بعد ببلاد العرب قائمة أبدا ، وكذلك فعل ، فإنه لم يقم بالمدينة بعد عودته من الحديبية إلا خمس عشرة ليلة على قول آخر ، حتى أمر الناس بالتجهيز لغزو خيبر ، على ألا يغزو معه إلا من شهد الحديبية ، وقد حرص محمد على ذلك حتى لا يكون معه أحد غير مطمئن إلى قوة نفسه ، وسمو روحه ، وبعد تفكير عن الكسب المادى ، ومحمد لايريد أن يضم إلى صفوفه مثل هؤلاء الناس من طلاب الغنيمة ، وكانت جموع اليهود فى خيبر من أقوى الطوائف الإسرائيلية بأسا ، وأوفرها مالا ، وأكثرها سلاحا ، وأعظمها دربة على القتال ، لذلك وقفت شبه جزيرة العرب كلها متطلعة إلى هذه الغزوة ، حتى لقد كان من قريش من يتراهنون على نتائجها ، ولمن يتم له الغلب فيها ، وكان كثيرون يتوقعون أن تدور الدائرة على المسلمين ، لما عرف من قوة حصون خيبر ، وقيامها فوق الصخور والجبال ،

ولطول ممارسة أهلها للحرب والقتال ، وكان المسلمون يدركون تمام الإدراك ، ويقدرون نتائجه حق التقدير ، لذلك ذهبوا مستقتلين لايعرف التردد سبيلا إلى نفوسهم ، وكان النبىُّ يدرك — كذلك — قيمة هذا الموقف ، ويقدر أنه لو فشل أمام خيبر فسيتغير ميزان القوى من جديد ، وربما حدثت نكسة أعادت إلى أعدائه قوتهم وحماستهم لقتاله والهجوم عليه ، ثم إنه كان يدرك أنه مابقيت لليهود شوكة فى شبه جزيرة العرب فستظل المنافسة بين دين موسى والدين الجديد حائلاً دون تمام الغلب له ، وحائلا دون تمام الوحدة التى يعمل لها ، والتى يسعى لإقرارها حتى يتم تكوين الأمة التى يريدها نواة لمجتمع إنسانى فاضل تحت لواء الإسلام ... و انتهاء سلطان اليهود خَفَّفتْ حدة البغضاء التى كانت فى صدور المسلمين لهم ، وبخاصة الأنصار ، وتغير الموقف نهائيا فى جزيرة العرب لصالح المسلمين ، وهكذا كان صلح الحديبية فتحا مبينا أتاح للنبى فرصة إحكام خطته ، وبدا بوضوح لأصحابه أنه الرجل العبقرى الفذُّ الذى اكتملت له بصيرة القلب إلى جانب تأييد السماء » وهذه الفقرة الأخيرة من كلام الأستاذ الشريف فيها بيت القصيد ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم

اجتمع له إلى جانب بصيرة القلب تأييد السماء ، ولهذا كان سلوكه حزمًا ، ونهجه حكما ، وتصرفه صوابا ، وعمله سدادا ، يؤيده الوحى ، وتؤازره عناية الله ، وهذه هى عقيدة المسلم التى لايتحول عنها ، ولا يرتاب فيها ، ولقد كان وقوفه صلى الله عليه وسلم لهذه القوى الجبارة ، والخصومات الفاجرة ، دليلا على أنه لايقف وحده ، وإنما كانت معه إرادة الله التى هى السلاح الذى لايفل ، والجيش الذى لايغلب ، ولولا ثقته بهذا الجانب المتين الذى كان ظهره إليه ، وإعتماده عليه ، لخانته الأسباب وخفى عليه الصواب ، وكان له تاريخ آخر غير هذا التاريخ ..

وقد كان لأصحابه فى تلك الأدوار البطولية المواقف الرائعة ، والعمل الجاد ، والجهد المشكور ، حتى فى غير ميدان الكر والفر ، وهو مانسميه نحن الآن بالحرب النفسية ، كما فعل نعيم بن مسعود فى السفارة بين قريش وبنى قريظة فى غزوة الأحزاب المسماة بالخندق ، وهى السفارة التى كانت سببا فى فقدان الثقة بينهما فقدانا كان له أثره البارز فى هزيمة الأحزاب ، أو بعبارة أدق فى خيبة التجمع الذى أرادت الأحزاب من ورائه الدخول إلى المدينة ، والقضاء على محمد وأصحابه ، حتى لاتقوم له قائمة إلى الأبد ،

وماكانوا يظنون أنه على الباغى تدور الدوائر، وليس أكثر من هذا الرعب الذى ملأ قلوبهم ، والفزع الذى تحطمت به نفوسهم ، إلى درجة أنهم وصل بهم الحال أن يتصوروا الخوف فى كل شىء ، وقد حدث أن النبى صلى الله عليه وسلم لما انتهى العام الذى تضمنته المعاهدة وخرج مع أصحابه يريد دخول مكة ليقضى العمرة التى ساق لها الهدى فى عامه السابق وعلمت قريش بقدومه أخذها الهلع وظنت أنه صلى الله عليه وسلم سيغدر بها ، ويغزوها فى عقر دارها ، وربما كان سوء الظن الذى يملأ نفوسهم سببا فى أن يأمر الرسول أصحابه فى طوافهم بالبيت أن يظهروا حركة ونشاطا يدلان على القوة لتمتلئ نفوسهم بالرعب والخوف ، فقد روى أنه لما دخل المسجد اضطجع بردائه ، وأخرج عضده اليمنى، وقال « رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوةً ، وكان عدد المسلمين فى هذ العمرة ألفين كانوا فى نشاطهم وطوافهم وقوة تحركهم يمثلون الهول الطارق الذى زلزلت له أفئدة قريش ، وقد علا بلال ظهر الكعبة وأذّن للصلاة ، وكان هذا المنظر الرائع الذى يملأ قلوب المسلمين بالثقة والاعتزاز مُغريًا لعبد الله بن رواحة

أن يقذف فى وجه قريش بصيحة الحرب ، لولا أن صدّه عن ذلك عمر بن الخطاب ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلاً يابن رواحة ، وقل :لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ،وأعزّ جنده ،وخذل الأحزاب وحده ، فنادى بها ابن رواحة رافعا صوته، وردّدها المسلمون بعده ، فتجاوبت بأصدائها جوانب مكة ، وارتفعت رهبتها إلى قلوب الذين كانوا بالجبال هربا من هذا المشهد الذى كان يثير فى نفوسهم الحقد والكراهية ، وكانت أم الفضل زوجة عمه العباس قد قدمت أختها ميمونة التى أحبت الإسلام وآمنت به ورغبه العباس فى الزواج منها ، فلما تقدم إليه سهيل بن عمرو أن يخرج بعد إنتهاء الأيام الثلاثة ، قال له الرسول ماذا عليكم لو أعرسنا بينكم وأولمنا وأشركناكم معنا طعام الوليمة ؟ فقال له : لاحاجة لنا بطعامكم .. إلا أن هذه الأيام التى أقامها النبى صلى الله عليه عليه وسلم والمسلمون معه كانت نموذجا طيبا للسلوك القويم ، والخلق الكريم ، والأدب الرفيع ، والمعاشرة الحسنة ، حملت كثيرا من العقلاء أن يُعْلِنوا دخولهم فى دين محمد ، حتى لقد وقف خالد بن الوليد فارس قريش وأحد أبطالها المغاوير ينادى فى بطن مكة قائلا « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمدا ليس

بشاعر ولا ساحر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذى لب أن يتبعه » وأسلم بعد ذلك عمرو بن العاص ، وعثمان ابن طلحة ، وكثيرون غيرهم ، وكان لإسلام هؤلاء جميعا الأثر البارز فى أن كانت مكة قاب قوسين أو أدنى من الفتح الأكبر الذى تدك فيه معالم الشرك ، وتتهاوى فيه الأصنام ، ويصبح من المألوف إلى حد بعيد أ تكون هنالك عقيدة وراء « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولهذا كان المسلمون فى غاية الاطمئنان إلى أن الزمن فى صالحهم - كما يقولون - لم يتعجلوه ولم يسبقوا حوادثه لفتح مكة بعد أن تهيأت الأذهان لهذا الفتح ، وبخاصة وهم يعلمون أن الأجل الذى نصت عليه معاهدة الحديبية لايزال بعيد المدى اللهم إلا إذا حصل جديد يحملهم حملاً على أن يحملوا السلاح قبل الأوان .

حديث أبى سفيان

بعد رجوع المسلمين من الحديبية فى أواخر السنة السادسة كان همه صلى الله عليه وسلم أن ينتقل بدعوته إلى خارج نطاق الجزيرة فى الروم وفارس ومصر وغيرها من البلاد النائية عنه . وكان من هؤلاء الكثيرين الذين كتب إليهم يدعوهم بدعاية الاسلام قيصر ملك الروم ، وكان نص الخطاب الذى أرسله إليه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام وأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين — الفلاحين — ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . .

ولما وصل الكتاب إلى قيصر هذا أراد أن يتقصى الحقيقة ، وأن يتأكد من المصير الذى يمكن أن يصير إليه ، حتى إذا — ما استجاب للداعى ، ودخل فى هذا الدين ، واختط لنفسه طريقا

جديداً كان قويماً مستقيماً ، أم ليس فيه من الاستقامة شيء ، وهذا هو شأن الرجل الذى تتفتح نفسه للحق ، وتتجه للصواب وترحب بالنور الذى يضيء لها الطريق ، ويكشف لها مواضع أقدامها ، فى الدرب الذى تسلكه ، فكان منه أن قال « أنظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه ، وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة ، فجاءت رسل قيصر لأبى سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ، ولما قدموا عليه فى القدس ، قال لترجمانه : « سلهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى . . فقال أبوسفيان : أنا — لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره — فقال قيصر : أدن منى ، ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ، وقد جعلتكم خلفه ، كيلا تخجلوا من رد كذبه عليه إذا كذب ، ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قال : هو فينا ذونسب قال : هل تكلم بهذا القول أحدٌ منكم قبله ؟ قال : لا ، قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال : لا ، قال : فأشراف

الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ، قال : فهل يزيدون أم ينقصون ؟ قال : بل يزيدون ، قال : هل يرتد أحد منهم سخطةً لدينه ؟ قال : لا ، قال : هل يغدر إذا عاهد ؟ قال : لا ، ونحن الآن منه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها ، قال : فهل قاتلتموه ؟ قال : نعم ، قال : فكيف حربكم وحربه ؟ قال : الحرب بيننا وبينه سجال ، مرةً لنا ومرةً علينا ، قال : فيم يأمركم ؟ قال : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، وينهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة . . . فقال الملك : إنى سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب من قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فزعمت أن لا ، فلو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يأتم بقول قيل قبله ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فزعمت أن لا ، فقلت ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ، فقلت لا ، فلو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك أشراف الناس

يتبعونه أم ضعفاؤهم ، فقلت ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون ، فقلت بل يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد سخطةً لدينه ، فقلت لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل قاتلتموه ، فقلت نعم ، وإن الحرب بيننا وبينه سجال ، وكذلك الرسل تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة ، وسألتك بماذا يأمر ، فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك هل يغدر ، فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، فعلمت أنه نبي ، وقد علمت أنه مبعوث ولم أظن أنه فيكم ، وإن كان ما كلمتني به حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ، ولو أعلم أنى أخلص إليه لتكلفت ذلك . . . قال أبو سفيان فعلت أصوات الذين عنده ، وكثر لغطهم ، فلا أدرى ما قالوه ، وأمر بنا فأخرجنا ، فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال : لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني الأصفر ، ولما سار قيصر إلى حمص أذن لعظماء الروم في دسكرة له ثم أمر بأبوابها أن تغلق ، ثم قال : يامعشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم ، فتبايعوا هذا النبي ، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة ،

فلما رأى قيصر نفرتهم قال: ردوهم علىّ فقال لهم: إنى قلت مقالتى لأختبر بها شدتكم على دينكم فسجدوا له، ورضوا عنه، فغلبه حب ملكه على الإسلام، فذهب بإثمه وإثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام .

وهذه وثيقة تاريخية لها تقديرها واحترامها فى تاريخ النبى محمد صلى الله عليه وسلم، لأنها تطوى فى حوارها وجدلها السيرة العطرة، التى يعتز بها المسلمون، إذا ذكرت النبوات، وتحدث الناس عن الرسالات، فلقد كانت الأسئلة التى وجهها قيصر فى صميم الدعوة والدعاة، إلى درجة أنها تصلح لأن تكون دستورا أو بمعنى أصح ميزاناً توزن به أعمال الذين يتصدون لقيادة الجماهير، وتوجيه الإنسانية، وإنقاذ المتورطين فى سلوكهم، أو المتخبطين فى سيرهم، ومن هذا الدستور أو الميزان نعرف إن كان الداعى من هؤلاء الذين ينشدون المجد ويطلبون الملك، ويبغون السيادة، أم إنه من أولئك الذين يحملون المصابيح، ويجعلون من أنفسهم زيتًا لها ليضيئوا للبشرية سبيل الخير، وطريق البر، ويأخذوا بأيديها إلى حيث يكون النجاح والفلاح

دون أن يترقّبوا على ذلك أجرًا إلاّ رحمة الله الذى له ما فى السماوات ومافى الأرض .

ونحن ننظر إلى هذه الوثيقة من ناحيتين اثنتين ، أشخاصها الذين أداروا دفة هذا الحوار ، ثم الحوار نفسه . . أما الحوار فهو — كما رأينا — لم يترك شبهة تخطر بالبال ، وتتوارد على الذهن ، إلا أشبعها بحثاً ، وناقشها من كل ناحية ، وجعل الجواب عنها مسلما لبداءة العقول ، لذلك كانت النتيجة المترتبة عليه ضرورية لامفرّ من التزامها ، ولا ريب فى ترتبها عليها ؛ كما تترتب النتيجة على المقدمات فى قانون المنطق السليم ، إلا أن رجوع قيصر كان لعمى فى بصيرته سببه أنه آثر الفانية على الباقية ، والدنيا على الدين ، والشيطان على الرحمان . . وانحرافه عن السنن ، والتواؤه عن القصد لايطعن فى صحة المقدمات ، وسلامة الترتيب والترتب .

وأما الأشخاص الذين أداروا دفة الحوار ، ومثلوا هذا المنطق فهما أبو سفيان وقيصر ، وكلاهما لايمكن أن يحابى محمدا ، ولا أن يحابى دينه لذلك كان لرأى كل منهما ميزانه بين الاراء ،

وقد كان أبو سفيان من أساطين الكفر ، وكبار المعارضين ، وكان يعنيه — حينئذ — أن يقول كلمة مغموزة ، أورأيا ملتويا ، أو يحكم حكما قاسيا يرسله كالصاروخ الموجّه ليكيد به محمدا وأصحابه ، ولكنه آثر الجانب الذى يتناسب مع رجولته الضخمة ، وبسالته الفذّة ، وعقله الكبير ، وشرفه العظيم ، ونسبه النبيل ، ومكانته فى قومه ، والقاضى أو الشاهد إذا ماتَنَبَّه لشرف مركزه ، وقداسة وضعه ، لم يذكر شيئا فى هذا الو ت إلا الصدق فى القول ، والإنصاف فى الحكم ، والسداد فى الرأى ، وعدم الميل إلى جانب الهوى أو الغرض ، لأن ذلك زرى بالمروءة والشرف ، ويدنس العرض والخلق ، وأبو سفيان مهما كانت خصومته لمحمد ، واختلافه معه فى الرأى ، لاينسى أنه ذلك الرجل الذى كانت له السيادة فى العرب ، ولايليق بمثله أن يُسِفَّ أو أن ينزل إلى مستوى السوقة . . لذلك كله كان جديرا من النبى صلى الله عليه وسلم فى يوم فتح مكة أن يعطيه هذا الأمان الكبير المقرون بأن ينادى مناديه من دخل دار أبى سفيان

فهو آمن ، وكان هذا سببا فى الدهش البالغ الذى أصاب الناس فى هذا اليوم وهم كانوا لا يزالون يزعمون أنه باق على موقف العناد والمعارضة ، ولم يفهموا أن التيار الجارف لا يعترضه إلا الذى يبلغ به الحمق غايته .

فتح مكة

لاتزال إلى هذا التاريخ مسافة الزمن الذى تضمنته معاهدة الحديبية ، والذى اتفق على أن يكون أحدها هدنة قائمة بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، لايشعل أحدهما حربا ، ولا يعتدى على حليف ، إلا أن غزوة مؤتة التى جاءت فى أعقاب الحديبية وخرج فيها مائة ألف أو أكثر من الروم والعرب الموالين لهم لثلاثة آلاف فقط من المسلمين كانت نهايتها على خلاف ماكان يرجو محمد وأصحابه ولهذا أغرَتْ هذه النهاية قريشا بالمسلمين من جديد — وعاد وضعهم معهم — أو كاد يعود — إلى مثل ماكان عليه قبل الأحزاب ، وكان من نصوص معاهدة الحديبية — كما نعلم — أن من أراد الدخول فى حلف أحد الطرفين المتعاقدين دخل ، وكان من أثر ذلك أن دخلت بنو بكر فى حلف قريش ، ودخلت خزاعة فى حلف رسول الله ، وكان بين بنى بكر وخزاعة حزازات قديمة ، وثارات من سالف العهود ، أثارها وبعث كامن حقدها ماوصل إليه حال معسكر محمد وأصحابه فى مؤتة التى لم يكن لجيشهم فيها من فضل إلا افضل

الانسحاب من غير أذى يلحق بهم ، ولا ضرر يلقونه ، وأخذت بنو بكر تتحرش بخزاعة وتنال منها ، وكانت قريش تساعد بني بكر بالمال والسلاح في الخفاء متناسية أن ذلك خرق لمعاهدة الحديبية ، زاعمة أن أحداً لا يعرف هذا التحرك المستتر الذى تتحركه ، لكن بعض الأفراد من خزاعة ذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأخبروه خبر هذا النكث للعهد ، وناشدوه أن يدرك حلفاءه ، ويقول الشيخ الخضرى فى كتابه «نور اليقين» : «إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه ، وأزال موانعه ، وقد كان عليه السلام يعلم أنه لا تذل العرب حتى تذل قريش ، ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكة ، فكان يتشوف لفتحها ، ولكن كان يمنعه من ذلك العهود التى أعطاها قريشا فى الحديبية — وهو سيد من وفّى — ولكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه ، وقد علمت أن خزاعة دخلت فى عهد رسول الله ، وبكر دخلت فى عهد قريش ، وكان بين خزاعة وبكر دماء فى الجاهلية ، كمنت نارها بظهور الإسلام ، فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بكر يتغنى بهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم على مسمع من رجل خزاعى ، فقام هذا الخزاعى وضربه ، فحرك ذلك كامن الأحقاد ، وتذكر بنو بكر ثأرهم ، فشدوا العزيمة لحرب

خصومهم ، واستعانوا بأوليائهم من قريش فأعانوهم سِرًّا بالعتاد والرجال ، ثم توجهوا إلى خزاعة وهم آمنون ، فقتلوا منهم مايربو على العشرين ، ولما رأى ذلك حلفاءُ الرسول — خزاعة — أرسلوا وفدًا منهم برياسة عمرو بن سالم الخزاعى ليخبر رسول الله بما فعل بهم بنو بكر وقريش ، فلما حلوا بين يديه وأخبروه الخبر ، قال « : والله لأمنعنكم مما أمنع منه نفسى ».

أما قريش فإنهم لما رأوا أن ماعملوه نقضٌ للعهود التى أخذت عليهم ندموا على مافعلوا ، وأرادوا مداواة هذا الجرح فأرسلوا قائدهم أباسفيان بن حرب إلى المدينة ليشد العقد ، ويزيد فى المدة ، فركب راحلته وهو يظن أنه لم يسبقه أحد ، حتى إذا جاءَ المدينة نزل على ابنته أم المؤمنين حبيبة ، وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله فطوته عنه فقال يابنية أرغبت به عنى ، أم رغبت بى عنه؟ فقالت : ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس ، فقال لها : لقد أصابك بعدى شر ، ثم خرج من عندها وأتى النبىَّ فى المسجد فعرض عليه ماجاءَ له ، فقال عليه السلام : هل كان من حدث؟ قال : لا ، فقال ، عليه السلام :

فنحن على مدتنا وصلحنا ، ولم يزد عن ذلك ، فقام أبوسفيان ومشى إلى أكابر المهاجرين من قريش علّهم يساعدونه على مقصده فلم يجد منهم معينا ، وكلهم قالوا جوارنا فى جوار رسول الله ؛ فرجع إلى قومه ولم يصنع شيئا ، فاتهموه بأنه خانهم واتبع الإسلام فتنسك عند الأوثان لينفى عن نفسه هذه التهمة .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه تجهّز للسفر ، وأمر أصحابه بذلك وأخبر الصديق بالوجهة فقال له يارسول الله أو ليس بينك وبين قريش عهد ؟ قال نعم ، ولكنهم غدروا ونقضوا ، ثم استنفر عليه السلام الأعراب الذين كانوا حول المدينة ، وقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، وطوى عليه السلام الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعدللحرب ، والرسول عليه السلام لايريد أن يقيم حربا بمكة بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحرمتها فدعامولاه جل ذكره وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى تبعتها فى بلادها فقام حاطب بن أبى بلتعة أحد الذين شهدوا بدرا وكتب كتابا إلى

قريش يخبرهم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسله مع جارية لتوصله إلى قريش على عجل ، فأعلم الله رسوله بذلك فأرسل فى أثرها عليا والزبير والمقداد وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب فخذوه منها فانطلقوا حتى الروضة فوجدوا بها المرأة فقالوا لها : أخرجى الكتاب ، أو لنلقين عنك الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتوا به رسول الله ، فقال عليه السلام : ياحاطب ماهذا ؟ قال يارسول الله : لاتعجل علىّ ، إنى كنت حليفاً لقريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى ، ولم أفعله ارتدادًا عن دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الاسلام ، فقال عليه السلام: أما إنه قد صدقكم ، فقال عمر: دعنى يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال انه شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم ، وفى هذا نزل قوله تعالى : ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء

مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » ثم سار عليه السلام بهذا الجيش العظيم فى منتصف رمضان بعد أن ولى على المدينة ابن أم مكتوم وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مجاهد ولما وصل الأبواء لقيه اثنان كانا من أشد أعدائه وهما ابن عمه أبوسفيان بن الحارث بن عبد المطلب شقيق عبيدة بن الحارث شهيد بدر ،وصهره عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة شقيق أم المؤمنين أم سلمة وكانا يريدان الإسلام فقبلهما عليه السلام وفرح بهما فرحا شديداً وقال : « لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » وقد قابل عليه السلام فى الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجرا بأهله وعياله فأمره بأن يعود معه إلى مكة ويرسل عياله إلى المدينة ولما وصل عليه السلام مرّ الظهران أمر بإيقاد عشرة آلاف نار ، وكانت قريش قد بلغها أن محمدا زاحف بجيش عظيم لاتدرى وجهته فأرسلوا أباسفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مرّ الظهران فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة ، فقال أبوسفيان : ماهذه لكأنها

نيران عرفة ، فقال بديل بن ورقاء: نيران بنى عمرو فقال أبوسفيان: عمرو أقل من ذلك فرآهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله فأسلم أبوسفيان لما ما، قال للعباس: احبس أباسفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة وهو يسأل عنها ويقول: مالى ولهاحتى إذا مرت به قبيلة الأنصار وحامل رايتها سعد بن عبادة ، فقال سعد: ياأبا سفيان اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة ، فقال أبوسفيان: ياعباس حبذا يوم الذمار ، ثم جاءت كتيبة وهى أقل الكتائب فيها رسول الله وأصحابه وحامل الراية الزبير بن العوام ، فأخبر أبو سفيان رسول الله بمقالة سعد ، فقال رسول الله: كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ثم أمر عليه السلام أن تركز رايته بالحجون ، وأمر خالد بن الوليد ، أن يدخل من أسفل مكة من كدى ودخل هو من أعلاها من كداء ، ونادى مناديه من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهوآمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم وآذوا الإسلام وأهله عظيم الأذى فأهدر دمهم وإن تعلقوا بأستار الكعبة ، منهم عبدالله بن

سعد بن أبى سرح الذى أسلم وكتب لرسول الله الوحى ثم ارتد وافترى على الله الكذب ، فكان يقول : إن محمدا كان يأمر أن أكتب عليم حكيم فأكتب غفور رحيم فيقول كل جيد ، ومنهم عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وكعب بن زهير ، ووحشى قاتل حمزه وهند بنت عتبة زوج أبى سفيان وقليل غيرهم ، ونهى عن قتل أحد سوى هؤلاء الا من قاتل . . فأما جيش خالد بن الوليد فقابله الذعر من قريش يريدون صده فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرين ، وقتل من جيشه اثنان ودخلها عنوة من هذه الجهة . . وأما جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يصادف مانعاً وهو عليه السلام راكب راحلته منحن على الرحل تواضعا لله وشكرا على هذه النعمة ، حتى تكاد جبهته تمس الرحل ، وأسامة بن زيد رديفه ، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان حتى وصل إلى الحجون موضع رايته وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة وميمونة فاستراح قليلا ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ سورة الفتح حتى أتى البيت وطاف سبعاً على راحلته واستلم الحجر بمحجنه وكان حول الكعبة إذ ذاك ثلاثمائة وستون صنماً فجعل عليه السلام يطعنها بعود فى يده ويقول «جاء الحق وزهق الباطل»

«ومايبدىء الباطل ومايعيد» ، ثم أمر بالآلهة التى كانت بها فأخرجت من البيت وفيها صورة إسماعيل وإبراهيم فى أيديهما الأزلام فقال عليه السلام : قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط وهذا أول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة وبطهارة الكعبة المقدسة من هذه الأدناس سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب ؛ ».

وإلى هنا تكون عصابة الشرك فى مكة وغيرها قد تهاوت أعلامها ، وذانت دولتها ، ولم يعد فى إمكانها أن تعامل محمدا بالأسلوب القديم الذى كانت تعامله به ، والذى كان يقوم على العنف والشدة ؛ والقسوة والغلظة ، وعدم المبالاة ، ولكنها الآن تخطب وده ، وتعمل جهدها كله لتكتسب رضاه ، وتقيم علاقاتها معه على المعاهدات المتكافئة ، والعهود المرعية ، فإذا شعرت أنها أخلت بشرط من الشروط ، أو خرجت على نص من نصوص المعاهدة بعثت كبيرا من ساستها ، أو عظيما من قوادها يرجو محمدا صلى الله عليه وسلم أن يتغاضى عن هفوة المسيء ، وحماقة المعتدى ، ولقد رأينا كيف إنها مادت الأرض من تحت أقدامها ، وتهددها الأخطار ، وأحاط بها الهلع والفزع ، لأن خيانتها قد تكشفت ، وإمدادها لبنى بكر بالسلاح والمال فى اشتباكها مع بنى خزاعة قد عرف ، أو وصل

أمره إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم تشأ أن تسكت على ذلك أو تصبر ، وراحت ترسل قائدها لعناد النبي وحربه ليؤكد — من جديد — عهد الحديبية فلما لم يجدها ذلك كله نقيرا ولا قطميرا استسلمت للأمر الواقع ودخل محمد عليها مكة فلم يقاوم دخوله ، أو تعترض طريقه ، أو تشهر فى وجهه سيفا ، باستثناء تلك المناوشة البسيطة التى قوبلت بها كتيبة خالد بن الوليد ، ولم يكن دخول جيش محمد وحده فى هذا اليوم هو كل شىء ، ولكن الذى كان هو كل شىء ، وأعظم من كل شىء .

أولا — أن يطلب النبى صلى الله عليه وسلم سادن الكعبة عثمان بن طلحة ليأخذ منه مفتاح الكعبة ثم يدخلها دخول الظافر المنتصر .

ثانياً — أن تتحطم على مرأى ومسمع منهم تلك الأصنام التى يؤلهونها ويعبدونها من دون الله ثم لم يكن منهم إلا الرضا والاستسلام

ثالثاً — أن يعلن إليهم أنه فى موقف القوة الذى يسمح له بالعفو عنهم — والعفو عند المقدرة — فيقول : إذهبوا فأنتم الطلقاء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رابعاً ـ أن تتوافد عليه وفود الرجال والنساء تبايعه على الإسلام والطاعة والبذل والفداء ، فى حين أنهم لم يستطيعوا صدّ هذا التيار الزاحف .

وهذه كلها معان تدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يتحدث ن موطن القوة لا موطن الضعف ، وتلك لحظة من اللحظات التاريخية النادرة عوّضه الله بها عن كل شدة كان يلاقيها ، وكل هزيمة حلّت به ، وكل إيذاء أصابه ، نصرا عزيزا أرضى خاطره ، وأثلج صدره ، وأراح فؤاده ، ورفع رأسه ، وبيّض وجهه ، وبوّأه مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ونسى الرسول إحن هؤلاء وعداوتهم ووضع صب عينيه أنه الرحمة المهداة للناس ، ويعلق الدكتور هيكل على هذا الموقف فيقول : « ما أجمل العفو عند المقدرة ، وما أعظم هذه النفس التى سمت كل السمو ، فارتفعت فوق الحقد والانتقام ، وأنكرت كل عاطفة دُنْيَا ، وبلغت من النبل فوق مايبلغ الإنسان ، هؤلاء قريش يعرف محمد منهم من ائتمروا به ، ومن عذّبوه هو وأصحابه من قبل ذلك ، ومن قاتلوه فى بدر وفى أحد ، ومن حصروه فى غزوة الخندق ، ومن ألّبوا عليه العرب جميعا ، ومن لو استطاعوا قتله ، وتمزيقه لما ونوا عن ذلك لحظة .

هؤلاء قريش فى قبضة محمد ، وتحت قدميه ، أمره نافذ فى رقابهم ، وحياتهم جميعا معلقة بين شفتيه ، وفى سلطانه هذه الألوف المدججة بالسلاح تستطيع أن تبيد أمة وأهلها فى لمحة الطرف .
لكن رسول الله ليس بالرجل الذى يعرف العداوة ، أو يريد أن تقوم بين الناس ، وليس هو بالجبار ولا المتكبر ، لقد أمكنه الله من عدوه فصفح وعفا وضرب بذلك للعالم كله مثلاً فى البر والوفاء بالعهد ، وفى سمو النفس سموا لا يبلغه أحد » .

والقارىء لأنباء هذه الغزوة وأحاديثها يعثر على كثير من الأخبار الطريفة ، والمفارقات الحلوة ، التى تنبىء عن إخلاص المؤمنين لدينهم ، ودعوة نبيهم إخلاصا يفوق حدود الوصف ، وتنبىء — كذلك — عن العصبية للجنس أو الدم أو الجاه والحكم .

وربما كان من أروع الصور للإخلاص للدين وللرسول صلى الله عليه وسلم ماصنعته أم المؤمنين حبيبة بأبيها أبى سفيان الذى ظن أنه سيجد فى جوارها من الحنان والرحمة ، والإجلال والاحترام ، مايخفف عنه مايحمله فوق كاهله من هموم ، وما لاقاه فى طريقه من عناء ، ولكنه رأى أن أبوته لها لاقيمة لها

إلى جانب ماتحتفظ به لرسول الله من قداسة ،وما ترعاه له من حرمة ، وأن الحقوق التى يمليها الدين لها عندها الاعتبار الأول وقد قدم لنا أبو سفيان صورةً للرجل الكبير الذى تقوم كبرياؤه على الزيف، وتعتمد على الباطل ، وتنحاز إلى حزب الشيطان ، وتغتصب جاهها وسلطانها من الغوغاء والأوباش ، ثم لاتلبث إذا ماجد الجد ، وانتصر الحق على الباطل ، أن يتضاءل حجمها ، ويتهاوى كبرياؤها ، وتبدو — على حقيقتها — أقل من لاشيء فى العدد .

عمر به صديقه العباس بن عبد المطلب على نيران المسلمين ليدخل فى نفسه الرعب ، ويعلق هو على هذا المنظر المذهل فيقول : إنها كنيران عرفة ، ويراه عمر فيقول : عدو الله أبوسفيان الحمد لله الذى أمكن منه بغير عقد ولا عهد ، ويهم بقتله ويمنعه العباس قائلا له : إنه فى جوارى ، ويدخل على النبى صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه حقناً لدمه ، وابقاءً على نفسه ، ويبتدره الرسول بقوله أما آن لك أن تعلم ألا إله إلا الله ؟ فيقول له: بلى ، فيقول له وأن محمدا رسول الله ، فيقول أما هذه ففى النفس منها شىء فيعالجه صاحبه العباس بقوله اشهد قبل أن تضرب عنقك ،

فيشهد ويتجه العباس إلى رسول الله بقوله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له ذكراً ليظفر منه فيما بعد بتلك الكلمة « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » وإلى هنا تزول دولة الظلم ، وسلطان الباطل ، « إن الباطل كان زهوقا » .

ويفر الهاربون من العدالة عكرمة وصفوان ووحشى قاتل الحمزة فى أحد وعبد الله بن الزبعرى ، وكعب بن زهير وهند بنت عتبة زوجة أبى سفيان ثم تضيق عليهم الأرض بما رحبت فلا يجدون سبيلًا أقوم من أن يسلموا رقابهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمن عليها بالحرية ، وتقول آكلة الكبود هند بعد أن وقفت بين يدى رسول الله وأعلنت إسلامها « والله يارسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلىّ أن يذلوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم أهلُ خباء أحب إلى أن يعزوا من أهل خبائك » ويتنكر كعب بن زهير ليقف بين يدى الرسول عقب صلاة الفجر بالمسجد ليقول له أو جاء إليك كعب عائذاً لائذاً تقبل منه يارسول الله ؟ فيقول له نعم

أقبل منه ، فيقول له ، مكان العائذ بك كعب يارسول الله . . .
وينشده قصيدته المعروفة ببانت سعاد ، والتى يقول فيها :

أنبئت أنَّ رسول الله أوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول

إنَّ الرسولَ لسيف يستضاءُ به
مهندٌ من سيوف الله مسلول

غزوة تبوك

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة ، وإذلاله لطواغيت الشرك ، وقادة الكفر ، وتهافت القبائل والبطون على مبايعته على الإسلام ، ودخولهم فى دين الله أفواجا ، وتحطيمه للأصنام التى كانت فى الكعبة وغيرها ، قد أصبح له شأن دونه شأن الأباطرة والأكاسرة ، والملوك والسلاطين ، وصار زحفه يزداد يوما بعد يوم ، بحكم نشر الدين ، وإعلان العقيدة ، وعموم الدعوة إلى الناس جميعا ، وهنا لك دب الخوف إلى نفوس الروم والفرس وهما الدولتان الكبيرتان اللتان يتهددهما الغزو الإسلامى حينئذ . وقد بلغه أن الروم تجمع الجموع للوقوف فى وجهه ، والحد من تحركه ، والعمل على ألا يتجاوز نطاق دعوته من البلاد والناس وراء ماتجاوزته ، لأن ذلك سيجعلها فى خبر كان لا محالة ، طال الزمان أوقصر ، فأعلن صلى الله عليه وسلم النفير العام فى المسلمين لأنه علم أن الروم لايناجزونه وحدهم ولكن ينضم إليهم من لايزال على الشرك من العرب والأعراب الذين

كان محمد صلى الله عليه وسلم قد أرغمهم —ماداموا لم يختاروا الإسلام — على أن يدفعوا له الجزية عن يد وهم صاغرون . . ويقول المؤرخون: إن النبى صلى الله عليه وسلم كان مما أخذ نفسه به مع المسلمين — إذا أراد الخروج إلى غزوة — ألا يصارحهم بالجهة التى سينتهى إليها الجيش حتى لايتسرب نبأ ذلك إلى العدو فيتأهب له ، لكنه فى هذه المرة قد آثر الإعلان والمصارحة ، والسبب فى هذه المخالفة أن السفر شاق لأنه إلى تبوك فى الشام ، والجو حار شديد الحرارة ، والثمار على وشك أن تنضج ، وقد تكون هذه الاعتبارات مجتمعة أو منفردة مدعاةً إلى التعلل بها ، وتغليب جانب البقاء على جانب الخروج ، وبهذا كان الاعتذار مفتوحاً على مصراعيه ، وبدأ النفاق فى أوضح صوره ، وأجلى مظاهره ، على الرغم من التهديد الصريح الذى كان يقرع آذانهم فى مثل قوله سبحانه « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين » وقوله أيضا « يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله

اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل، إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم ولاتضروه شيئاً والله على كل شىء قدير »
على أن هنالك من المسلمين من أبدى غاية الإخلاص فى الجهاد ، ونهاية البذل فى سبيل الله مثل عثمان وأبى بكر وعمر وعبد الرحمن ابن عوف ، وأولئك الذين كانوا لايجدون الظهر التى يركبونها فجاؤا إلى الرسول ليوفر لهم الظهر التى يركبونها فلما قال لهم لاأجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون ، ويظهر من أحداث غزوة تبوك أنها كانت آخر ما طفح به الكيل فى نفوس المنافقين إذ ظهرت كراهيتهم لأن ينتصر محمد أويتمكن نفوذه ، ويقوى سلطانه بشكل لا التواء فيه ولا خفاء ، فإنهم لم يتركوا لوناً من ألوان الاعتذار ولا أسلوباً يعلّلون به تخلفهم وعدم خروجهم إلا سلكوه والتجأوا إليه . . وفى سورة التوبة تسجيل لهذه الألوان ، وتلك الأساليب وإن كانت كلها لم تخف عن النبى صلى الله عليه وسلم ولكنه علمها وأطلعه الله عليها وكان ذلك افتضاحا لحالهم ، وكشفا لسوءاتهم ، وقد حمل ذلك كله جماعة من المتخلفين أن يصارحوه

صلى الله عليه وسلم ، أن تخلفهم لم يكن لعذر يلتمسونه التماسًا ، أو يزورونه كذبا وبهتانا ، وأنهم لهذا يتركون الأمر له ليقضى فيهم بما يجد أنه يتناسب مع تلك الجريمة ، وقد ربطوا أنفسهم بسارية المسجد ، وقاطعهم الناس حتى زوجاتهم ، ثم نزلت فيهم الآية : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » ويقول الدكتور هيكل : « وانطلق الجيش بعد ذلك قاصدا تبوك ، وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوته فآثرت الانسحاب بجيشها الذى كانت وجهته إلى حدودها ، ليتحصن داخل بلاد الشام فى حصونها ، فلما انتهى المسلمون إلى تبوك وعرف محمد أمر انسحاب الروم ، ونمى إليه ما أصابهم من خوف ، لم ير محلا لتتبعهم داخل بلادهم وأقام عند الحدود ، يتحدى من شاء أن ينازله أو يقاومه ، ويعمل لكفالة هذه الحدود ، حتى لا يتخطى بعد ذلك أحد ، وكان يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود قد وجه إليه النبى رسالة أن يذعن أو يغزوه ، فأقبل يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب ، وقدم الهدايا وتقدم بالطاعة ، وصالح

محمداً وأعطاه الجزية ، كما صالحه أهل جرباء وأذرح ، وأعطوه الجزية ، وكتب رسول الله لهم كيف أمن . هذا نص أحدها وهو ما كتب به إلى يوحنا « بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنة بن روبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ، ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر . فمن أحدث منهم حدثا فإنه لايحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمحمد أخذه من الناس ، وإنه لايحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولاطريقا يردونه ، من بر أو بحر » وإيذاناً بالموافقة على هذا العهد أهدى محمد إلى يوحنا رداء من نسيج اليمن ، وأحاطه بكل صنوف الرعاية ، بعد أن اتفق على أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلاثمائة دينار فى كل عام .

لم يبق محمد بحاجة إلى القتال بعد انسحاب الروم ، وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه ، وبعد أمنة عودة الجيوش البيزنطية من هذه الناحية ، لولا خيفة انتقاض أكيدر بن عبد الملك الكندى النصرانى أمير دومة ، ومعاونته جيوش الروم

إذا جاءت من ناحيته لذلك ، بعث إليه خالد بن الوليد فى خمسمائة فارس ، وانقلب هو بجيشه راجعاً إلى المدينة ، وأسرع خالد بالانقضاض على دومة فى غفلة من مليكها الذى خرج فى ليلة مقمرة ومعه أخ له يسمى حسان يطاردان بقر الوحش ، ولم يلق خالد مقاومة تذكر حتى أخذ حساناً وأخذ أكيدر أسيراً وهدّده بالقتل إن لم تفتح دومة أبوابها ، وفتحت المدينة الأبواب فداء لأميرها ، وساق خالد منها ألفى بعير ، وثمانمائة شاة ، وأربعمائة وسق من برّ وأربعمائة درع ، وذهب بها ومعه أكيدر حتى لحق بالنبى فى عاصمته ، وهنالك عرض على أكيدر الإسلام فأسلم وأصبح حليفاً له .

ولم يكن عود محمد على رأس هذه الألوف من جيش العسرة من حدود الشام إلى المدينة بالأمر الهين ، فلم يدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذى عقد مع أمير أيلة والبلاد المجاورة له ، ولم يقيموا كبير وزن لما حققه محمد بهذه الاتفاقات من تأمين حدود شبه الجزيرة وإقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم ، بل كان كل الذى نظروا إليه أنهم قطعوا هذه الشقة

الطويلة ، وتحمّلوا فى قطعها ما تحمّلوا من الأذى ، وهاهم أولاء يعودون لم يغنموا ولم يأسروا ، بل لم يقاتلوا ، وكل الذى فعلوا أن أقاموا بتبوك قرابة عشرين يوما ، وكأنهم لهذا قطعوا الصحراء فى شدة القيظ فى حين كانت ثمار المدينة قد طابت وآن أن يستمتع الناس بها ، وجعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل محمد ، فينقل من ملأ الإيمان قلوبهم بنبأهم إليه ، فيأخذ المستهزئين بالشدة حيناً وباللين حيناً ، والجيش يسير قافلا إلى المدينة ، ومحمد يحفظ النظام فى صفوفه ، حتى إذا انتهى إليها لم يلبث ابن الوليد أن لحقه بها ، ومعه أكيدر وما حمل من دومة من إبل ، وشاء وبرود روع ، وعلى أكيدر حلة من ديباج موشى بالذهب بُهت أهل المدينة لمرآها . .

وهنالك اضطرب الذين تخلفوا عن أتباعه اضطرابًا ردّ المستهزئين إلى صوابهم ، وجاء المتخلفون يعتذرون ، وأكثرهم يشوب معاذيره الكذب ، وأعرض محمد عما صنعوا تاركاً لله حسابهم ، لكن ثلاثة صدقوا الله ورسوله فاعترفوا بتخلفهم ، وأقروا بذنبهم ، هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، وقد أمر

محمد فأعرض عنهم المسلمون خمسين يوما ، ولا تصل بينهم وبين مسلم تجارة ، ثم تاب الله على هؤلاء الثلاثة . . . ومنذ ذلك اليوم بدأ محمد يشتد فى معاملة المنافقين شدة لم يألفوها من قبل وذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطراً يخشى منه ، ويجب تلافيه وعلاجه ، وهم إذا ازدادوا من بعد أضعاف زيادتهم اليوم – وذلك مالم يقم بنفس محمد ريب فيه بعد أن وعده ربه لينصرن دينه وليعلين كلمته – كان المنافقون خطرا عظيما ، ولقد كان له من قبل حين كان الإسلام محصوراً بالمدينة وما حولها أن يشرف بنفسه على مايجرى بين المسلمين ، أما وقد انتشر الدين فى أنحاء بلاد العرب جميعاً ، وها هو ذا يشارف الإنتقال منها ، فكل تهاون مع المنافقين شر تخشى مغبته وخطر ما أسرع مايستشرى إذا لم تجتث جرثومته . .

بنى جماعة مسجداً بذى أوان – على بعد ساعة من المدينة – وإلى هذا المسجد كان يأوى جماعة من المنافقين يحاولون أن يحرفوا كلام الله عن مواضعه ، وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضراراً وكفراً ، وطلبت هذه الجماعة إلى النبى أن يفتتح المسجد

بالصلاة فيه ، وكان طلبهم هذا قبل تبوك ، فاستمهلهم حتى يعود . فلما عاد وعرف من أمر المسجد وحقيقة ما قصد إليه من إقامته أمر بإحراقه ، فضرب بذلك مثلا ارتعدت له فرائص المنافقين ، فخافوا وانكمشوا ، ولم يبق لهم من يحميهم إلا عبد الله بن أبى شيخهم وقائدهم . . . على أن عبد الله لم يعمر بعد تبوك غير شهرين مرض إثرهما وتوفى . . . وبغزوة تبوك تمت كلمة ربك فى شبه الجزيرة كلها ، وأمن محمد كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفوداً عليه يقدمون الطاعة ، ويعلنون لله الإسلام ، فكانت هذه الغزوة بذلك خاتمة غزوات النبى عليه السلام » .

والواقع أن سورة التوبة كانت السجل الواعى لغزوة تبوك ، وقد عرضت لكل لون من ألوان النفاق الذى ظهر به هؤلاء الذين كان لهم ظاهر وباطن يغاير كلاهما الآخر فى حقيقته المكشوفة حتى لقد كانت هذه السورة تسمى عند علماء التفسير بالفاضحة لأنها فضحت أمرهم ، وهتكت أسرارهم ، ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم عنيفًا فى معاملتهم كما ثبت ذلك مع الذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا ، وكما ثبت مع الثلاثة الذين خلِّفوا ، إلا أن

ذلك كله كان فى آخر المطاف حين لم يبق فى قوس الصبر منزع كما يقولون – وإلا فإن الباب كان مفتوحا لهم على مصراعيه لا فى الاستئذان الكثير الذى عاتبه الله عليه بقوله : «عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ، لايستئذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ، إنما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون » ولكن فى لصق العيوب والنقائص به ثم بالمسلمين معه كذلك ، وهذه آيات هذه السورة تقول « ومنهم من يلمزك فى الصدقات . . ومنهم الذين يؤذون النبى » . . وعلى الجملة فإن هذه الغزوة على الرغم من أنها كانت خالية من المجابهة والالتحام إلا أنها كانت مجابهة وإلتحاماً لهؤلاء الذين كانوا مرضى القلوب والأفئدة إذ تبينوا للرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين على حقيقتهم من غير زيف ولا طلاء ولابهرج ، وفى الوقت الذى تكامل للدولة الإسلامية نفوذها الذى لايمكن لأحد أن ينكره أو يزاحمه كانوا هم قد تكاملت لهم عناصر الهزال والضعف الذى لايكون بعده سوى الفناء والموت وكذلك تكون نهاية المرضى . .

وربما تغاضى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بعض المنافقين فلم يأخذهم بالشدة إرضاءً لذويهم أو بعض قرابتهم وكان عمله هذا من صميم الحزم والكياسة ، وقد كان هذا المعنى واضحًا تمام الوضوح فى عبد الله بن أبى الذى طالما همّ بعض المسلمين بقتله فلم يرض الرسول عن ذلك ولم يشجع عليه وحين وفاته صلى عليه صلاة الجنازة إرضاءً لابنه الذى كان من خيار الصحابة وان كان صلى الله عليه وسلم قد نهى عن مثل هذه الصلاة فيما بعد بقوله سبحانه : « ولاتصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » وقد كان لهذه الصلاة وقع طيب فى نفوس الخزرج الذين كانوا يحبُّون عبد الله ويعترفون له بالفضل عليهم .

ومهما كان الحال من اللين أو الشدة فى معاملة المنافقين ، فإن أحدًا لايشك فى أنهم أصبحوا منذ تبوك يعاملون بعنف ، ويؤخذون بشدة ، لاتقل عن تلك التى كان يعامل بها المشركون ، وقد كان المشركون أنفسهم يتنفّسون الصعداء إلى ماقبل تبوك لكنهم بعدها أخذوا يشعرون بالغربة والذّلة والمهانة والضعف ، ويشعرون بأن الأرض تميد من تحتهم وقد أرسل الرسول صلى

الله عليه وسلم أبا بكر فى أخريات ذى القعدة من السنة التاسعة ليحج بالناس ولم يشأ أن يخرج هو بنفسه لأنه كان غير راض عن حج المشركين إلى بيت الله الحرام — مع أن ذلك كان مألوفا فى الجاهلية وقد سبق له أن استنفرهم للحج فى غزوة الحديبية — ولهذا نزلت الآيات الأولى من سورة التوبة تنبذ إليهم عهدهم وتمنع أن يدخل البيت مشرك : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عليه فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم » وذهب على بن أبى طالب ممثلا رسميا عن النبى صلى الله عليه وسلم ليعلن ذلك الإنذار الرسمى الذى تضمنته أوائل السورة « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » وبهذه المرحلة من القوة والعزة والنفوذ والسلطان التى وصل إليها الإسلام كان فى الوضع الذى يسمح له بأن يصدر أوامره ونواهيه من مركز القوة التى

يحسب لها الناس ألف حساب ، فلا يستطيع أحد أن يعارضها أو يقف فى وجهها إلا إذا تجرّدَ من العقل ، أو كان مغامرا بروحه التى بين جنبيه وهيهات أن يكون هنالك شىءٌ من ذلك كله إلا عند المجانين .

حجــة الوداع

بعد هذا الإعلان الصارخ الذى تولى إذاعته على بن أبى طالب رضى الله عنه والذى أردفه بأنه لايدخل البيت مشرك ، ولايطوف به عريان ، كان لابد لهؤلاء جميعًا أن ينكمشوا ، وأن يؤمنوا إيماناً لاشك فيه أن الدولة المسلمة لاحياة فيها إلا لمن يدين بدينها ويدافع عن حوزتها ، ويبذل جهده كله للدفاع عن رايتها ، وأن وجود غير المسلم مهما اتسع صدر الدولة له ، وأحسنت إليه ، وضمنت له البقاء الطيب ، والعيش الناعم ، والإستقرار الآمن فإنه فى النهاية أشبه بالواغل المتطفل ، أو الغريب المقحم ، أو الحاقد الموتور ، تحيط به الريبة ، ويكتنفه الشك ، وتترامى حوله الظنون ، ولايطمئن إليه المسلم ، وربما كانت هذه قضية اتفقت عليها مبادئ علم الاجتماع ، ولهذا جاء فى القرآن الكريم « ولاتؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » وقد رأينا أن الحروب والخلافات التى تثيرها الأفراد والجماعات ويستعصى فيها الوئام والصلح ترجع عن طريق مباشر أو غير مباشر إلى هذا السبب الذى ينتهى

فى آخر أمره إلى الدين ، والصراع الذى كان بين اليهودية والنصرانية غير منكور ولابعيد ، لذلك كله أدركت هذه الفلول المشركة فى أطراف الجزيرة أو فى داخلها أنه لاعلاج لتلك العلة المستعصية إلا بالدخول فى هذا الدين ، وأن وجودها خارج نطاقه حكم عليها بالإذلال والهوان إلى الأبد ، وعندئذ أخذت الوفود من نجران وعبد القيس وبنى حنيفة وكندة وأزد شنوءة وهمدان وثعلبة وغسّان وبنى أسد وبطون وقبائل كثيرة تتوافد عليه صلى الله عليه وسلم لتعصم دماءها من السفك ونوسها من الازدراء وحياتها من الامتهان ، ومستقبلها من الضياع ،تعاهده على الإسلام الذى يرفع أهله من ذات الصدع إلى ذات الرجع . . وهنالك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اطمأن الاطمئنان كل الاطمئنان إلى أنه لايحج مشرك ، ولايطوف بالبيت عريان ، فأعلن أنه فى هذا العام — الحادى عشر — سيخرج إلى حج بيت الله الحرام ، ودبّ حنين المصاحبة له ، وشرف المرافقة إلى الأفئدة المؤمنة ، والقلوب المتلئة بنور اليقين ، وخرج معه تسعون ألف أو أربعون ألف ومائة ألف فى بعض الروايات ، ومشوا تميد الأرض من تحتهم وترقص النجوم من فوقهم ، ويمتلئ الجو كله من حولهم بالبهجة

والسرور ، يتقدمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته القصواء قائلاً « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك » وهم من ورائه بصوت واحد يرددون قوله ، ويصيخون إلى نغمته الحلوة . ومقاطعه الرتيبة ، وموسيقاه التي تنساب في النفوس انسياب الحياة في الأحياء . . ولما دخل مكة وشاهد البيت قال :اللهم زده تشريفا ، وتعظيما ومهابة وبرًّا ، وطاف به سبعا واستلم الحجر الأسود وصلى ركعتين عند مقام إبراهيم ثم شرب من ماء زمزم وسعى بين الصفا والمروة سبعا — كذلك — وكان إذا صعد الصفا والمروة يقول : « لا إله إلا الله ، الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » وفي الثامن من ذي الحجة توجه إلى منى فبات بها ، وفي التاسع توجه إلى عرفات وخطب خطبته المشهورة ، وهي خطبة الوداع لهذه الأمة التي كافح من أجلها ، وجاهد لتحريرها ، وحارب في سبيلها ، وظل ثلاثا وعشرين سنة يرسم لها المستقبل الأفضل ، والسلوك الأكرم ، والعيش الأحسن ، والحياة التي تمتلئ بالسعادة ، وتطفح بالبهجة وتجود على الناس بالرخاء والاطمئنان ، ونصها الذي أجمعت

عليه كتب التاريخ والسيرة « الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله ، بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير .

أما بعد : أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربًا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب وإن دماء الجاهلية ، موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية ، والعمد قود وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يُعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم ...

أيها الناس إن النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله ، وإن الزمان قد إستدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض منها أربعة حرم . ثلاث متواليات ، وواحد فرد ، ذوالقعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت اللهم أشهد .. . أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق ، ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربًا غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوانٍ ، لا يملكن لأنفسهن شيئًا اتخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيرا ، ألا هل بلغت اللهم اشهد أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ولايحل لامرئ مال أخيه إلا عن

طيب نفس منه ألا هل بلغت اللهم اشهد ، فلاترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده ، كتاب الله ألا هل بلغت اللهم فاشهد.. أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب . . . أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصيته ، ولاتجوز وصيته فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، من ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة ، والناس أجمعين لايقبل منه صرف ولاعدل والسلام عليكم ورحمة الله .

وفى هذا اليوم نزل قوله جل شأنه : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » وأدى صلى الله عليه وسلم مناسك الحج من رمى الجمار ، والنحر والحلق والطواف وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قفل راجعا إلى المدينة

ولما بدت له ن بعيد معالمها الشامخة كبّر ثلاثا وقال « لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون . صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » .

والواقع الذى لاشك فيه أن هذه الخطبة كانت وثيقةً تاريخيةً رائعةً حدّد فيها النبي صلى الله عليه وسلم المعالم الصحيحة للمجتمع المتماسك القوى الذى يسوده التعاون والوفاء والحب والبر والرحمة والتعاطف والخير والسعادة والأمن والطمأنينة والاستقرار ، والتقدم ، وكانت الدعامة الأولى لهذا كله صون الدماء والأموال : « إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام » فإن الجماعات والشعوب والأمم لاتسودها الفوضى والانحلال ، ويسيطر عليها القلق والاضطراب ، وتتحول إلى أحراش وغابات تسكنها الوحوش الضارية ، والذئاب المفترسة ، إلا إذا رخصت فيها الدماء على الناس إلى هذا الحد الذى لايجد فيه القاتل من يضرب على يديه ويحول بينه وبين سفك الدم الحرام ، ولهذا كانت الكلمة القرآنية « ولكم فى القصاص حياة » تشبه الدستور العادل ،

والقانون الصحيح ، والنظام الذى لابد منه ، لوجود البيئة ، المترابطة ، بالحق ، المتواصلة بالبر ، المتماسكة بالعدل ، المتضاربة فى القلوب والأفئدة ، حتى يمكن أن تحصل على السعادة التى تنشدها ، والاستقرار الذى تطلبه ، وكذلك كانت للأموال هذه الاعتبارات ، لأن المال عصب الحياة ، فإذا لم يكن لها تلك الحرمة ، كانت الحياة جحيما ، والعيش لوناً من ألوان التعاسة إن لم يكن هو التعاسة بذاتها .

وكانت الدعامة الثانية أداء الأمانة «فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها» وفى القرآن الكريم: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» والأمانة أو أداء الأمانة عنوان من عناوين الثقة المتبادلة بين الأفراد والجماعات.. ووجود هذه الثقة أمر ضرورى للتكتل الأسرى والشعبى الذى لابد منه لقيام حياة اجتماعية بين الناس — والإنسان مدنى بالطبع كما يقول ابن خلدون وغيره من فلاسفة علم الاجتماع — ولايمكن لإنسان أن يعامل إنسانا تنعدم الثقة بينه وبينه ، وبهذا تتفكك الروابط ،

وتتقطع الأواصر ، وتذوب الوشائج ، ولايقوم بين الناس اجتماع وهنالك تتعطل المصالح ويصيبها الشلل والموت .

وهكذا إذا مشينا مع الخطبة ـ خطوة خطوة ـ وجدناها تفيض بالنصح الخالص ، الذى لا يصدر إلا من قلب قد امتلأ بالحب والبر ، والشفقة والعطف ، والرغبة الملحة فى الفلاح والنجاح والسداد والرشاد ، لمن يوجه إليه القول ، ويخصه بالتقويم ويأخذ بيده إلى سلوك السبيل السوى ، والصراط المستقيم ، فهى تعلن الحرب الساخنة على الربا وأهله ، لما فيه من مفاسد تهدد كيان الأمم والشعوب وتضر بالعلاقات القائمة بين الناس ويبدد بالذى يتهاون فى دينه حتى ولو بارتكاب الصغائر التى يعتادها ، مستهينا لشأنها ، مستخفا لها ، وهى الخطوة الأولى إلى جحود القلب ، وظلام البصيرة ، وقسوة الفؤاد ، والجرأة على الله ، وسوء الأدب معه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ومعظم النار من مستصغر الشرر « إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم » وطاعة الله رياضة للنفس على التزام أوامره ، واجتناب نواهيه ، التزاماً لاتهاون فيه ولا تغافل

ولا تباطؤ ولا تراخى ولا نقص ولا زيادة كذلك ، فإن حصل خلل فى دقة الامتثال ، ودقة التطبيق ، ودقة الالتزام كان ذلك كله هو الثغرة التى ينفذ منها الشيطان إلى ضمير المؤمن ليقوده إلى المعصية ثم إلى الغضب عليه ثم إلى الطرد من رحمته ، والعياذ بالله . .

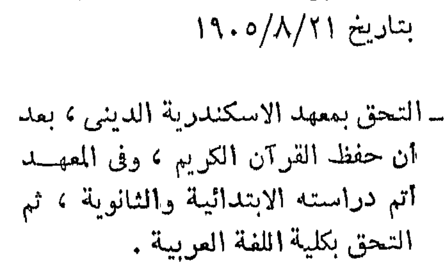
وفى الخطبة مقدار عظيم من الإهتمام بالمرأة ـ لأنها نصف المجتمع وبخاصة حين تكون زوجة ، فإن وضعها يكون شائكا ، لأن حياتها مع الرجل وهى قائمة على الحب المتبادل ، والوفاء من كليهما للآخر ، والثقة المتوفرة بينهما ، تحتاج إلى صون حرمانه والمحافظة على عرضه « ألا يوطئن فرشكم غيركم ولايدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة » وهى على كل حال ـ بالنسبة للرجل ـ مخلوق ضعيف « وإنما النساء عندكم عوانٍ لايملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً » إلا أنها مع هذا الضعف تستطيع أن تكون شيئاً ذا أهمية فى سعادة البيت ، كما تستطيع أن تكون شيئاً ذا أهمية فى ذلك النعيم الواسع الذى ينشده الرجل من البناء بها ، أو الحياة معها ، . .

وهذه السعادة وذلك النعيم، لا يمكن وجودهما ، إلا إذا لاحظ الرجل من جانبه هذا الوضع التركيبي – أو الخلق – لهذا المخلوق الضعيف المسمى بالمرأة ، الوضع الذى يحتم على الرجل أن يعاشرها بالمعروف « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ، وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » وليس أدل على روح الإخلاص ، وحب الخير ، والرغبة الصادقة فى الإصلاح ، من قوله صلى الله عليه وسلم فى أول الخطبة : « اسمعوا منى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا » ورحمه الله وصلى وسلم عليه فقد كان موقفه هذا بحق موقف وداع ....

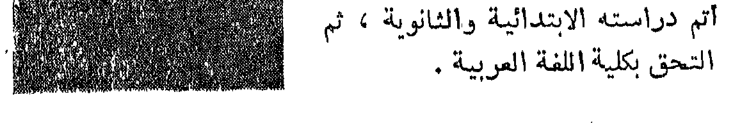
فهرس الموضوعات

المؤلف فى سطور

ـ ولـد الدكتـور « ابراهيم على أبو الخشب » بقرية محلة بشر من قـرى مركز شبراخيت بمحافظة البحيرة بتاريخ ١٩٠٥/٨/٢١



ـ التحق بمعهد الاسكندرية الدينى ، بعد أن حفظ القرآن الكريم ، وفى المعهد أتم دراسته الابتدائية والثانوية ، ثم التحق بكلية اللغة العربية .



ـ حصل على الدكتوراه فى علوم البلاغة والأدب سنة ١٩٣٦

ـ عين أستاذا للأدب بالدراسات العليا ، بكلية اللغة العربيـة بتاريخ ١٩٧٠/٨/٢١

ـ للدكتور المؤلف مقالات كثيرة تنشرها لفضيلتـه صحف : الأهـرام والجمهورية ، والأخبار كما سبق أن نشرت لفضيلته مقـالات فى صحف : المقطم ، والبلاغ ، وكوكب الشرق .

وتهتم المجلات الأدبية والدينية بنشر مقالاته وابحاثه القيمة كمجلات : الرسالة ، ومجلة الأزهر ، ومختلف المجلات الاسلامية والأدبية فى العالم العربى .

وتذيع لفضيلته محطات الاذاعـة فى مصر ، والعـراق ، والأردن ، والسعودية أحاديثه الشيقة .

وللدكتور نشاط ملحوظ فى التأليف الاسلامى ، ومن مؤلفاته :

١ ــ هواتف اسلامية .

٢ ــ الاسلام المظلوم .

٣ ــ القرآن الكريم دراسة .

٤ ــ القرآن وشيجة المسلمين .

٥ ــ تفسير سورة لقمان .

٦ ــ الاسلام ومنهجه فى الاصلاح .

٧ ــ قصة يوسف ــ عليه السلام .

٨ ــ قصة ابراهيم ــ عليه السلام .

٩ ــ أولياء الله الصالحين .

ــ ومن مؤلفاته فى الأدب وعلوم العربية :

١ ــ تاريخ الأدب الجاهلى .

٢ ــ تاريخ الأدب العباسى فى العصر الأول .

٣ ــ تاريخ الأدب العباسى فى العصر الثانى .

٤ ــ تاريخ الأدب فى الأندلس .

٥ ــ بغية المستفيد من العروض الجديد .

ــ ومن مؤلفات فضيلته تحت الطبع :

محاضرات فى البلاغة والأدب ، وديوان شعر ، وتفسير القرآن الكريم .

ــ اعير فضيلة الدكتور لالقاء محاضراته فى جامعات : ليبيا ، الأردن ، والعراق .

كلمة الاشراف

عزيزى القارىء :

فى اول ومضة من نور النبوة الشريفة ، الذى اشرق على البشرية فى ربيع الأول ، منذ اربعة عشر قرنا ، بمولد سيد الخلق ، وخاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ، عليه افضل الصلاة والتسليم ، سجل له التاريخ بحروف من نور على صفحاته الذهبية ؛ سلاسل خالدة من الخير والمعرفة ، والعلم والايمان بالله ، فأحدث ثورة عارمة ضد الجهل والكفر ، والقبلية والحروب الظالمة ؛ التى كانت سائدة آنذاك ، واخذ يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة الى طريق الهداية ، طريق الحق جل جلاله ، خالق الكون ومدبره ؛ وبارئه ومبدعه ، متخذا اسلوب التفكير فى الكون والتأمل فى ملكوته طريقا الى دين الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها ، دين الحنيفية السمحاء التى نادى بها سيد المرسلين ، حتى دالت له الدنيا من مشرقها الى مغربها بفضل هذه الدعوة السمحة ، ومبادئها الانسانية السليمة ، وبفضل داعيها العظيم الذى ارسله الله الى الناس كافة ليهديهم الى صراط مستقيم . ومن فيض هذه الرسالة ، وفى شفاعة نورها الساطع بذل كاتبنا الكريم جهدا مشكورا فى عرض هذا الموضوع ، والتعرف على جوانبه .

« يا ايها النبى انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » .

صدق الله العظيم ››

المشرف

طلعت الغنام

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

وكيل أول
رئيس مجلس الادارة
على سلطان على

(رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٣/٢٥٠٥)

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٥٠٠٢-١٩٧٣س٦٠٧٤



ترقبوا العدد القادم :

فى غرة ربيع الآخرة ١٣٩٣ هـ

المختار من الأنوار فى صحبة الأخيار

للإمام الشعرانى

تحقيق

الدكتور عبد الرحمن عميرة والأستاذ طلعت الغ

